روايات إسلامية

٦

رحلة إلى الله

نجيب الكيلاني

كتاب المختار



(الطبعة العشرون)

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢٤٠٢٢

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

٣ حارة الجمل - المتفرعة من ميدان السيدة زينب - القاهرة

تليفون ،فاكس ٣٩٢٢١٥١

- عطوة الملوانى : قائد السجن – فى الخامسة والثلاثين من العمر .
- نبيلة عبد الله : مدرِّسة تاريخ – خطيبة عطوة – فى حوالى الرابعة والعشرين من العمر .
- محمود صقر : شاب معتقل من الإخوان المسلمين فى السجن الحربى .
- الباشجاويش ياسين : سجان بالحربى .

معتقلون بالحربى :

- رزق إبراهيم
- معروف الحضرى
- دكتور فتحى العجمى
- يوسف
- عبد الحميد النجار
- سلوى أحمد عبد الكريم الصافى : زوجة إخوانى مطلوب القبض عليه يدرس الدكتوراه فى ألمانيا .
- عبد الله : رجل على المعاش – والد نبيلة .

- زكية : أم نبيلة .
- دكتور سالم : طبيب بأحد أحياء القاهرة .
- طبيب السجن الحربى
- قورى : معتقل يهودى .
- وفاء : فتاة وُضعت رهن التحقيق بالحربى .
- ضباط مخابرات ومخبرون سريون .
- فريد بك : محقق من ضباط الرئاسة لكنه كان من الإخوان فى صدر شبابه .
- يحيى بك : محقق ضابط بالسجن الحربى .

الفصل ١

خُيِّل إلى «عطوة الملوانى» أنه فوق البشر ، أن كل شيء طوع يمينه ، أصبح لديه المال والرجال والمنصب الكبير ، والسلطة الواسعة التى حلم بها طويلًا ، والكلاب الراقية المدربة تدريبًا رائعًا ، إنه يحب الكلاب حب ملك لُبه ، ويشعر بمزيد من الفخر والاعتزاز ، وهو يرى «لكى» و«توسكا» وذريتهما يتراقصون حوله امتلأ قلبه بالغبطة والسعادة حتى الحيوانات تركع له ، فما بالك بجنود السجن الكبير !!

نعم السجن الكبير .. إن عطوة أو البكباشي عطوة هو قائد السجن .. ونزلاء السجن ليسوا من الفئة العادية .. إنهم معتقلون سياسيون يعرفون الكثير عن السياسة والحرب وحقوق الشعب والحريات العامة وشريعة الله .. وعطوة يحلو له دائمًا أن يسخر من مبادئهم وثقافتهم وأفكارهم ، إنه لا يكلف نفسه مؤنة التفكير فيما يقولون ، ولا يحاول أن يناقشهم فى معتقداتهم ، إنه رافض منذ البداية لكل ما يقولون ، لقد درج فى حياته على أن يكون أداة طيعة فى يد من هو أعلى منه سلطة .. يؤمر فيطيع ، عمله ينحصر فى التنفيذ ، وهو يكره ما تكرهه السلطات العليا ، هذه الطاعة العمياء جلبت عليه الخير الوفير ، وأغدقت عليه العلاوات والترقيات ، وجعلته محلًا للثقة الكبيرة ، وأمدَّته ، بنفوذ واسع وأصبح اسمه على كل لسان ، وإن كانت شهرته التى تخطت أسوار السجن وأسوار الوطن إلى العالم الخارجى نابعة من كونه «جلادًا» .

لم يكن يخجل من هذه الصفة ، أو يشعر بالعار أو تأنيب الضمير ، كانت مصدر فخر واعتزاز له ، وكانت الصحافة– وكذلك النشرات السرية– التى تهاجمه مصدرًا من مصادر الاعتزاز والفخر ، وكان

يتخذها وسيلة لمزيد من التقرب والاندماج مع رجال السلطات العليا فى الدولة ، لقد أصبح واحدًا منهم ، ومصيره ارتبط بمصيرهم ، وأقدم على فعل أشياء رهيبة دفعته إلى الأبد بكل ما هو شرير وخسيس ، ولم يفكر فى الندم أو التوبة أو التراجع فى يوم من الأيام ، لقد عرف طريقه وسار فيه دون تردد أو خوف ، إنه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يفكرون فى مستقبل أو ماض إلا بالقدر الذى يخدم اللحظة التى يعيشها ، لأن تفكيره مُنصَب على الحاضر ، نعم فهو يؤمن إيمانًا عميقًا بأن الحياة هى الفترة الزمنية المغلقة التى يعيشها الآن .. هذه اللحظة ليس فيها إلا كل ما يدخل البهجة والرضا عن قلبه ، وماذا يريد أكثر من ذلك ؟؟ ها هى الكلاب تتواثب حوله ، والضباط يؤدون له التحية فى خشوع وخوف ، والجنود عندما يرونه يتجمدون فى أماكنهم ويعلو صوت البوق المميز وتنطلق الصيحة المعروفة «كل السجن ثابت» فيقف كل شيء متجمدًا .. تنظر إلى الجميع فيخيل إليك أنك فى متحف من متاحف الشمع ، وبعد لحظات ، يدب النشاط والحماس فى كل الكائنات المتواجدة فى السجن ، ويسود جو من الرعب لا مثيل له ، ويهتف صوت الجنود «سريعًا مارش يا ابن الكلب» فتجرى طوابير السجناء الأذلاء حليقى الرؤوس ، والسياط العنيفة تهوى على أجسادهم ووجوههم وهاماتهم ، ولا تكاد تسمع إلا وقع الخطى المتراكضة ، وأزيز السياط الحاقدة ، ونباح الكلاب الشرسة التى تطارد الطوابير المرهقة المكدودة والشمس فى قلب السماء نارًا محرقة على صحراء العباسية المترامية الأطراف .. ورجال المباحث العامة يجلسون فى مكاتبهم الأنيقة ، وأمامهم المراوح الكهربائية والمفارش الخضراء ، والمشروبات الغازية المثلجة ، أو فناجيل القهوة التركى «سكر مضبوط» ، وعلب السجائر الأجنبية المهربة متراصة أمامهم ، وسحابات من الدخان تتبدد سريعًا بفعل المراوح ،

وزجاجات من الويسكى وبضعة كؤوس، ومسدسات أنيقة من النوع الفاخر السريع الطلقات .. وضحكات من القلب تنطلق فى تلك الغرف المريحة الجميلة .. لا تكاد تشعر بأزيز السياط فى الساحة الدامية، ولا بوقع الخطى المكدودة وما تثيره من غبار، ولا بصياح الجنود وهم يقذفون الطوابير بأقذع الشتائم، ولا الكلاب التى تنبح وتنهش لحوم البشر، مما يطلق صيحات الأنين والصراخ المكتوم ..

هذا العالم المنعزل .. البعيد .. الغريب هو دنيا «عطوة الملوانى» هو مملكته التى أنس إليها وأحبها .. بل عشقها من كل قلبه .. إنه الملك السعيد الذى يعتقد اعتقادًا جازمًا أن كل شىء طوع يمينه، ورهن إشارته، وهل فى الدنيا أعظم من هذا المجد وذلك السلطان ؟؟ إن حياة الناس، فى هذا المعتقل، بين أصبعيه، يستطيع أن يصدر أمرًا بقتل أى سجين دون سؤال أو جواب ودون محاكمة فيتم التنفيذ فى الحال، هل هناك سلطة أكبر من ذلك ؟ ويستطيع أن يهب الحياة كما يهب الموت .. وعلى الرغم من كل هذه الشراسة، وذلك الغرور الذى يتميز به عطوة الملوانى فى السجن، إلا أنه يبدو مهذبًا رقيقًا فى منزله بضاحية مصر الجديدة، أو بين أصدقائه من ضباط الجيش وعائلاتهم، أغلبهم يقولون عنه إنه لطيف، حلو النكتة، وفىّ لأصدقائه، وإن كان البعض يؤكد أن له بعض التصرفات الشاذة الغريبة، فمثلاً شمع أن فى مكان موحش تظهر بعض الأشباح، فما كان منه إلا أن أخذ يتردد على هذا المكان فى الليل، ويظل يتجول فيه ساعات طويلة، وذات مرة وضع السيجارة المشتعلة على صدره ليعرف مدى الألم الذى تحدثه النار وهى تحرق الجسم البشرى، وحدث أن تبارى مع صديق له فى إطلاق النار على رأسه، فيضع فى المسدس طلقة واحدة، وكذلك يفعل زميله، ثم يدير الخزانة الخاصة بالرصاص، ويتباريان كل يطلق المسدس على نفسه .. على رأسه ..

وبحيلة بارعة استطاع عطوة أن يسقط الرصاصة من مسدسه، وأن يملأ مسدس صديقه بالرصاص.. كان أن مات الصديق.. ونجا عطوة.. وتصرفات أخرى كثيرة وغريبة.

وعطوة رجل متوسط الطول، ليس بالقصير، ولا بالطويل، وإن كان جسمه ممتلئًا بعض الشيء، أشقر اللون والشعر، فى خده أثر جرح قديم يقال إنه نتيجة إصابة أيام حرب فلسطين التى ذهب إليها عندما دخلت الجيوش العربية لتحريرها عام ١٩٤٨.. ولنظراته بريق خبيث غير مفهوم، أحيانًا تدفق عيناه شرًا ورعبًا، وأحيانًا أخرى يخيل إليك أنها تحيش بالمحبة والحنان والصدق، كما ينتابه فى بعض الأحيان شىء من البلاهة بين أصدقائه وهم يسمرون، وقد يجعلونه مادة للسخرية والضحك، وخاصة إذا ما دارت الكؤوس، وهو لا يغضب من ذلك أو يتمرد أو يحتج، إنه يشاركهم الضحك والنكات، لدرجة أنه يبدو ساذجًا تافهًا..

ولقد كان فى إمكانه أن يصدر الأوامر للجنود أو الكلاب كى تقوم بدورها فى عقاب المسجونين، وإسالة دمائهم، وإطلاق نداءات الاستغاثة من أفواههم الدامية، لكنه لم يكن يفعل ذلك فى غالب الأحيان، كان يمسك السوط بيده، ويمارس عملية التعذيب والجلد، أو يصلب المعتقل على صليب خشبى، يطلقون عليه «العروسة» ويربطه بنفسه، ثم يتفنن فى إيذائه، ويتسلى بالدموع والدماء والآهات الكسيرة التى تنطلق فى ألم وضراعة وحزن لا مثيل له، وبعد أن يؤدى مهمته، يذهب إلى مكتبه، ثم يشرب القهوة، وينفث دخان سيجارته فى هدوء، ثم يدير مفتاح المسجل ليسمع أغنية «شمس الأصيل ..»لأم كلثوم .. أو أغنية «يا جمال يا مثال الوطنية» ثم ينظر إلى الصحف فى ازدراء، ولا يلتفت إلا إلى الصور .. ولا يعبأ كثيرًا بما يكتب فى السياسة، لأنه يعتمد له رؤساؤه فى الاجتماعات الرسمية

وغير الرسمية .

وعلى الرغم من أن عطوة فى الخامسة والثلاثين من عمره إلا أنه لم يتزوج بعد .. لكنه اقتنع أخيرًا بموضوع الزواج عن طريق زوجة لأحد أصدقائه بعد جهد جهيد ، وبعد أن أحرجوه بقولهم بأنهم جميعًا متزوجون وأنه الوحيد بينهم بلا زوجة ، فوافق فى البداية على مضض ، لأنه كان يأنف من الزواج ويعتبره بلا معنى ، ولن يضيف إلى حياته جديدًا سوى المشاكل والأعباء والقيود ، وكان يردد دائمًا بأنه فى وضعه الحالى يشعر بكامل الاطمئنان والسعادة ، ولا ينقصه شىء ، وإذا كان الزواج تلبية لنداء داخلى فى قلب الإنسان وجسده وفطرته ، فإنه لا يكاد يسمع صوتًا لهذا النداء ، فضلاً عن أنه يرى أن الزواج محصور فى اللقاء الجسدى بين الرجل والمرأة ، وهذا الموضوع فى نظره له ألف حل وحل غير الزواج ..

لكنه بعد أن رأى «نبيلة» شعر بقليل من الارتباك ، واحتقن وجهه وأذناه ، كما شعر بقلبه يدق ، كانت قمحية اللون ، ناعمة البشرة رائعة العينين ، ذات وجه مثير ، ونبرات صوتها آسرة ، وعُودها الممشوق يوحى بالفتنة والأنوثة والنضرة والعطاء .. لعق شاربه وشفتيه بلسانه ، ورجفت أهدابه وتمتم «إيه الجمال ده كله» ..

قالت نبيلة وهى تضحك ، وأسنانها البيضاء تلمع خلف شفاه وردية ، ورأسها الفاحم يتطوح إلى الخلف ، فيبدو عنقها وأعلى صدرها نابضين بالحيوية والإثارة :

- «نحن لم نتعارف بعد» .
- «الكتاب يُعرف من عنوانه ..» .
- «ياه .. إذن فأنت تحب القراءة مثلى ...» .
- «القراءة ؟؟ أنا لم أقرأ إلا الكتب المقررة ..» .
- «ياه .. هذا غير معقول .. رجل فى مركزك ووضعك الرسمى

والاجتماعى ولا يقرأ ؟؟ أنا لا أصدق ..» .

اقترب منها ، ونظر إلى وجهها فى رقة ، وقال :

– «ليس لدى وقت للقراءة .. أنا أتعلم من الحياة ..» .

– « القراءة هى الحياة .. ولسوف تقرأ كثيرًا فى المستقبل ..» .

كان غارقًا فى فتنة وجهها ، وجمال عينيها ، وحلاوة الكلمات التى تخرج من فمها ، ولم يتابع ما تقول ، وكان خياله يذهب إلى بعيد ، وتتلاقى مخيلته صورة الجسد العارى والكؤوس المترعة ، والضوء الخافت ، والمضاجع الحريرية ، والمائدة المكتظة بأطايب الطعام ، وغمغم وهو يمسك بيدها :

– «سنظل نقرأ معًا طوال الحياة ..» .

– « هذا تقريبًا ما قلته ..» .

– « هيا بنا .. اتفقنا ..» .

الفصل ٢

الشىء الذى يضايق «البكباشى عطوة» أشد الضيق وأعنفه هو أن يرفض له طلب، الحياة العسكرية علّمته أن يصدر الأمر فيجاب على الفور، والأمر عنده لا يحتاج إلى تكرار، حتى هو نفسه بالنسبة للرتب العالية فى الجيش لم يتعود أن يعصى لهم أمرًا، لقد تمت خطبته لنبيلة، وهو يعتقد أنه ربح بذلك معركة كبرى، أو كسب أروع صفقة له فى لعب الورق الذى يدمنه، لكن الشىء الذى آلمه أشد الألم أنها ترفض الاستجابة لعبثه، لقد أراد أن يقتنصها بسرعة، جذبها إليه فنفرت منه حاول تقبيلها فتمنعت، جرها إلى السرير فانتزعت نفسها منه انتزاعًا وهو يلهث، صرخ فيها كوحش مفترس..

– «ما معنى ذلك ؟؟».

– «أتسألنى أنا ؟؟ اسأل نفسك ..».

– «خطيبتك نعم .. لكنى لست زوجتك».

– «أنا أكره اللعب بالألفاظ .. أنت لى سواء هذا أم ذاك».

– «الفرق كبير بين الاثنتين ..».

هدد بكلبه الشرس :

– «أنا لا أطيق الاعتراض ..».

– «لنتفاهم ..».

– «لم نلتق لنتفاهم .. إنك تهدرين أجمل أوقاتنا بغبائك ..».

بدا على وجه نبيلة الامتعاض، وفكّرت فى الخروج، لكنها تمالكت أعصابها وقالت :

– «أتحب الموسيقى ؟؟».

هتف فى حدة :

– « لا موسيقى .. ولا زفت ..» .

– « أنت إنسان متحضر ..» .

وابتسمت نبيلة ، واقتربت منه محاولة ترضيته ، لكنه دفع يدها فى غضب وقال :

– « العلاقة بيننا ليست موسيقى .. ولا قراءة .. ولا كلام فارغ من هذا القبيل .. دعك من الأوهام .. أنا رجل عملى ..» .

وبرغم ثورته فقد ضحكت وقالت :

– « نزار قبانى عنده حق ..» .

قال فى سخرية :

– « ومن يكون نزار هذا ؟؟ » .

– « شاعر ..» .

دقَّ الأرض بقدمه وقال :

– « موسيقى !! شعر !! كفى تخريفًا ..» .

نظرت نبيلة عبر النافذة المظلمة ، ثم هامت بنظراتها فى أرجاء الغرفة وقالت :

– « يقول نزار » :

ثورى على شرق التكايا والسبايا والبخور

ثورى على شعب يراك وليمة فوق السرير

قدم نحوها وطوقها بذراعه القوية وأنفاسه تتلاحق وقال :

– « لا أفهم شيئًا مما تقولين .. ولا تنطقى بكلمة ثورة وإلا علقوك على (العروسة) أو شنقوك ...» .

خلَّصت نفسها منه برفق عندما رأته يحاول تقبيلها وقال :

– « أعوذ بالله .. وأنت ؟؟ ألست من الثوار ؟ » .

– « نعم هو ذلك ..» .

قالت نبيلة فى فخر :

– « وهذا هو الذى جعلنى أحبك ..» .

رفع هامته فى استعلاء وقال :

– « ثورتنا ثورة رجال .. ولا نضيع أوقاتنا إلا فيما يفيد .. لكنك تفكرين وتتصرفين بعقلية رجعية بحتة ..» .

ضحكت نبيلة وقالت :

– « هذا كلام يقال فى الخطب للجماهير ..» .

– « ما معنى ذلك ؟؟ » .

– « معناه أنك لن تمسنى إلا فى ظل الشرعية .. يعنى على سنة الله ورسوله ..» .

وقف مبهوتًا للحظات ، ثم هز رأسه في دهشة ، وعاد إلى الخلف ليتناول علبة السجائر ، ثم أشعل واحدة ونفث دخانه فى غيظ وقال :

– « لا أريد أن أسمع كلمة الشرع أو الشريعة أو السنّة .. أنا أمقت هذه الكلمات ..» .

فغرت فاها دهشة وقالت :

– « أعوذ بالله .. أنت مسلم .. وأبوك عالم من علماء الدين .. فكيف تجرؤ على مثل هذا القول ؟؟ » .

ذهب إلى مقعد وثير قريب ، ثم صبَّ كأسًا شربها دفعة واحدة وتجشأ ثم قال :

– « هذه الكلمات أو الألفاظ لها مدلول واحد عندى .. العصيان أو الثورة المضادة .. وأمن الدولة فوق كل اعتبار ..» .

ضحكت ، وأخذت تضرب الأرض بقدمها وهمست :

– « أتحسبنى من الإخوان المسلمين ..» .

بان الغضب فى عينيه وقال فى ضيق :

– « لنترك الحديث فى السياسة ..» .

– « وهل يغضبك يا عطوة أن نؤجل ما تفكر فيه إلى أن نعقد القران .. ؟! » .

هتف فى ملل :
- « عقد القران مجرد ورقة لا تساوى شيئًا ..» .
- « لكنه الباب الذى يدخل منه الشرفاء .. هى التى تفرق بين وضع ووضع .. بين حلال وحرام ...» .
صبّ كأسًا ثانية ، وهمّ بشربها ، لكنها أسرعت إليه وأمسكت بيده محاول منعه من الشراب فقال :
- « دعينى وشانى .. والحلال هو ما أريده ..» .
- « لست إلهًا يا عطوة ..» .
نظر إليها طويلًا ، ثم هزّ رأسه وقال :
- « يبدوا أننا لن نتفق ..» .
لم ترد عليه ، تناولت حقيبة يدها ، ثم هرولت خارجة ، وهى تقول :
- « لن أعود هنا مرة ثانية إلا بعد أن تقتنع بما أقول ..» .
تركته وحده ، سحق بقية السيجارة فى المطفأة الزجاجية ذات اللون الأزرق ، دار بنظراته المجنونة فى أنحاء الغرفة ذات الستائر الحمراء ، وقع بصره على المقعد الذى كانت تجلس عليه ، آه .. لقد نسيت كتابها .. قدم نحو الكتاب وأخذ يتصفحه ، إنه مكتوب باللغة الفرنسية ، حاول أن يقرأ العنوان فلم يستطع على الرغم من أنه درس اللغة الفرنسية فى المدرسة الثانوية لأربع سنوات ، رمى الكتاب على السجادة القاتمة اللون ذات الفراء الأحمر ، ثم داسه بقدمه ، ثم بصق عليه ، وتمتم قائلًا :
- « لم يزل فى هذا العالم كثير من الأغبياء .. نعم أغبياء لأنهم يعيشون بين صفحات الكتب أكثر مما يعيشون فى الواقع .. هؤلاء الأغنام الذين أسوقهم بالسياط فى السجن الحربى ، وأمزق فى أجسادهم بسبب نكبتهم الكبرى أنهم يقرأون .. نعم .. لقد كنت على حق حينما منعت عنهم الكتب نهائيًا .. لكن هذه المجنونة كيف أمنعها من

القراءة ؟؟ اللعنة عليها وعلى كلية الآداب التى تخرّجت منها .. وعلى مهنة التدريس التى تعمل بها ..» .

دقّ الجرس ، فدخل خادمه الصامت ، إنه ليس خادمًا بل مجرد جندى مراسلة ، درّبه عطوة على سلوك معين يلتزم به « أنا لا أرى ولا أسمع » ، تلك هى الفلسفة التى التزم بها « عويس » الجندى القادم من أقصى الصعيد ، والذى استطاع أن يكون هو الطباخ والغسّال والخادم في بيت سيده .. صاح عطوة :

– « أنت يا حمار .. ناد السائق يجهز السيارة ..» .

هَزّ عويس رأسه فى صمت ، ثم انصرف بالخطوة السريعة كما عوّده قائده ، وتوجّه عطوة بسيارته إلى السجن الحربى ، الطريق يغص بالسيارات والمشاة والضجيج ، كل شىء ينساب فى حركة متداخلة متصادمة وكأن الأمر طبيعى ، نظر عطوة عبر زجاج النافذة إلى الشارع فى ازدراء ولوّى شفتيه ، من هؤلاء الذين يراهم ؟؟ إنهم حثالة المجتمع ، ليس فيهم رجل واحد له ثقله ، هل يعرف هؤلاء البلهاء الذين يسيرون فى الشوارع ضاحكين أو صاخبين أو صامتين من يكون « عطوة الملوانى » عطوة الذى يركع تحت أقدامه أساتذة الجامعات ، وكبار الأثرياء ، وقدامى الباشاوات والبكوات والوزراء فى السجن الحربى ، وهم يضرعون إليه طالبين العفو ، ذارفين دموع الندم ؟؟ هل يعرفون من يكون عطوة بالنسبة للسلطات العليا خاصة ، وبالنسبة لأمن البلاد عامة ؟؟ لو يعرفون من يكون حقيقة لاصطفوا على جانبى الشارع هادرين بالهتاف الصاخب ، والتصفيق الحار ، ولحنوا رؤوسهم إجلالًا واحترامًا ، ولزغردت النسوة فى الشرفات ، ولأطلق الأطفال والصبية الأناشيد الحماسية للترحيب به ، ولامتلأت الشوارع بالوافدين من القرى والأقاليم يحيون شخصه الفذ ، ويغمغم عطوة فى غيظ «ناس أوباش .. بهائم ..» وفجأة تعترض طريق سيارته فتاة تعبر الطريق ، لكنها تمرق كالغزال النافر ، بينما يضغط

السائق بقدميه فتبطىء السيارة فى السير وتهتز هزة عنيفة ، فيصرخ عطوة فى السائق :

– «دُسها يا حمار ..» .

– «حرام يا بك ..» .

– «حرمت عيشتك أنت وأهلك » .

ثم رفع عطوة يده ، وهوى بها على قفا الجندى السائق الذى لم ينطقِ ببنت شفة ، واستمر فى سيره وقد تبللت أهدابه بنذر دموع ، وتذكَّر عطوة نبيلة .. إن خيالها يحاصره أعنف من ذلك الحصار الذى شقى به فى « الفالوجا » بأرض فلسطين أيام الحرب الأولى بين العرب واليهود .. إنه يفكر فى مصدر القوة التى تمتلكها « نبيلة » .. هى مجرد امرأة لا أكثر ولا أقل ، وكم من النساء بِعْنَ أنفسهن بالمال ، أو أغراهن المنصب والنفوذ أو حُملن إليه حَملًا بالتهديد والوعيد عن طريق رجاله وجنوده ، ولكن هذه الفتاة التى لم تتجاوز عامها الرابع والعشرين تبدو خلقًا آخر ، إنه يشعر أمامها بالعجز والحيرة والغيظ أيضًا ، لقد فكر أن يطردها ويركلها بقدمه ، لكن نفسه لم تطاوعه ، وفكَّر أن يضربها ، لكنها من أسرة ومثقفة ، وهَمَّ ذات مرة أن يصفعها لكن يده لم تتحرك ، لكأنما أصيب بالشلل ، وحاول أن ينساها لكنها فرضت نفسها عليه فرضًا ، بحيث لم يستطيع الإفلات من سطوتها وسلطانها ، وهو الذى كان يعتقد فى نفسه أنه أقوى الأقوياء ، وجبار الجبابرة ، فكيف استطاعت امرأة أن تسلبه إرادته ، فتملى عليه شروطها ، وتحقق ما تعزم عليه بمجرد كلمة أو موقف عادى .. إنه لا يطيق هذه التصرفات منها ، لعنة الله على ذلك اليوم الذى عرفها فيه .. أترى تكون قد سحرت له ؟؟ إنه لا يؤمن بالسحر ولا بالعفاريت ، لكن ما يراه من نبيلة يجعله يشك فى كل معتقداته وأفكاره القديمة ... والكارثة أنها تتكلم عن الحلال والحرام ، وعن الشرع وسُنَّة الله فى هذا العصر .. فى إمكانى أيتها المجنونة أن ألصق بك تهمة بشعة ،

مجرد تقرير بسيط، يقول كاتبه إنك تقومين بنشاط معاد لأمن الدولة .. إو إنك على اتصال بجهات أجنبية .. أو إنك عميلة صهيونية أو أمريكية .. وسرعان ما يقذفون بك فى زنزانة حقيرة سوداء لا ماء فيها ولا هواء ولا فراش وثير .. وتعيشين مع الوحدة والعذاب والخوف، ولا يكاد يمضى وقت قصير حتى يذهب عقلك إلى الأبد .. ما أغباك !! إنك لا تعرفين من أنا .. حسنًا .. لسوف آخذك مرة إلى السجن الحربى لترى بنفسك، وتعرفى من أنا .. أنا أقسم أن آخذك إلى هناك .. مجرد نزهة بسيطة .. سترين من حولى الكلاب والجنود والمعتقلين والضباط .. وسترين العصا السحرية التى أشير بها فيتحول السجن كله إلى مجزرة هائلة .. أروع مجازر القرن العشرين .. وسترين المجاهدين فى سبيل الله .. وأبطال الكفاح القدامى الذين أزعجوا التاج البريطانى قديمًا .. وهم يجرون تعساء ممزقين تنزف منهم الدماء والدموع، يجللهم الذل والشقاء .. وعندئذ تعرفين من هو عطوة الملوانى .. وما هى مكانتى بين البشر وفى التاريخ عندما يكتبون التاريخ الذى نصنعه بأيدينا ..».

وما أن فتحت البوابة السوداء الكبيرة، المكتوب فوقها «المنطقة المركزية– السجون الحربية» ما أن فتحت حتى نفخ جندى فى البوق، وصاح آخر بأعلى صوته :

«كل السجن ثابت» :

حتى ران الصمت والجمود، وتحولت ساحة السجن إلى متحف من الشمع، ولم يعد يسمع غير هدير السيارة وهى تدلف صوت مقر قيادة السجن الحربى، ثم تتوقف، وينزل منها عطوة والشارات الحمراء والذهبية تِحلى قبعته وسترته .. ويخرج وهو منحنٍ، ثم يرفع هامته إلى أعلى، فيؤدى الضباط التحية فى قوة ونشاط، ويخطو عطوة بعد أن يحييهم كنصف إله .. ويستقبله ضباط المباحث العامة بالتحية والضحكات الأخوية المألوفة .. وكلمات النفاق والمرح السمح،

فيصافحهم ويجلس إلى مكتبه منتفخ الأوداج، ثم يشعل سيجارته، ويصمت قليلاً ويقول :

– « هيه .. هل اعترف الولد الأزهرى القادم من (منية البندرة) » .

فيرد أحد الضباط الصغار .

– « أما زلت يا جناب الباشا متذكرًا اسم بلده ؟ » .

– « واسمه محمود صقر » .

– «ما شاء الله يا جناب الباشا .. ربنا يكملك دائمًا بعقلك المعجزة ..» .

وعاد عطوة يسأل :

– « هل اعترف ؟؟ » .

– « لا .. إن رأسه كالحجر ..» .

– « أحضروه إلىّ .. لسوف أحطمها ..» .

– « أوامر جديدة بالانتهاء منه ..» .

قهقه عطوة قائلاً :

– « أوامر ؟؟ أوامر لى أنا ؟؟ كل شىء متفق عليه .. أحضروه فورًا دون إبطاء ..» .

فهرول الضابط ومعه بضعة جنود خارج المكتب ..

الفصل ٣

محمود صقر يرتمى على بلاط الزنزانة البارد بالسجن الحربى رقم أربعة، كلما حاول أن يتحرك شعر بآلام رهيبة فى كل أنحاء جسمه، السياط قد تركت كدمات زرقاء وحمراء على وجهه وعلى رأسه الحليق وعلى جلده فى كل مكان، وهناك بعض الجروح المتقيحة أيضًا نتيجة لتوالى الضربات أحيانًا كثيرة فى مكان واحد، وبسبب نهش كلاب عطوة بك أو نتيجة للحرق بالسجاير المشتعلة، وهو يشعر أن درجة حرارته مرتفعة، وحلقه جاف، لَكَمْ يتمنى أن يشرب جرعة ماء، لكن الزنزانة خاوية تمامًا .. إنه يجلس عاريًا، ويرقد عاريًا لأن جسده المتورم الملتهب لا يطيق لمس أى شىء، إن عينه تغفوا أحيانًا قليلة .. يخيل إليه أنه هائم فى صحراء موحشة محرقة، تدهمه الذئاب من آن لآخر، ويرى السراب من بعيد فيلعق فمه بلسانه .. الماء .. الرحمة .. لا مجيب .. لماذا هذا العذاب كله ؟؟ المسألة كانت فى رأى محمود بسيطة للغاية، لم تكن تحتاج لهذا الرد العنيف المميت .. كل ما فى الأمر أنه يدعو إلى أسلوب فى الحياة والحكم يعتقد يقينًا أنه أسلوب يحقق العدالة والرخاء، وكان يدعو إلى ذلك لإيمانه بأن الدعوة فرض .. وخاصة أن ما يفعله أمر إلهى .. هكذا تعلَّم فى الأزهر، ولما قرأ التاريخ وفكر وقارن وراجع ونظر حوله أيقن أن طريق الله هو الطريق .. وأن المنهج الإلهى أعدل وأكمل من منهج البشر .. وأن الخالق أدرى بما يحقق السعادة والخير للمخلوق، وأى خروج على هذه العقيدة فى رأى محمود زيغ وانحراف وتعاسة .. لا شىء فى ذهن محمود غير ذلك، لكنه فوجىء ذات مساء بفيلق من الرجال يدهم بيته

ومعهم السلاح والعنف والصفاقة دفعوا أباه العالم والشيخ العجوز دفعًا فسقط على الأرض وسط الظلام وهو يستعيذ بالله، ونزعوا الحجاب عن وجه أمه وأخوته البنات، وأزعجوا الصغار والكبار فى بيت أبيه وقد قرب الفجر، استيقظ الأطفال يصيحون، وسالت دموع النسوة.. وتجمّع رجال القرية الصغيرة ونسوتها حول المنزل ينظرون صامتين.. الرجال المسلحون ينهرون ويضربون ويقذفون أقذع الشتائم.. والرعب يحط بجناحيه السوداوين فوق القرية الصغيرة، لأول مرة فى حياتهم يشهدون هذا المنظر، فى بيت من أشرف بيوت القرية وأعظمها تاريخًا، وأفضلها برًا وعطفًا وحبًا.. وتمتم رجل فى الستين من عمره ذو لحية بيضاء «هذا زمن الشيطان.. نحن فى آخر الزمان ..» أما والد محمود، فقد رآهم وهم يجرون ولده المدرس حافى القدمين، لا يلبس إلا جلباب النوم على اللحم وهزَّ رأسه فى حزن عميق، وانحدرت دمعة تعسة من بين أهدابه المرتجفة وقال: «الهرج والمرج من علامات الساعة.. كان الله فى عونك يا ولدى المسكين» ومشى محمود معهم كالمبهور، لماذا يفعلون كل ذلك ؟؟ حاول أن يتفاهم معهم فلم يستجب له أحد، سألهم عن السبب، فلطمه ضابط على وجهه قائلًا: «اخرس يا كلب» وعندما سألهم محمود:

– «هل معكم أمر من النيابة بالقبض علىّ ؟».

رد الضابط ساخرًا:

– «أية نيابة يا روح أمك ؟».

– «هذا قانون يا حضرة الضابط ..».

– «ملعون أبوك وأبو النيابة وأبو القانون ..».

لأول مرة يسمع محمود مثل هذه الكلمات، ودون تحفُّظ خرجت منه الكلمات:

– «لسنا فى غابة.. نحن فى القرن العشرين ..».

صفعه الضابط مرة ثانية ، ثم جرّه من طوق جلبابه اليتيم ، ودفعه داخل سيارة الشرطة وهو يقول :

- « أخرج منديلًا واعصب به عينيك ..» .

قال محمود فى دهشة :

- « لماذا » .

- « هذه هى الأوامر .. لا تتفلسف ..» .

- « ليس معى منديل ..» .

- « اخلع سروالك ..» .

- « معقول ؟؟ » .

وأسرع أحد الشرطة المخبرين وأخرج من جيب جلبابه منديلًا ملوثًا وهو يقول :

- « معى منديل يا سعادة البيك » .

وعصّبوا عينيه ، لم يعد يرى شيئًا ، العالم كله من حوله ظلام ، والصمت لا يقطعه إلا أزيز العربة ، وصراخ النسوة فى القرية يتناهى إلى سمعه ضعيفًا واهنًا ، وكذلك صوت الديكة والمؤذن وهو يلقى بعض التوشيحات تمهيدًا لأذان الفجر .. والمجهول كوحش خرافى بشع يفتح فمه الداكن ككهف سحيق ملىء بالحيّات والعقارب ، قلبه يحدِّثه بأن الأمر خطير ، لكنه لماذا هو خطير لهذه الدرجة ؟؟

- « سعادة البك .. اعمل معروفًا .. أريد أن أعرف جريمتى ..» .

- « الاشتراك فى جهاز سرى مسلح لقلب نظام الحكم .. هل ارتحت ؟؟ » .

التفت محمود صوب مصدر صوت الضابط وقال :

- « كذب .. من قال ذلك ؟؟ » .

- « لا يحق لك أن تسأل ، نحن الذين سنسألك وسترى ..» .

- « كيف يكون سريًا ، وأنا أدعو الناس إلى الله فى الشوارع والمساجد والمدارس .. فى إطار مبادىء تعلمها الحكومة .. ومع

جماعة سمح لها القانون بممارسة نشاطها ؟؟ » .

نظر الضابط إلى الشاب المعصوب العينين وقال :

– « ومحاولة قتل الرئيس ، هل سمح بها القانون ؟؟ » .

– « لا تسألنى إلا عما يخصنى .. أنا لم أفكر أو أدبر أو أحاول عملًا كهذا ..» .

قال الضابط :

– « أتظن أننا كنا سننتظر حتى تفعل ذلك ؟؟ » .

وردَّ محمود وهو يضغط على أسنانه فى ثقة ممتزجة بالضيق :

– «لن يستطيع أحد إدانتى ..» .

قهقه الضابط فى سخرية وقال :

– «لقد أدنت نفسك » .

– «كيف ؟؟ » .

– « ألم تعترف منذ لحظات بأنك كنت تدعو الناس ؟؟ » .

– «ليست هذه جريمة ..» .

– « أعرفكم .. دائمًا تجيدون الجدل والسفسطة ، والحكومة ليس لديها وقت لهذا الكلام الفارغ .. أتدرى إلى أين أنت ذاهب ؟؟ » .

قال محمود فى لهفة :

– « لا ...» .

– « السجن الحربى يا حبيبى .. أتعرف معنى السجن الحربى ؟ » .

– « لكنى مدنى ولست عسكريًا حتى ترموا بى هناك ..» .

– « السلطة أدرى بما يصح وما لا يصح » .

– « لكن البلد فيها قانون يا حضرة الضابط ..» .

– « حسنًا .. سوف تخرج من رأسك كل هذه الخرافات عندما يتلقفك عطوة بك والباشجاويش ياسين .. هل سمعت عنهما ؟؟ » .

ومرّت الساعات كالحلم الرهيب ، عالم السجن كله مثل جهنم ، لا شىء سوى السياط ، والشتائم المقذعة ، وإهدار الآدمية ، وصراخ

المتألمين، وضراعة المستغيثين .. «يا رب ..» هى كلمة العزاء الوحيدة .. وإن كانت تضيع وسط الضجيج والصراخ وأسئلة المحققين المتلاحقة، وإصرارهم على أن يعترف المتهم بما يريدونه لا بما حدث فعلاً ..

إن المحققين فى هذا الوادى الرهيب يؤلفون المسرحية، ويضعون الحوار والسيناريو، ويحددون أدوار الشخصيات، ثم يختارون الممثلين ليلعب كل دوره المرسوم له، وينطق بالكلمات المفروضة عليه، وإن كانت لا تمت إلى الواقع أو الحقيقة بصلة، ووجد محمود نفسه على رأس مجموعة مسلحة هذا ما قالوه له .. إنه على استعداد أن يقبل هذه التهمة الملفقة، حتى يريح نفسه من العذاب المضنى، والسهر الطويل، والظمأ القاتل، والجوع القاسى، وما أن بلغ هذا الحد من التفكير، حتى شعر بقليل من الراحة المؤقتة .. إنه يريد وقتًا كى يستريح قليلاً من العناء، ويفكر فى هذه الكارثة التى حطت عليه دون انتظار .. وابتسم المحققون وهم يستمعون إلى قوله :

– «نعم .. أنا رئيس المجموعة ..» .

واقترب منه عطوة بك الملوانى وقال فى رفق مصطنع :

« إذن لماذا كان ذلك العناد الذى لا مبرر له ؟؟ ألم يكن من الأفضل أن تعترف منذ البداية، وتوفر على نفسك هذا العذاب كله ؟؟ » .

تمتم محمود فى يأس :

– « آسف يا أفندم » .

– « المشكلة الآن أن إخوانك لا يعترفون بأنك رئيسهم » .

– « حسنًا .. أحضروهم وسوف أقنعهم ..» .

– « هذا عين العقل ..» .

وحضر الشباب الأربعة، وأخبرهم محمود بأن اعترف بأنه رئيسهم، فنظروا إليه فى استغراب ودهشة، قالوا له إن هذا مناف للحقيقة، لكن محمودًا هز رأسه فى ألم، وأخبرهم أنه يعرف جيدًا ما

هو بصدده ، وأنهم يجب أن يستمعوا إلى كلامه .. ونظروا إلى جسده الدامى العارى ، وإلى وجهه الممزق المتورم ، وإلى حاملى السياط من حوله ، وكذلك الكلاب الذكية التى تنتظر الأوامر ، وعطوة بك بنظراته المتوعدة المهددة التى تشبه نظرات الكلاب المدربة إلى جواره ، وأمّنوا على كلام محمود ، عندئذ تنهد عطوة بك فى ارتياح ، وجلس فوق مقعد قريب ، ثم أشعل سيجارة وهو يقول :

– « والآن .. أين السلاح ؟؟ » .

كاد محمود أن يصعق ، أى سلاح يريدون ، إنه لم يقتن قطعة سلاح فى حياته ، ولم يدخل السلاح بيته فى القرية ولا أحد من أسرته ، والشرطة فتشت البيت تفتيشًا دقيقًا .. مزقت الحشايا والوسائد ، وكسرت جرار المش والجبن والسمن ، وحطمت الخزائن والصناديق ، وبعثرت الكتب والمراجع بما فيها كتب السيرة والحديث والمصاحف ، وحفروا الأرض .. فلماذا إذن هذا السؤال الغريب ؟! .

وتمتم محمود فى انزعاج :

– « أى سلاح ؟؟ » .

هَبّ عطوة بك واقفًا ، وهدر :

– « أنا أعرفك .. وأعرف ما يدور فى ذهنك الآن » .

– « أقسم لك أننى لا أعرف شيئًا من هذا الموضوع !! » .

– « أفهمنى .. كيف تكون يا محمود رئيسًا لمجموعة مسلحة دون سلاح ؟؟ » .

طفرت الدموع من عينى محمود وقال :

– « أنا لم أعترف برئاستى لهم إلا استجابة لإرادتكم ..» .

– « تعنى أننا نلفق التهم يا كلب ؟؟ » .

– « يا سعادة البك ليس لدينا سلاح ..» .

تلفت عطوة بك حواليه ثم قال :

– « أنا أعرف الوسيلة التى تجعلك تعترف ..» .

وأشار برأسه ، وانهالت السياط على الجسد المهترىء الدامى .. وجرُّوا أعضاء مجموعته بعيدًا عنه ، وطال العذاب ، ومحمود لا ينطق إلا بكلمتين اثنتين « آه .. يا رب ..» وشرطى طويل نحيف دائم السعال يصرخ فيه وهو يمزقه بالكرباج «انطق يا مولانا .. لا .. لا .. لا تتكلم .. لا أريد منك اعترافًا .. إن مثلك لا يصح أن يعيش ..» وعلى مقربة من محمود رأى شابًا آخر تنهشه السياط والكلاب من كل جانب ، والمحقق يقف إلى جواره ومعه القلم والورق ، وأثناء الهجمة البربرية على الشاب المسكين يقول المحقق :

– « ولما قالوا لك إن حادثة المنشية تمثيلية صنعتها المخابرات العامة ، ماذا كان ردك ؟ » .

– «لم أقل شيئًا .. دعهم يكفوا عن ضربى حتى أستطيع أن أجيب ..» .

– «مستحيل .. فلتجب وأنت عل هذا الوضع ..» .

– « حرام يا بك ...» .

– « حرمت عيشتك وعيشة أهلك يا حيوان .. هيه .. وأنت هل ترى أن حادثة المنشية تمثيلية ؟؟ » .

– « أنا لا أعرف عنها شيئًا ..» .

– «لن أتركك حتى تقول .. تمثيلية أم حقيقية ؟؟ » .

– « حقيقية يا سعادة البك .. ارحمنى .. أنا خلصت .. أنا لست من الإخوان .. أنا مظلوم ..» .

ولم يعد محمود يرى شيئًا ، لقد أغمى عليه ، ولا يدرى أطال الوقت أم قصر ، كل ما يعرفه أنه أفاق بعد أن ألقوا به فى حوض ماء كبير وكانت فرصة نادرة انتهزها فشرب حتى ملأ معدته بالماء ، ثم وجد أحد الجنود وقد أحضر محقنًا وغرزه فى جسده وهو يقول :

– « حقنة كافور منشطة حتى تصحو ..» .

ونظر محمود حواليه فوجد عطوة بك يرمقه بنظرات حانقة ، وإلى

جواره وقف ضابط طبيب برتبة صاغ [رائد] واضعًا يده فى جيب سرواله، وفوق عينيه نظارة طبية بيضاء، تعكس الأضواء على وجهه الأبيض البارد الذى لا ينم عن شىء ذى بال .. والمجزرة من حولهم قائمة على قدم وساق .. الصراخ .. والسياط .. والعويل .. ونظر محمود إلى السماء وقد تناثرت فى ظلمائها النجوم، وهتف بصوت مبحوح بالبكاء :

– « أين أنت ؟؟ » .

وخيل إلى محمود أنه سمع صوتًا نديًا رقراقًا يقول :

– « أنا معك ...» .

وهتف محمود بأعلى صوته والدموع ما زالت تخنقه :

– « خذنى إليك .. فأنا لا أرهب الموت .. خذنى منهم فأنت وحدك حبيبى .. يا رحمن يا رحيم .. إن الغيبوبة التى غشيتنى كانت رحمة منك .. لماذا يا إلهى لا تجعلها غيبوبة دائمة ؟؟ لم يعد فى الحياة شىء يستحق الحياة ..» .

وغمغم الطبيب :

– « إنه يهذى » .

قال عطوة بك :

– « سأجعله يفيق حالاً » .

ثم أشار إلى حملة السياط، لكن الطبيب أشار بيده قائلاً :

– « سيموت ولن تستفيدوا منه شيئًا ..» .

– « إن حياته لا تساوى غزه .. عندى تصريح بالتخلص من كل عنيد ..» .

– « لكن اعترافه يا عطوة بك أهم من حياته ..» .

– « وماذا ترى يا دكتور ؟ » .

– « خذوه إلى زنزانته اليوم، واستكملوا التحقيق غدًا ..» .

ومن ثم جروه جرًا إلى زنزانته الخاوية، حيث البلاط البارد

والظلام والوحدة والهذيان والأحلام والذكريات، وحيث يتفرس المظلوم فى أرجاء ذلك العالم الضيق باحثًا عن قطرة حنان .. وفى نفس اليوم ذهب عطوة بك إلى خطيبته «نبيلة» وهو يمنّى نفسه بليلة حمراء شهية، فكان أن صدته، ووضعت له الشروط التى اعتبرها قاسية ومنقصة لكبريائه وإرادته، وما أن ركب سيارته حتى أخذ يزمجر ويزفر فى غيظ، وهكذا دخل السجن الحربى، وكان أول شىء فكر فيه هو المعتقل محمود صقر .. إنه فى رأيه عنيد .. وهو يكره العناد فى كل صوره وأشكاله، وعندما يحطم رأس محمود، فسوف يشعر بشىء من الراحة، لأنه قهر العناد فى إحدى الجولات، وبقيت الجولة الكبرى .. مع نبيلة ..



الفصل ٤

جلس عطوة بك فى انتظار محمود، وصورة نبيلة تحوم فى مخيلته بكبريائها وثقتها وعباراتها المنمقة، ليس فيها سوى عيب واحد يؤرقه هذا العيب هو أنها لا تطيع الأوامر ،لكن عذرها أنها جاهلة ولا تعرف قدره، لا بأس سوف تعلم فيما بعد، وعاد جنديان يحملان محمودًا حملًا وألقيا بجسده بإهمال متعمد فوق الرمال، ونظر إليه عطوة بك مدققًا، وهتف بصوت أجش :

– «محمود».

وفتح محمود عينيه فى تثاقل، فانفرجت أهدابه عن نظرة تائهة سابحة فى ملكوت الله، لم يعد يعنيه شيء، سيّان عنده الموت والحياة، لقد سلّم أمره لله، والجنود والضباط من حوله كأنهم صبية يلعبون، أو سكارى يتطوحون فى مسرح عجيب.. وتذكر مسرح العرائس.. خيّل إليه أن هناك خيوطًا رفيعة تتدلى من أعلى وملتصقة برأس عطوة وفمه وأطرافه وعينيه.. بل بدت السماء كلها خيوطًا مدلاة.. وهناك فى مكان عالٍ يد آثمة سوداء ملطخة بالدماء الشيطانية فتتحرك الخيوط.. ويتحرك الممثلون.. أو العرائس المصنوعة.. فتنطلق أصوات، وتصدر حركات.. وتنبح كلاب.. وابتسم محمود ابتسامة خفيفة.. وحاول أن يتكلم لكنه لم يستطع..

وعاد عطوة يصيح :

– «محمود.. تكلم..».

لم يستطع هذه المرة أن يفتح فمه، بل أغلق عينيه، فى الليلة الفائتة رأى أمه فى المنام، كانت تطعمه بملعقة نظيفة فى يدها الحلوة من طبق أبيض مليء بالقشدة المخلوطة بعسل النحل.. لقد شبع..

« أقسم بالله العظيم أننى شبعت .. وحتى الآن لا أشعر بأدنى رغبة فى الطعام .. نعم .. وجاءت حبيبة قلبى « أمل » .. كانت تلبس زيها الشرعى المعروف .. الأبيض .. لم أر منها غير وجهها وكفيها .. وجهها كالملائكة .. عيناها تمطران حبًا وحنانًا فيورق قلبى المجدب .. وضعت يدها الناعمة على رأسى الحليق وابتسمت وهى تبكى .. شعرت بنبض الحياة يدب فى كل خلية من خلايا جسدى .. قلت لها : «من الذى أدخلك هنا ؟؟ » .

قالت : « الحب »

قلت : « وكيف ستخرجين ؟ »

قالت : « كما دخلت »

وظلت أمل إلى جوارى طوال الليل .. كانت الملائكة تغنى لنا .. أنغام سحرية تتناهى إلى أسماعنا ، وكان السحاب الأبيض يحمل جوقة موسيقية .. قلت لها : «يا أمل .. لقد زارنى النبى ..» تطلق وجهها بشرًا .. واحتضنتنى فى لهفة وهتفت «ليتنى كنت معك » .. وغبنا لحظات عن الوجود .. ثم استطرد :

قلت : « يا رسول الله .. نحن نعيش فى زمن الشياطين ..»

قال لى : « الشياطين فى كل زمان ومكان ..»

قلت له : « يا رسول الله لقد اختلطت السبل ، واضطربت الأفكار ..»

قال : «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا .. كتاب الله وسنتى .. وأنت تعرف الطريق يا محمود ..»

سمعت منه كلمة «محمود » فاقشعر بدنى .. الرسول ينطق باسمى يا أمل .. الرسول يعرفنى يا أمل .. لقد هانت كل جبابرة الأرض فى عينى .. القنبلة الذرية أصبحت لعبة طفل .. قلت له «خذنى معك يا حبيبى ..» ابتسم ابتسامة لم أر مثلها فى الوجود وقال : «ليس الآن ..» ورأيت على بن أبى طالب يقدم نحونا ويقول : « آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق !!» وفهمت يا أمل وابتسمت ..

كنت أسعد إنسان فى الكون .. ثم ذهب الرسول .. وبقيت وحدى ، وبرغم حزنى لفراقه إلا أننى كنت سعيدًا .. سعادة من نوع عجيب »

قالت لى أمل : « ليتنى كنت معك ..»

قلت لها : « أنت معى دائمًا يا حبيبتى ..» .

صرخ عطوة بك مرة ثانية ، وهو يركل محمود بحذائه :

– « تكلم يا محمود .. أنا أعرف هذه الحركات .. رأيت أمثالك كثيرين ..» .

لقد قطع على محمود أحلامه الرائعة ، ودمر عالمه الجميل ، وفتح محمود عينيه مرة أخرى ، إنه يعود ليرى مسرح العرائس والخيوط والدمى التى تتحرك واليد السوداء الملطخة بالدماء .. ورأى هذه المرة الطبيب ذا النظارات البيضاء .. كارثة أن الطبيب هو الآخر قد توجته مجموعة من خيوط العرائس ، ومع ذلك قال الطبيب :

– « قلت لك يا عطوة بك لابد من نقله إلى المستشفى ..»

– « هؤلاء يا دكتور بسبع أرواح مثل القطط ..» .

– « إنه لم يأكل ولم يشرب منذ يومين يا عطوة بك .. وهذه الجروح المتقيحة قد تسبب له تسممًا دمويًا .. ولن تستفيدوا من موته شيئًا .. لست أدرى لماذا العجلة ؟؟ فى بحر أسبوع سوف تتحسن حالته إن عاش ثم يعود للتحقيق وقد تحطم معنويًا وجسديًا .. ومن ثم يسلس قياده .. إفهمنى يا عطوة بك .. ما كل شىء يؤخذ بالقوة ..» .

نفر عطوة بك وهو يقول :

– « خذوه إلى الزفت .. المستشفى .. فى ستين داهية ..»

عاد عطوة إلى الساحة الحمراء حيث المجزرة البشرية ، ولمح شابًا طويلًا أسمر اللون ، سودانى الجنسية فاقترب منه عطوة وقال :

– « أأنت رزق إبراهيم ؟؟ » .

– « نعم يا أفندم ..» .

– « أنا أعرف أباك .. كان عليه اللعنة من كبار رجال الشرطة

وكان سمجًا قليل الأدب .. عبد زربون ..» .

قال رزق فى أدب :

– « اذكروا محاسن موتاكم يا أفندم .. كان أبى من دعاة الوحدة بين مصر والسودان ، وكرمته مصر ، ودفن فى مقابر الشهداء ..» .

اقترب منه عطوة وهو يكز على أسنانه ، ثم صفعه على قفاه وهو يهدر فى حنق :

– « أتعلمنى الأدب يا حقير ؟؟ اضربوه خمسين كرباجًا ..»

وفى ثوان انهالت السياط على « رزق إبراهيم » من كل مكان ودون عدد ، ثم رفع عطوة يده برهة وقال :

– «كفى ...» .

ثم التفت إلى ضابط المباحث المحقق وقال له :

– « هل اعترف هذا الكلب ..» .

– «نعم يا أفندم ..» .

اندفع رزق قائلاً وعيناه مبللتان بالدموع :

– «كل ما فى الأمر أنهم طلبوا منى ربع جنيه لأسرة سجن عائلها فأعطيتهم المبلغ كصدقة ..» .

– « ولماذا لا تعطى الإعانة إلا لأسر (الإخوان) المسجونين »

– « أنا أتصدق على كل من يستحق إن تيسر لى ذلك » .

– «لكنك كنت عضوًا فى الجماعة ..» .

– «نعم ...» .

قهقه عطوة وقال للمحقق :

– « ضموه إلى قائمة الجهاز السرى المسلح ..» .

– «طبعًا يا أفندم ..» .

صاح رزق إبراهيم :

– « هذا ظلم ..» .

اقترب منه عطوة ثانية وقال :

- «سيان كنت فى الجهاز السرى أم لم تكن .. المهم أنك من الإخوان المسلمين ..» .
- «وهل الانضمام للإخوان جريمة ؟؟» .
- «ألم تعرف بعد ؟؟» .
- «لقد كان بعض كبار رجال الثورة أعضاء معنا ..» .
نظر إليه عطوة فى اشمئزاز واحتقار :
- «معكم أنتم ؟؟ لقد هزلت ..» .
- «بعضهم حارب معنا فى القنال .. وفلسطين .. والرئيس نفسه وقف على قبر الإمام حسن البنا فى يوم ذكراه وأشاد بكفاحه العظيم .. وأثنى على الجماعة ..» .
دقق عطوة النظر إليه وقال :
- «أفهم من ذلك أنك كنت من فدائيى القنال وفلسطين ..» .
- «يشرفنى ذلك .. لقد أديت واجبى ..» .
وهتف عطوة فى ابتهاج :
- «حلو .. هذا اعتراف آخر .. سجل فى الأوراق عندكم .. أن ماضيه أسود .. مثل وجهه تمامًا .. إنه يستحق الشنق ..» .
وأردف المحقق قائلًا لعطوة بك :
- «ولا تنس يا عطوة بك التقارير الأخيرة التى وردت إلينا وتؤكد أن السودان يريد أن ينفصل عن مصر، وينشىء جمهورية مستقلة ..» .
وصاح رزق إبراهيم :
- «أنتم السبب ..»
- «هكذا ؟؟ أم أنكم تضايقتم من طرد محمد نجيب رئيس الجمهورية لأن أمه سودانية .. خمسون كرباجًا أخرى يا ابن الكلب ..» .

وانهالت السياط مرة أخرى على جسد رزق إبراهيم العارى النحيل .. وتركه عطوة وراءه، وانصرف يتجول بين المتهمين والمجزرة قائمة على قدم وساق، ولاحظ وهو يتجول شاب يصيح ويطلب الرحمة، وواضح من لغة الشاب ولهجته أنه ليس مصريًا هو الآخر، فاقترب منه وقال :

– «ما اسمك يا حبيبى ؟».

– «عبد الحميد النجار يا أفندم ..».

– «من أى داهية .؟؟».

– «من فلسطين ..».

– «وأنت أيضًا من الإخوان ؟؟ ألا تكفى مصيبتكم ؟؟».

– «لقد شاركتهم الجهاد فى فلسطين .. وكنا نهرب لكم السلاح والمؤن والطعام وأنتم محاصرون فى الفالوجا .. واستشهد عدد منا بسببكم ..»

احتقن وجه عطوة، تذكَّر الأيام السوداء التى عاشها فى الحصار، وتذكَّر ليالى الجوع والأرق والخوف، فى تلك الفترة سخط على كل شىء سخط على المبادىء والشعارات والقيادات، وحقد على كل الناس الذين يستمتعون بالحياة خارج نطاق الحصار، فى أى بلد من بلدان العالم، لقد حرم فى تلك الأيام من الكأس والمرأة والسلطة، وعاش كذئب أجرب يلعق الطعام، ويلتقط الفتات، يومها قرر– إن نجا– أن يعيش لنفسه .. لنفسه فقط، وليذهب كل شىء إلى الجحيم .. المبادىء .. التاريخ .. العروبة .. الإسلام .. لقد خلق الإنسان– حسبما يعتقد عطوة– ليستمتع بملذات الحياة ويحقق ذاته .. وليفعل أى شىء حتى ينال ما يريد .. لقد علمته الفالوجا أن التضحية هراء، والبطولة كذب، والأخوة خداع، والنصر لا يستفيد هو منه شخصيًا شيئًا .. فليكن عبدًا لمن يحقق له أطماعه، حتى وإن قتل وإن سرق وإن غدر،

وهل ينسى عطوة يوم أن حاول اغتصاب فتاة بدوية هناك أيام الحرب، فسجنه قائدة وجلده، ذلك القائد الأحمق الذى أخذ يحدثه عن الخلق والفضيلة ومخافة الله، وعن هتك العرض باعتباره جريمة لا تغتفر .. يا لها من أيام سوداء !!

والتفت عطوة بعد أن أفاق من هواجسه :

– «كنت فدائيًا إذن ياسى عبد الحميد ؟ ...» .

– «نعم يا أفندم ..» .

– « هذا أكبر دليل على إدانتك ..» .

– « أكان من اللائق أن أترك بلدى لتنهشها الذئاب ؟؟ وكيف أكون مسلمًا إذن ؟ » .

– «تستطيع أن تكافح من أجل بلدك كيفما شئت، أما أن تنضم للإخوان المسلمين فهذا شىء آخر ..» .

– «كيف يا أفندم ؟؟ » .

– « أنا أعرف جيدًا يا عبد الحميد أن دعوتكم فوق الوطنية وفوق كل شىء ولذا أعتقد أن الهدف لم يكن تحرير فلسطين وإنما تدريب كوادر مقاتلة لتغزو بها البلدان العربية وتخضعوها لحكم الإخوان فيما بعد ..» .

صمت عبد الحميد برهة وقال :

– «نحن نحارب فى سبيل الله، ولم يكن فى ذهننا هذا التكتيك ..» .

– « أتعرف كلمة تكتيك أيضًا ؟؟ » .

ثم التفت إلى المحقق قائلًا :

– « ألم أقل لك إنه ضالع فى الفتنة ومن أرباب السوابق ..»

ردَّ المحقق :

– «تمام يا أفندم ..» .

قال عبد الحميد مرتبكًا :

– « الأمر كله لا يعدو عن كونه مجرد الدعوة إلى حياة أفضل وأوفر عدلاً ..» .

قهقه عطوة بك وقال :

– « أتريد عدلاً أكثر من ذلك ؟؟ اضربوه خمسين كرباجًا ..»

هتف عبد الحميد والسياط تهوى على جسده :

– « ما ذنبى يا عالم ؟؟ » .

فأعطاه عطوة ظهره وواصل جولته فى ساحة السجن الحربى ، والباشجاويش ينبح بأعلى صوته الأجش موزعًا السباب هنا وهناك ، والجاويش أمين يسرسع بصوته الممطوط وهو يدور بسوطه الطويل دورة كاملة فى الهواء ثم يهوى به على أحد الأجساد العارية .. وعبد المقصود وعبد الجواد وبيرم وغيرهم من جنود السجن يصولون ويجولون ، ولابد أن يثبتوا جدارتهم وإخلاصهم لعطوة بك ، كيف لا وهو يعطيهم « علاوة إجرام » ومكافآت من آن لآخر ؟؟

ووقف عطوة أمام سجين يتلوى وهو مربوط فى « العروسة » الخشبية التى يصلبون عليها المتهمين ، ومال عليه قائلاً :

– « أحب أن أتعرف على (البك) ...» .

– « يا أفندم أنا مظلوم !! أنا فى جاه رسول الله ..» .

– « والسلاح يا ابن القديمة ؟؟ أنا أعرفك .. من الجيزة ..» .

– « السلاح كان أمانة وسلمته لأصحابه ..» .

– « مَن أصحابه ؟؟ » :

– « لا أستطيع أن أنطق ..» .

– « سوف أجعلك تنطق ..» .

ومدّ عطوة يده بالسيجارة المشتعلة كما هى عادته ووضعها أسفل عينه اليسرى وهو يقول :

- «خسارة فيك ،، لم أشرب إلا نصفها ..» .
- «سأتكلم ..» .
- «قل يا بهيم ..» .
- «السلاح كان يخص الرئيس ..» .
- «يا وقعة أمك سودا .. لا تذكر هذا الاسم الشريف على لسانك القذر ..» .
- «تلك هى الحقيقة .. أعطوه لى .. وضعته فى مخزن ثم سلّمته عند طلبه من فترة طويلة ..» .
- «لقد أبقيت عندك بعضًا منه ..» .
- «أبدًا .. اسألوه ..» .
- «نسأل من ؟؟» .
- «الرئيس ..» .
- «ثانى مرة .. طيب ..» .

ثم التفت إلى الجنود :

- «خمسين كرباجًا .. وإذا لم يصبح مهذبًا فى كلامه .. أعيدوا الكرّة ..» .

وانصرف عطوة متجهًا إلى مكتبه ، بينما انطلق صوت الميكروفون يردد أغنية «يا جمال يا مثال الوطنية ..» ، فصاح عطوة بأعلى صوته :

- «كل السجن يغنى مع أم كلثوم ..» .

وجرى حاملو السياط هنا وهناك بين جموع المتهمين يلهبون ظهورهم بالسياط ، ويحثونهم على ترديد الأغنية الشهيرة ، وامتزجت الآهات بالدموع وبالغناء ، وبعد دقائق أغلق الميكروفون ، وصاح عطوة مرة ثانية :

- «استمروا فى الغناء يا حيوانات ...» .

وانطلق صوت السجناء مرددًا الأغنية الوطنية، كان غناؤهم كالعويل أو الندب، وكانت صورة الرئيس وهو يبتسم ويلوح بيده في شموخ تطل على الجميع من فوق الحيطان .. وقال عطوة وهو يقهقه :

– «تعلموا الفن يا بهايم ..» .

الفصل ٥

عاد «عطوة» إلى مسكنه الفاخر، على الرغم من وجود الزهور فهو لا يكاد يشم لها أريجًا، حتى الديكور البديع الذى يضفى جمالًا على الصالة والغرف لا يكاد يحس له بمعنى، أهم شىء لديه البار وغرفة الطعام وحجرة النوم، هناك لوحات قيِّمة معلقة لفنانين موهوبين، غير أنه لم يفكر مرة فى أن يدقق البصر فيها، ويستجلى ما وراءها من إيحاءات ومعان، لعل نظره لا يقع إلا على صورة الرئيس الضخمة، وصورته أيضًا أسفلها، قد حرص على وضع صورته تحت صورة الرئيس، هكذا تعلم فى حياته العسكرية، وهناك صورة صغيرة فى إطار ذهبى اللون موضوعة على المكتب الخاوى، إنها لنبيلة .. إنه يشعر بفراغ قاتل الآن، ترى أيعود مرة أخرى إلى السجن الحربى ؟؟ هناك لا يشعر بهذا الفراغ، وقته دائمًا ملىء بكثير من «العمل» والمناقشات، وهناك يشارك فى صنع الأحداث، وفى تقرير مصير البشر، ويحيى ويميت، سلطته تكاد أن تكون بلا حدود فى إطار الأوامر العليا، وهل ينسى يوم أن وقف فى ساحة الحربى، وطلب من الهضيبى مرشد عام الإخوان أن يقف «كالمايسترو» ويقود جموع المحبوسين وهم يرددون نشيد «مثال الوطنية» .. نعم لقد رفض الرجل فى البداية، لكن عطوة هدده بالانتقام من أتباعه، وفعلًا انهال عليهم ضربًا بالسياط حتى استجاب الرجل مضطرًا أن يمثل دور المايسترو لينقذ أحبابه من العذاب، هذا المرشد العام الذى كان يحرك الملايين بكلمة، أصبح عطوة اليوم يحركه بسوطه .. نعم .. القوة هى القوة الفصل فى كل شىء، ويا ويل من يغرقون– ويغرقون غيرهم–

فى الجدل والحوار الأجوف ، إن رصاصة واحدة تحسم الأمر ، وتعيد الهدوء والاستقرار ، أصحاب الرأى فى هذه الدنيا هم البلاء .. كل هذه الأفكار آمن بها عطوة واستخلصها من تجاربه الخاصة ، قال له أبوه العالم الفاضل ذات يوم عندما ضرب أحد الفلاحين وأحدث به كدمات وجروحًا :

– « اتق الله يا ولدى .. ألا تخاف يوم الحساب ؟ » .

يومها كان عطوة لم يزل شابًا وفى السنة الأولى بالكلية الحربية ، وكان ينظر إلى أسلوب أبيه فى الحياة نظرة كلها استهزاء وسخرية وصفاقة ، فى ذلك اليوم ردّ عطوة على أبيه قائلاً :

– « ألم تعلم أنه مرّ علىّ وهو راكب حماره ؟؟ » .

– « وماذا فى ذلك يا ولدى ؟؟ » .

– « المفروض أن ينزل احترامًا لى .. ألا يعرف من أنا ؟؟ » .

– « أنت عبد من عبيد الله يا عطوة .. وهو كذلك » .

ردّ عطوة فى غضب :

– « أنا لست عبدًا لأحد ..» .

– « استغفر الله أيها الأحمق وإلا أحرقك بناره ..» .

زمجر عطوة غاضبًا وهو يولى وجهه شطر باب البيت :

– « إن التساهل مع هؤلاء الفلاحين خطأ كبير .. إنهم لا يسمعون ولا يطيعون إلا بالعصا والكرباج ..» .

صاح أبوه ولحيته البيضاء ترتجف :

– « أخرج عليك اللعنة ...» .

تذكّر عطوة الأيام الخوالى ، كان يسمع دائمًا من أبيه بل ومن أخيه طالب الطب ، ومن بعض الناس أيضًا : أن الحب هو أفضل وسيلة للحصول على رضا الناس واكتساب مودتهم ، لكنه كان يرى فى بلاهة وسذاجة ، لأنه بالمال يستطيع أن يشترى كل شىء ، وبالقوة يمكنه

إخضاع كل شيء .. أصبح المال والقوة فى نظره الهين يُعبدان من دون الله لقد عاش فترة طويلة وهو يتلقى العلم بعيدًا عن أهله وذويه ، وأطلق لنفسه العنان ، كجواد جامح ، والتقى بمجموعة من الأصدقاء المتحللين ، ودخل البارات وأماكن اللهو ، وعرف الكأس وكثيرات من النسوة المنحرفات ، لقد تردد قليلاً فى البداية لكنه خطا إلى داخل ذلك العالم الملىء بالصخب والألوان والمتعة والانطلاق ، وسرعان ما غاص فيه حتى الأعماق ، كان يحتاج المال أحيانًا فيقترض أو يسرق ، وكان يشعر بالظمأ إلى الكأس والمرأة ، فيشرب حتى الكحول الرخيص ، ويعاشر أحط البغايا ، وكان يجوع فيفترس سندوتشات الفول والطعمية ، أو يدهم بيوت أصدقائه ليأكل عندهم فى نهم ، لم يكن عيبًا أن يقترض من بواب عمارة ، أو فراش فى المدرسة ، أو جرسون فى بار ، لم يكن أبوه فى الواقع يضن عليه بالمال ، لكنه يعطيه فى حدود المعقول ، وفى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ دخل تجربة جديدة ، كان العنف والدماء ، وموت الرفاق ، وليالى الخوف والأرق والجوع ، وحكايات عن الأسلحة الفاسدة والترف الخرافى للطبقة العليا التى تحكم وتحرك مقاليد السياسة والاقتصاد والفكر والفن ، وترمى بالألوف على موائد القمار ، لم يكن آنذاك فى إصلاح الحال ، أو رسم خريطة لحياة جديدة يسعد فيها التعساء ، كان فقط يريد أن يكون مثل هؤلاء الكبار سلطة ورفاهية وثراء ، وسمع عن بعض أفكار ثورية تبشر بالتغيير والنجاح فأسرع إليهم ، لم يكن له فكر ذو قيمة ، ولم يعرف عنه إبداع أو ذكاء ، ميزته الأولى الطاعة العمياء واحترام الرؤساء ، والإقدام على العنف والقسوة إقدامًا يلفت النظر ، قال له أحد أصدقائه ذات مساء :

– « أخاف عليك يا عطوة أن تقع فى شر أعمالك .. » .

قهقه ساخرًا :

– « عطوة لا يقع إلا واقفًا ..» .

وعندما قامت الثورة، وأصبح له مكان بارز فيها، استطاعوا بفراستهم أن يوظفوه فى الدور اللائق به، وأتاحوا له الفرصة كى يدرس مع عمالقة رجال «النازية الألمانية» القدامى، ومحترفى التعذيب والاضطهاد من العالم الشيوعى، وزبانية المخابرات العالميين، لقد أقبل على تفهم مناهجهم وفكرهم فى نهم عجيب، وقال ذات مرة لأحد كبار المسئولين :

– «فى الواقع أنا لم أستفد كثيرًا من هؤلاء الخبراء .. لقد أكدوا لى دائمًا أننى بطبيعتى أعرف الكثير مما يقولون .. لقد آمنت من قديم أن أى نجاح سياسى لا يثبت أو يستقر إلا فى ظل فلسفة التخويف والإرهاب، والقضاء على البعض حتى يعتبر الآخرون ويستسلموا ولن تخسر البلد شيئًا إذا قتلنا خمسة فى المليون هذه نسبة لا تذكر ...» .

وعطوة يعتقد اليوم أكثر من أى وقت مضى أنه كان دائمًا على حق، وجرع كأسًا مترعة وهو يقول : «ألا يكفينى فخرًا أن قد أصبح لى تلامذة فى كل مكان .. لا فى مصر وحدها .. بل فى كثير من البلدان العربية ؟!» .

«لكن نبيلة لم تأت، لقد تأخرت أكثر مما يجب، ووعدت بأنها ستحضر وأنا أكره من يخلف لى موعدًا، ويا ويل من يخدعنى، إننى أمحوه من فوق ظهر الأرض محوًا .. هيه .. يوم الحساب !! سامحك الله يا أبى .. معذور لأنك قضيت سنوات عمرك بين دفات الكتب، تبحث عن الأحاديث الصحيحة والضعيفة، وتقارن بين التفاسير، وتدعو الناس إلى البر والرحمة، وتفتى فى مشاكل الطلاق والزواج والنفقة ونواقض الوضوء والزكاة، لهذا لم تستطع أن تصنع لنفسك مكانًا مرموقًا فى الأرض، وعشت معلق البصر بالسماء .. لم تعرف القمة طول حياتك .. وتزعم أن بين جنبيك من اللذة ما لو علمها الملوك لقاتلوك عليها

بالسيوف .. مسكين يا أبى !! أية لذة تلك ؟؟ وتتكلم عن يوم الحساب .. دائمًا تفكر فيما وراء الغيب .. لم تعش حياتك كما يجب .. لقد سجنت نفسك فى سجن من صنع يدك .. وترد دائمًا «أن الدنيا سجن المؤمن» .. وأنا أكره أن أكون سجينًا .. ها .. ها .. ها .. إذن الإخوان المسلمين فى السجن الحربى هم فى وضعهم الطبيعى الذى أرادته السماء لهم .. هم مؤمنون– كما يقولون– والدنيا سجن المؤمن كما تقول .. فليبقوا فى السجن تنفيذًا لمشيئة الله ..» .

دقَّ جرس التليفون .. انزعج عطوة .. وسرعان ما استعاد هدوئه ، وعجب لنفسه كيف يخاف من دقات التليفون .. إن قلبه هو الآخر يدق بسرعة ، مشى متمهلًا نحو التليفون ، تناول السماعة بغير قليل من الهدوء المصطنع .

– « ألو .. هذا غير معقول يا نبيلة ..» .

– « هل خفت علىَّ ؟؟ » .

– « أنا لست صغيرًا حتى تدعينى أنتظر على أحرَّ من الجمر ..» .

– «لن أحضر إليك ..» .

– «مستحيل ما هو السبب ؟؟ » .

– « أخاف أن تفترسنى ..» .

ضحك عطوة عاليًا ، وانتشت روحه لهذه الصفة التى تسبغها عليه وقال فى شىء من الرضا :

– «تعرفين أنى أحبك ..» .

– «حسنًا .. سأنتظرك فى أى مكان عام ..» .

– «لا يمكن ..» .

– «ولم ؟؟ » .

– «تعرفين أنى رجل مهم ، ولا أستطيع أن أظهر فى مكان عام إلا تحت ظروف وشروط معينة ..» .

– « إذن أولاً من المسئولين .. ثم حراسة مشددة .. ثم التواجد فى مكان خاص آمن .. وغير ذلك كثير ..» .

– « أتخاف يا عطوة ؟؟ » .

– « أنا لا أخاف ، ولكنها إجراءات أمن ، لابد منها لحماية كبار الشخصيات ..» .

بدا الضيق فى صوت « نبيلة » وهى تقول :

– « أنت لا تعرفنى .. أريد أن أمرح .. أحب الجرى حول الهرم ، وركوب الجمال والخيل ، أو التسلى فى حديقة الحيوانات .. أريد أن آكل معك « الصميت بالدُّقَّة » والترمس والفول السودانى .. ونجلس على شاطىء النيل .. أو فى كازينو الحمام ...» .

قاطعها فى غضب قائلاً :

– « لِمَ كل هذا ؟؟ هذه تصرفات الطبقات السفلى .. لسنا سوقة يا نبيلة .. أنا رجل لى مركزى .. ألا تتركين هذه الخرافات .. يجب أن تصعدى معى إلى حيث أنا .. افهمينى يا حبيبتى ..» .

– « أنا لا أفهم شيئًا مما تقول .. كلماتك تكاد تخنقنى .. إذن فلا مسرح .. ولا سينما .. ولا فُسَح .. ما معنى ذلك ؟؟ » .

قال وهو يهدىء من ثورته :

– « سوف تكون لنا علاقاتنا الاجتماعية الخاصة لا شك فى هذا ذلك ، سنتزاور مع كبار الأسر .. ستكون لنا عروض سينمائية خاصة ، ستغنى لنا المطربات فى حفلات مقصورة علينا .. وستكون لنا استراحات رائعة .. إنك تتعجلين الأمور » .

قالت نبيلة فى أسف :

– « لكننى أحب الناس العاديين والاختلاط بهم ..» .

– « إنهم سفلة .. لا يتركون امرأة تسير فى الطريق إلا وطاردوها بعبارات الغزل السمج ...» .

– « أتغار منهم يا عطوة ؟؟ والنبى دمهم خفيف ..» .
– « ياباى .. أنا لا أطيقهم ..» .
وابتلع ريقه لحظات ثم قال :
– « ألا تأتين ؟؟ » .
– « لا أستطيع اليوم ...» .
الرفض يؤلمه، حتى ولو كان بطريقة مهذبة، أو بنبرة اعتذار وخضوع، وعصيان أوامره جريمة، إنه يكاد ينفجر، ولهذا صرخ بأعلى صوته فى التليفون :
– « بالأمر لابد أن تحضرى » .
وحملت إلى أذنه سماعة التليفون ضحكاتها اللاهية البريئة، وسمعها تقول :
– « أتظن أن نبيلة عسكرى مراسلة ؟؟ » .
– « أنا لا أمزح ..» .
– « وأنا متظلمة ..» .
– « قلت لا أمزح ..» .
ضحكت وأغلقت التليفون وهى تقول :
– « عن إذنك .. أبى قادم ..» .
نظر إلى السماعة فى غيظ، وهتف « ألو .. ألو .. نبيلة ..» ولما لم يرد عليه أحد قذف بها فوق التليفون فى إهمال وغضب، ثم التفت خلفه فوجد عويس واقفًا لا يتكلم، صرخ فيه عطوة :
– « واقف مثل التيس .. أعوذ بالله .. ما الذى أتى بك ؟؟ » .
لم ينطق عويس إلا بكلمة واحدة :
– « الغذاء ..» .
– « غُرْ من هنا يا بهيم .. أنت صنم ؟؟ » .
وتحرك عويس فى وقار وهدوء، لم يغضب أو يثر، لقد رأى الكثيرين من أمثال عطوة بك، كان يخدم فى قصور الأمراء والحاشية

الملكية، وبعض الوزراء، لم يتغير شيء، المسكن شبيه بمساكن الحكام السابقين، والتصرفات لا تختلف عن تصرفاتهم .. بل ألعن، ونماذج الشخصيات التى يراها تدخل وتخرج وتشرب وتأكل وتتحدث .. كلهم من نفس الدولة القديمة .. اليوم مثل الأمس، والغد يبدو أنه لن يختلف عنهما إن لم تزدد الحالة سوءًا وسفالة وقلة أدب، وتمتم عويس :

– « لا يعرفون الله ..» .

الفصل ٦

عطوة بك يواجه اليوم مشكلة من أشق وأصعب ما واجه فى حياته كلها ، المشاكل السياسية لا تعد شيئًا بالنسبة لها ، وأيام الحرب بما فيها من حصار وقتل وجوع وخوف أمر هين إذا ما قورنت بهذه المشكلة ، حتى أولئك الرجال الذين يواجههم فى السجن الحربى ، وما يُبدونه من عناد وإيمان وتضحية يمكنه التغلب عليهم بالسياط أو الإبادة ، أما المشكلة العويصة اليوم فهى «نبيلة» ، لأنها لم تستسلم له ، ولأنها تريده أن يفكر من جديد والكارثة أنها تحاول جاهدة أن تغير من مفاهيمه وأفكاره التى آمن بها ، واستقرت فى عقله منذ سنوات طويلة ، وأصبحت من المسلَّمات التى لا تناقش ، الغريب أنها عزلاء من أية قوة ، فليس لديها المال الكثير ، ولا المنصب الضخم– مجرد مُدرسة– ولا الأسرة العريقة ، لقد أيقن من زمن بعيد أن «القوة» تحل المشكلات مهما تعقدت ، هى لا تملك غير الجمال الآسر ، والروح المسيطرة ، فكيف يقهر هذا الجمال بقوته ؟؟

وأخذ يُعمِل فكره ويدبر .. إنه لا يطيق الصبر ، ولا يعرف الكياسة أو التخطيط الرزين الهادىء البطىء ، ويحب الحسم والسرعة ويتعجل قطف الثمرة .. وضحك .. كان وحده وهو يضحك .. عويس فى دهشة .. هذا المخبول المشوش الذهن لماذا يضحك ؟!

هرول عطوة إلى الخارج .. اصطدم بعويس الذى كاد يسقط على الأرض .. ذهب «عطوة» إلى أحد أصدقائه «المخلصين» فى المخابرات .. اختلى به بضع لحظات .. ثم قدَّم له ورقة بعد أن كتب فيها سطورًا قليلة .. وضحك عطوة كما ضحك صديقه .. وتصافحا فى

ود بعد أن تعانقا .. وقال له صديقه وهو يودعه :

– «مع السلامة يا نمس.. دائمًا أقول عنك الرجل الذى لا يُقهر ..» .

كانت نبيلة فى مدرستها ، تلقى على الطالبات درسًا فى التاريخ عن التتار كانت تشرح الدرس كقصة حلوة مسلية ، وتصف للبنات طبائع التتار وتصرفاتهم الغريبة ، وكيف اكتسحوا بقواتهم بغداد والبلدات المتاخمة لها ، وكيف رموا بالكتب العظيمة– التراث الإسلامى الرائع– فى النهر ، وعبروا على أجسادها إلى الشاطىء الغربى .. ثم أفاضت نبيلة فى شرح النضال الرائع الذى أبداه شعب مصر والشعوب العربية ، تحت لواء المبادىء الإسلامية .. كانت البنات يستمعن وكأن على رؤوسهن الطير ، وفجأة جاءت ناظرة المدرسة ، ودقّت الباب بيد مرتعشة ، وهمست والدموع تبلل أهدابها :

– «معذرة .. تعالى يا نبيلة .. إنهم يريدونك ..» .

كانت تريد أن تكمل الدرس ، وكانت الطالبات متشبثات بسماع بقية القصة المثيرة ، وما أشد حبهنّ للقصص والروايات ، لكن الناظرة حسمت الأمر ، فتبعتها نبيلة وهى فى غاية الدهشة ، ولما ألحت فى الاستفسار من الناظرة ، قالت الأخيرة وعيناها تشيان بالخوف الشديد :

– «مخابرات .. ربنا يستر ..» .

هتفت نبيلة :

– «مخابرات ؟؟ لماذا ؟؟» .

– «لا أدرى ..» .

كان الرجل فى غرفة الناظرة منتفخ الأوداج ، وعيناه مصوبتان نحو نبيلة التى قدمت تلفها الدهشة ، ثم قام وصافحها فى برود قائلًا :

– «نريدك خمس دقائق .. لا وقت عندى» .

قالت نبيلة :

– «من أنت ؟؟» .

– «من رجال الأمن ..» .

ثم وضع يده فى جيب سترته ، وأخرج بطاقة صغيرة ، ثم قدمها إليها قائلًا :

– «حتى تطمئنى ..» .

لم تستطع أن تقرأ شيئًا ، فقد كانت نظراتها زائغة تائهة ، كما أن الرجل لم يمهلها طويلًا ، لقد اضطربت ، لم تفهم شيئًا ، ما معنى ذلك ؟؟ إن المفاجأة ألجمتها عن الكلام ، استجمعت قواها المشتتة وهتفت وهى تكاد تبكى :

– «هل أستطيع أن أعرف السبب ؟؟» .

– «لا مجال للكلام هنا ، لن تستغرق المقابلة أكثر من خمس دقائق ..» .

وأشار إليها فى أدب مصطنع بارد وهو يقول فاردًا ذراعيه :

– «تفضلى .. السيارة بالخارج ..» .

تعثرت ، وكادت تنكفىء ، لكن الله سلم ، سارت وراءه وهى لا تكاد ترى شيئًا ، إنها لا تكاد تصدق ، أهى فى حلم أم حقيقة ؟؟ الكلمات لا تسعفها كى تعبر عما يعتمل فى داخلها .. عادت إلى ذهنها فجأة صورة الفتيات .. البراعم الندية .. وهى تروى لهنَّ عن ملحمة التتار .. كان فى أعينهن الشوق والحب والأمل .. لكن معركة التتار لم تكن قد انتهت بعد حينما أتتها الناظرة .. الاستدعاء العاجل أضاع بهجة اللقاء .. لكن لماذا تفكر فى ذلك الآن ؟؟ نظرت أمامها .. رجل الأمن يوسع خطاه ، نظرت إلى الأمام .. هناك سيارة سوداء خصوصى ، وليس مكتوب عليها شىء سوى الأرقام ، ورجلان ضخمان يقفان إلى جوار السيارة من الخلف .. عندما بلغا السيارة ، أشار الرجل قائلًا :

- «اركبى ..».
- «إلى أين ؟؟».
لم يرد ضابط الأمن، لكن أحد الرجلين الواقفين فتح الباب الأيسر الخلفى ودخل منه، بينما أمسك الثانى بذراعها ودفعها إلى الداخل، وفى لحظات وجدت نفسها بين رجلين لا تعرفهما فى المقعد الخلفى، وفى المقعد الأمامى، جلس السائق وإلى جواره رجل الأمن، وانطلقت السيارة، فصرخت نبيلة :
- «هذه عملية خطف .. أنتم عصابة .. أوقفوا السيارة يا مجرمين .. سوف أصيح وأجمع عليكم الناس ..».
لم يعلق أحد بكلمة، صرخت وهمَّت بالوقوف، لكن الرجلين جذباها بعنف وأجلساها، ونظراتهما تتقد شررًا، وأصدر ضابط الأمن أوامره بإغلاق نوافذ السيارة، والانطلاق بأقصى سرعة ممكنة .. كادت تجن .. ندمت على أنها استسلمت .. أخذت تقاوم وتضرب الرجلين بيديها، نظر إليها ضابط الأمن فى غضب ثم أخرج من جيبه قيدًا حديديًا ورماه إلى رجل فى الخلف، أمسكا بها، ورنَّت صفعة قوية على وجهها فأصيبت بالذهول، لأول مرة تتلقى مثل هذه الصفعة .. انهمرت دموعها فى ذل .. وفجأة تذكَّرته .. نعم تذكرت «عطوة» .. صمتت برهة ثم قالت :
- «ستدفعون الثمن غاليًا .. أنتم لا تعرفون من أنا .. أنا خطيبة «عطوة بك الملوانى» قائد السجن الحربى ..».
قهقه ضابط الأمن قائلاً :
- «لن تخدعنا هذه الادعاءات .. عطوة لا يخطب واحدة من أعداء النظام ..».
- «ماذا تقصد ؟؟».
- «ستعرفين كل شىء فى حينه، وعندما يعرف «عطوة بك»».

نشاطك المعادى، سوف يتبرأ منك، وسيهوى بسوطه الشهير على جسدك البض ..».

صرخت فى غضب :

– «ما هذا الافتراء ؟؟».

– «أعرف .. النساء ثرثارات دائمًا .. خير لك أن تصمتى .. سوف تحاسبين على كل قول تلفظت به .. إن معنا مسجلًا يسجل كل شىء وكلامك ينطبق على ما لدينا من تحريات ومعلومات ..».

تلفتت حولها، نظرت إلى الرجال الصامتين كالأصنام الحجرية .. ثم ضحكت فى هستيرية :

– «أيمكن أن أرتكب جريمة دون أن أشعر .. مثل الذين يسيرون وهم نيام فى الأفلام الساقطة التى نراها فى أيامنا هذه ؟؟».

لم يعلق أحد .. تذكَّرت أمها وأباها وإخوتها .. تذكَّرت البيت الوادع الهادىء والمكتبة الصغيرة .. والأسطوانات والشرائط .. واللوحات الفنية الجميلة التى انتخبتها حسب ذوقها .. وقصائد الشعر التى تحفظها .. والبراعم الصغيرة فى مدرسة البنات .. وزميلاتها وهنَّ يتناقشن فى الفن والتاريخ والذكريات .. والحياة بكل مناحيها .. تصورت أن انقطاعها عن ذلك العالم البهيج هو الموت بعينه .. وإلا ماذا يعنى الموت ؟؟ إنه الفراق الأبدى لمعانى الحياة الحلوة بما فيها من شخصيات وأفكار وفنون وجمادات وحيوانات .. وزروع وسماء .. وشمس وماء .. إن ما تراه الآن هو الجحيم بعينه .. تذكرت طائرها الأخضر البديع فى قفصه الأنيق، تمنت الآن أن تمتد يد لتفتح القفص وتترك الحرية للطائر السجين .. يبدو أنها ارتكبت جريمة شنعاء بحبسها ذلك الطائر فى القفص .. وغمغمت : آه يا صديقى الطائر الحزين .. إننى أبكى من أجلك ..».

همس الرجل الذى يجلس على يمينها حينما رأى دموعها تنحدر :

– «لا تخافى .. العناد، وعدم الاعتراف هما اللذان يسببان لك المتاعب .. وإذا تكلمت عن كل شيء بصراحة فسوف يهون الأمر كثيرًا ..».

قالت فى دهشة :

– «اعتراف ؟؟ ماذا تعنون ؟؟».

صرخ الضابط الجالس فى المقدمة :

– «ممنوع لكلام يا بيومى يا حيوان ..».

ردّ الرجل الجالس على يسارها : «لم أتكلم يا سعادة البك ..».

– «كلكم حيوانات .. أقصد سى زفت متولى ..».

ردّ متولى وهو يؤدى التحية جالسًا :

– «أمرك يا أفندم ..».

– «نعم .. إنكتم يا لوح ..».

– «حاضر يا أفندم ..».

حينما بلغت السيارة المقر الرئيسى، عبرت الباب الواسع إلى الفناء، ثم دارت نصف دورة حتى بلغت بابًا جانبيًا صغيرًا فى البناء الشامخ الكبير، وفى لحظات أنزلوها ثم أدخلوها، ووجدت نفسها بعد وقت قصير فى غرفة بها رجلان أحدهما يجلس خلف مكتب فخم مغطى بغطاء ثمين أخضر، وفوق رأسه صورة بالألوان لزعيم العرب «جمال عبد الناصر» وعلى اليسار لوحة سوداء كتبت بماء الذهب «العدل أساس الملك» .. أين رأت مثل هذه اللافتة من قبل .. نعم فى المحاكم .. لا .. لا .. لقد رأتها أيضًا فى قصر الملك السابق فاروق .. قصر عابدين فى قاعة العرش .. قال الرجل ذو الحيثية الجالس خلف مكتبه :

– «يا نور النبى .. ما هذا الجمال ؟؟ يا خسارة .. هذه الحلاوة كلها وتورطين نفسك فى أمور خطيرة ..».

هرولت نبيلة نحوه وهتفت فى ضراعة والدموع فى عينيها :
- «اعمل معروفًا .. أريد أن أعرف ماذا فعلت ..» .
هز رأسه باسمًا ، وأشار بيده وهو يكتب كلمات على ورقة بيضاء وقال :
- «لا تتعجلى .. بهواده بهواده .. نحن لا نظلم أحدًا ..» .
قالت نبيلة فى فرح :
- «هذا ما كنت أعتقده .. إن الثورة الرحيمة لا يمكن أن تظلم المخلصين من أبناء الشعب ..» .
رفع الرجل رأسه عن الأوراق وقال :
- «بالطبع ..» .
شعرت بغير قليل من الارتياح ، لكنها سمعت الرجل الكبير يقول :
- «غير أن البعض يستغل سماحة الثورة ، ويلعب بالنار .. وللأسف النار لن تحرق الثورة .. ولكنها ستحرق يد من يلعبون بها .. بل وتحرق أجسامهم وبيوتهم وكل من يمت لهم بصلة ..» .
قالت فى ثقة :
- «الجميع يعرفوننى .. فى البيت والمدرسة والشارع والحى .. المجتمع كله يعرفنى ..» .
سدّد إليها نظرات ثابتة واثقة وقال :
- «نحن نعرف أكثر» .
ثم رمى بالورقة لأحد الرجال الواقفين وهو يقول :
- «خمسة وعشرون ..» .
فتلقف الرجل الورقة ، وضم قدميه كعلامة سبعة ، بعد أن دقّ الأرض بقدميه فى قوة ، ثم أدى التحية ، وسرعان ما جَرّ «نبيلة» وذهب بها إلى غرفة صغيرة أسفل المبنى ، ثم دفعها إلى الداخل وأغلق الباب .. نظرت حولها فلم تجد شيئًا .. كيف تجلس ؟؟ كيف

تنام؟؟ لا يمكن أن يكون ما يجرى الآن حقيقة .. إنها فى حلم .. حلم لا شك .. وسرعان ما تستيقظ منه ..

الفصل ٧

استعادت نبيلة قدرًا من هدوئها وثقتها بالله وبنفسها ، جلست تفكر بإمعان وروية فيما حدث لها ، إنها لم تنجرف يومًا فى تيار السياسة ، كانت تعتقد أن العاملين فى حقل السياسة مزايدون أو مخادعون ، القلة مخلصون ، ولهذا لم تلق بالًا إلى الحركات الحزبية التى كانت تشتعل فى جامعة القاهرة ، سمعت من إحدى زميلاتها فى الكلية أن الاشتراكية هى الحل الأوحد لمشاكل الحياة والمجتمع والقضية الوطنية والفلسطينية والصراع عمومًا مع الاستعمار ، وأظهرت لها بعض النشرات السرية فقراتها فى حياد ، ثم ردَّتها إليها دون أن تقتنع بما فيها عمومًا ، وقالت لها إحدى الزميلات المحجبات إن الإسلام وحده هو السبيل إلى الخلاص والحرية ، وإلى عالم يسوده العدل والمحبة والإخاء ، وإن القوانين والدساتير التى وضعها البشر لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تتفوق على الشريعة الإلهية التى أنزلها خالق الكون والناس ، وضربت لها الفتاة المحجبة العديد من التجارب الرائعة التى سجَّلها التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وأفاضت فى شرح العنت والقهر والكبت الذى يعانى منه الناس وراء الستار الحديدى حيث تبسط الشيوعية سلطانها .

ومع أن « نبيلة » كادت تقتنع بهذا المنطق إلا أنها آثرت أن تنصرف عن السياسة ومشاكلها ، وأن تركز على تنمية حصيلتها الثقافية والفنية والعلمية وأن تخدم وطنها من خلال إخلاصها فى عملها كمدرسة تربى الجيل الجديد على الخُلق والفضيلة وحب الوطن ، وسمعت الكثير أيضًا عن مبادىء حزب الوفد والسعديين والدستوريين

والكتلة وحزب مصر الفتاة أو الحزب الاشتراكى، لكنها انصرفت عن ذلك كله، ونأت بنفسها عن الصراعات المحتدمة بين شباب الجامعات، ولم يكن معنى ذلك أنها لم تكن تتكلم أو تعلق على الأحداث الجارية، وخاصة بعد أن قامت الثورة، وكان رأيها ينبعث دائمًا من معتقداتها الخاصة دون ارتباط برأى حزب من الأحزاب القديمة كانت تقول ما تعتقد أنه حق .. ومع كل ذلك التحوط والبُعد عن الصراعات إلا أنها وجدت نفسها اليوم فى مأزق لم يكن يخطر لها على بال، إن اعتقالها لا يمكن أن يكون بلا سبب، ترى ماذا فعلت حتى يسوقوها بهذه الطريقة المهينة إلى تلك الغرفة المظلمة الرطبة فى مبنى المخابرات العامة ؟؟ كانت تسمع فى القديم أن الحكومة لها عيون فى كل مكان، وأن الإنسان قد يُقبض عليه، ويُقدَّم للمحاكمة، ويُرمى فى السجن بسبب مزحة أو نكتة تتعرض للرئيس أو للجهاز الحاكم، وكانت تسمع مجموعة من الناس قد اتهموا بتدبير مؤامرة لمجرد أنهم تناقشوا فى السياسة فى جلسة عائلية بريئة، وتعرَّض بعضهم للثورة بالنقد الحر النزيه، وتناقل الناس فيما بينهم قصصًا كثيرة عن الاضطهاد والتعذيب بل والقتل أو فصل المواطنين من وظائفهم أو تسريح بعض الضباط من الجيش أو طرد بعض الوزراء من مناصبهم بسبب نقد عابر، أو نصح سديد لا يروق لأصحاب السلطة، لكن «نبيلة» والحق يقال كانت تكذِّب هذه الشائعات وترفضها بشدة، وتعتقد أن هذا الكلام الذى يدور على ألسنة الناس ما هو إلا تنفيس عن الحقد المكبوت، وعن غيظ رجال العهد البائد والمستغلين الذين تعرضوا للقرارات الثورية فصودرت أملاكهم أو عزلوا عن مراكز التأثير والسلطة، وقرأت الكثير عن الحملة الإعلامية المسعورة التى شنتها الحكومة ضد جماعة الإخوان المسلمين، لكنها كانت فى حيرة، هل تصدق كل ما يكتب أو يقال ؟؟ إنها تريد أن تسمع كلام

الطرفين حتى تحكم الحكم السليم، لا يمكن أن تحكم فى قضية وقد سمعت طرفًا واحدًا هو الحكومة، والذى جعلها تشكك فى كل ما يقال عن الإخوان، إنها رأتهم فى الجامعة، وهم يدربون كتائب الفدائيين لحرب الإنجليز فى القنال وتأكدت من بطولاتهم الرائعة فى حرب فلسطين، وخاصة أنها كانت تتابع المحاكمات الشهيرة فى قضية «الأوكار وسيارة الجيب»، وقرأت شهادات كبار ضباط الجيش عنهم فى فلسطين، ورأت كيف تحول الشباب بتأثير مبادئهم إلى السلوك الطيب، والأخلاق الفاضلة، وأخيرًا سمعت بعض الضباط الثورة أنفسهم يعلنون على الملأ فضل «الإخوان» عليهم، بل واعترف بعضهم بانضمامهم إلى الجماعة، وتعاونهم معها، فكيف تتهمهم الحكومة اليوم بالخيانة والعمالة والفساد والانحراف ؟؟ ومع كل ذلك فقد وضعت «نبيلة» هذه القضية المحيرة على «الرف» والتزمت موقف الحياد أملًا فى أن يأتى اليوم الذى تظهر فيه الحقائق ..

هذا هو فكر «نبيلة» السياسى، وهو فى الواقع «لا فكر» على الإطلاق، إنه مجرد متفرجة تتعلق عيناها بالمسرح لترى وتسمع ولا شيء غير ذلك، فما السبب فى اعتقالها إذن ؟؟ هل قالت نكتة ؟؟ هل علقت بكلمة تسيء أثناء حديثها مع بعض الأقارب أو الصديقات ؟؟ إنها لا تذكر مطلقًا أنها أخطأت أو قالت شيئًا يعرضها لتلك المعلومة السيئة .. ودمعت عيناها حينما تذكرت الصفعة التى هوى بها المخبر على وجهها .. كانت تعتبر وجهها منطقة مقدسة .. حرام .. لا يصح أن يستبيحها أحد، لكن رجلًا تافهًا حقيرًا استباح وجهها وصفعها عليه صفعة قوية .. لو كان بيدها الأمر لقطعت يده .. ليس هناك قانون فى الأرض ولا فى السماء سمح بذلك، وتذكرت «نبيلة» تلك القصة التى كانت تحكيها للطالبات عن عدل عمر بن الخطاب، حينما علم أن «جبلة بن الأيهم» أحد أشراف العرب قد صفع أعرابيًا فقيرًا على

وجهه، فأصدر عمر حكمه بأن يقتص الأعرابى من جبلة .. لكن جبلة فرّ إلى أرض الروم تاركًا وراءه الأهل والمال والدين .. والعار أيضًا ..

«يا إلهى !! كم من الصفعات تكال للبشر اليوم على أرضنا ؟؟ إذا كنت قد صفعت بلا جريمة أعرفها، فما بال التعساء المساكين الذين اتهموا بمحاولة اغتيال الرئيس، وبقلب نظام الحكم بالقوة ؟؟ لا شك أنهم يقتلون أو يعذبون كما يشيع الناس ..».

لم تهتد نبيلة إلى سبب معروف تعزو إليه ما يجرى لها الآن .. إن قلبها ينبض بقوة، ورأسها يكاد ينفجر، لقد بكت كثيرًا وفكّرت كثيرًا دون طائل، وشعرت بالظمأ الشديد، بحثت حولها فلم تجد ماء، دقّت على بابا الزنزانة فى عنف .. فلم يستجب أحد .. عادت تدق الباب وهى تصرخ .. فلم يسعفها أحد .. ارتمت خائرة القوى على بلاط الغرفة القاتمة التى تبدو أمام عينيها كالقبر الموحش المخيف ..

انتقلت إلى الركن الشرقى داخل الزنزانة، جلست على الأرض ومدّت ساقيها، وأسندت رأسها إلى الخلف .. طال الانتظار القاتل .. وأغمضت عينيها ونامت على الرغم منها .. هى لا تدرى كم من الوقت نامت، يبدو أن النوم نعمة كبرى فى بعض الأحيان .. كانت تلك الفترة نوعًا من الهروب المريح من آلام الواقع ومرارته .. لقد قالت لنفسها قبل أن تنام «ليتنى أموت» .. يبدو أن النوم هو الموتة الصغرى كما يقولون .. واستيقظت نبيلة من نومها مذعورة على صياح وضجيج، وسمعت مفتاح الباب وهو يدور بعنف محدثًا صوتًا مميزًا .. وما أن فتح الباب .. حتى وجدت امرأة ممزقة الثياب، وجهها ملىء بالكدمات والجروح، حافية القدمين، تحاول أن تخفى ثدييها وراء ثوبها الممزق، كما لاحظت خدوشًا واحمرارًا فى صدرها وعينيها ويديها وقدميها .. ودفعها المخبر فى فظاظة وغلظة فارتمت واهنة القوى

على البلاط .. دارت بنظراتها صوب نبيلة .. وقاست الغرفة الضيقة بعينيها المحتقنتين، ثم أجهشت بالبكاء .. هبت نبيلة واقفة، وخطت نحوها، ثم ضمتها إلى صدرها فى حنان وحب، فازدادت السجينة بكاء وهى تقول : «منهم لله .. ربنا ينتقم .. ربنا أقوى منهم .. سلمت أمرى إليك يا رب ..» وبكت «نبيلة» هى الأخرى وامتزجت الدموع، وبعد دقائق، وأخرجت «نبيلة» منديلاً صغيرًا أبيض، وأخذت تجفف الجراح النازفة لزميلتها التى لا تعرف عنها شيئًا .. نظرت إليها فى امتنان بادلتها نبيلة نظرة كلها عطف وحب وتقدير .. تمتمت «نبيلة» :

– «من أنت ؟؟» .

– «سلوى أحمد عبد الكريم الصافى» .

– «ماذا جرى يا أختى ؟؟» .

– «مثلما يجرى لعشرات الألوف المضطهدين كل يوم ..» .

ثم أجهشت سلوى بالبكاء وهى تقول :

– «تصورى .. حاولوا هتك عرضى .. فى أى قانون ؟؟ فى أى شريعة هذا ؟» .

غمغمت نبيلة :

– «هذا لا يصدق» .

– «ألا تعرفينهم ؟؟» .

– «لم أكن أعرفهم .. لحساب من يجرى هذا .. هنا .. فوق ثرى هذا البلد» .

هتفت سلوى فى غضب :

– «لحساب الشيطان ..» .

عادت نبيلة تنظر إلى وجه سلوى وجراحها وثيابها الممزقة وقالت :

– «يبدو أنهم ضربوك كثيرًا ..» .

- «كل ما فعلوه أهون من هتك العرض .. حتى الموت أهون ..» .
استغفرت نبيلة الله وقالت :
- «لكن لِمَ كل هذا ؟؟» .
- «شيء غريب حقًا .. تصورى أن كل ذنبى أن لى زوجًا يدرس الدكتوراه فى الهندسة النووية فى ألمانيا .. هم يريدون القبض عليه ، أرغمونى كى أكتب له الخطاب تلو الخطاب كى يحضر .. وكانوا يتسلمون الرد ، هددوه باعتقالى .. بل بقتلى إذا لم يسلم نفسه .. لم يكن له جريمة سوى انتمائه لجماعة الإخوان .. رفض زوجى أن يعود لأنه يعرف كل ما يجرى هنا .. الصحافة فى أوروبا وأمريكا تكتب التفاصيل الكاملة التى ترتكب فى حق الأبرياء والشرفاء .. هل يقدم زوجى نفسه للموت .. مستحيل .. ولما يئسوا منه اعتقلونى .. وانتزعوا ولدى الصغير منى .. عمره ثلاث سنوات .. قذفوا به إلى الشقة المجاورة لشقتنا .. أنا لا أعرف مصيره الآن . يا حبيبى يا بنى .. يا ترى كيف أنت الآن يا صابر ..» .

وأجهشت سلوى بالبكاء ، أخذت نبيلة تربت على رأسها وظهرها فى حنان ، ودموعها تنسكب فى صمت على خديها .. وبعد لحظات التفتت إليها سلوى قائلة :
- «وأنت من تكونين ؟؟» .
- «نبيلة عبد الله .. مدرسة مواد اجتماعية ..» .
- «ولماذا قبضوا عليك ؟؟» .
- «والله لا أعلم .. صدقينى يا أختى ..» .
- «أتكونين من الأخوات المسلمات ؟؟ لا أظن ..» .
- «ولماذا لا تظنين ذلك ؟؟» .
- «معذرة .. فإن للأخوات زيُّهن الخاص .. مثل هذه .. الطرحة والثياب الطويلة .. والأكمام الضافية ..» .

ابتسمت نبيلة قائلة :

– « الحمد لله .. إذن فسأكون بريئة من هذه التهمة ..» .

– « إذن ألك اتصال بأحزاب شيوعية ..» .

انتفضت نبيلة فى غضب وقالت :

– « أعوذ بالله ، إننى أكره أسلوبهم ومعتقداتهم التى يخلطون فيها بين المتناقضات ..» .

– « هذا شىء محير ..» .

وساد بينهما صمت عميق ، ثم نظرت سلوى إليها فى شك وهمست :

– « حذار أن تكونى مجندة من قبل المخابرات لاستدراجى ..» .

قالت نبيلة فى عتاب :

– « أتظنين ذلك ؟؟ لقد بكى قلبى من أجلك ..» .

احتضنتها سلوى وقبلتها وهى تقول :

– « آسفة .. نحن فى عالم يشك فيه الأب فى ابنه .. عالم من ذئاب .. لقد انطمس وجه الحقيقة والجمال .. كل شىء قبيح قبيح قبيح .. لم يبق إلا الأمل فى الله ..» .

تنهدت نبيلة فى حسرة وقالت :

– «لم أنضم لحزب من الأحزاب .. ولست ضد أمن الدولة .. ولم أكن جاسوسة .. نحن نجهل الكثير حتى عن أنفسنا ..» .وسمعا ضجة فى الخارج ، كان الليل قد أقبل ، ودار المفتاح فى ثقب الباب ، وانجلى عن وجوه شرسة متبلدة توحى بالمقت والخوف ، إنهم أبشع من زبانية جهنم ، وقال أحدهم فى برود :

– « نبيلة عبد الله ..» .

هبّت واقفة ، قالت وقلبها يدق :

– «نعم ..» .

صاح صوت أجش :

- « قولى : نعم يا أفندم .. تعلمى النظام وإلا ..» .
- « نعم يا أفندم ..» .
- « تحقيق ..» .
- « ماذا ؟؟ » .
- « قلنا تحقيق .. تفضلى ..» .

نظرت إلى سلوى ، تحاملت سلوى على نفسها ، وأمسكت بيد نبيلة تشد عليها ، ثم قبّلت رأسها وهى تقول :

- « الله معك ..» .

ضحك رجل من الرجال الواقفين ضحكة شيطانية وقال :

- « يبدو أنكما على صلة قديمة .. عظيم ..» .

قالت سلوى :

- « أبدًا والله ..» .

صاح الرجل :

- « هيا .. لا تضيعى وقتنا .. كلكن بنات الشيطان ..» .

وسارت خلفه ، كانت تتعثر فى خطاها ، تذكّرت سلوى والجراح والكدمات ومحاولة هتك العرض ، وشعرت لأول مرة فى حياتها أنها أقرب ما تكون لله .. وأنها تحبه ويحبها .. وأنه لن يتخلى عنها ، وناجت ربها فى ضراعة :

- « علمك بحالى ، يغنى عن سؤالى .. رحمتك يا إلهى » .

الفصل ٨

وقفت فى غرفة التحقيق حائرة ، تنظر إلى هذا فلا يكترث لها ، ثم تنتقل إلى آخر فلا يعيرها التفاتًا ، وتحاول أن تسعل أو تتنحنح كى تشد انتباه الثالث فيهملها ، والناس يدخلون ويخرجون فى صمت أو بعد تبادل كلمات مقتضبة كصوت خفيض ، إنها تشعر بالهوان ، كما تشعر بالقلق ، كان جمالها يدير الرؤوس ، وكانت ثقافتها الواسعة تفرض الاحترام لها فى أى مجتمع تأتى إليه ، ولهذا كان اعتزازها بشخصيتها ورأيها ، دون صلف أو غرور ، ومن ثم أحبت الناس وأحبوها ، أما هنا فلا قيمة للإنسان ، الإنسان الذى كرمه الله ، وأسجد له الملائكة وقال عنه ربه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ .. ﴾ يبدو أن العالم قد مسخ دون أن تدرى هى ، والبديهيات التى مارستها وتعلمتها تنطفىء اليوم وتتوارى ويحل محلها قيم جديدة .. ألا ما أتعسها من قيم !!

شعرت بالغيظ ، ونفذ صبرها ، هذا الموقف المزرى لابد أن ينتهى بأى طريقة وبأى ثمن ، خطت فى ثبات إلى الأمام ، وقصدت الرجل الجالس فى الوسط .. يبدو أنه أكبرهم سلطة ، وانحنت برأسها أمامه حينما كان منكبًا على أوراق أمامه ، وقال :

– «معذرة .. أنا هنا منذ الصباح .. ماذا تريدون منى ؟؟» .

رفع إليها عينين ساخرتين وقال :

– «فيم العجلة ؟؟» .

– «إننى إنسانة أحس وأتألم ..» .

ابتسم ، وعاد ينظر إلى أوراقه ، وهمّت أن تقول شيئًا ، لكن يدًا امتدت من الخلف ، وجرّتها إلى حيث كانت تقف فى البداية ، وعندما التفتت وجدت شابًا نحيلًا يرتدى قميصًا أبيض وسروالًا ضيقًا ..

وقال :

– «تعلمى النظام ..» .

– «أى نظام ، ترموننا كالكلاب دون طعام أو شراب أو حتى مجرد السؤال ..» .

قال فى ابتسامة سخيفة سمجة :

– « الريجيم يفيدك كثيرًا » .

رفع الرجل الجالس فى الوسط رأسه ، وقال :

– «نبيلة عبد الله ...» .

– « أفندم ..» .

– «لدينا تقرير تفيد بأنك توجهين نقدًا عنيفًا للنظام ، وتزعمين بأنه لا حرية حقيقية فى البلد ، وأن لك صلات مريبة بجمعية الإخوان المسلمين .. وأنك ..» .

قاطعته صارخة :

– «كذب ..» .

سدد إليها نظرات حادة وقال :

– «لدينا وقائع .. وشهود أيضًا ..» .

– «فلتواجهنى بهم ..» .

– «لم أنته من كلامى بعد يا آنسة .. ثم إننا كفيلون بأن نجعلك تعترفين بنفسك دون شهود .. وأعتقد أنك رأيت سلوى الصافى التى كانت معك فى الزنزانة .. لقد سمعنا كل أحاديثكم من خلال الميكروفونات السرية الموجودة إلى جواركم .. وواضح أنك كنت متعاطفة معها تمامًا .. وهذا أكبر دليل على نواياك ..» .

قالت فى حدة :

– « فى أى عصر نحن ؟؟ إننى لم أرها قبل ذلك » .

– «نحن فى القرن العشرين .. والتصنت على المكالمات التليفونية وأحاديث الناس يحدث فى أمريكا نفسها بلد الحرية .. إننا نعرف عنك

كل شيء .. أنت مثقفة .. فلنختصر الطريق .. قولى لنا كل ما تعرفين » .
دقت الأرض بقدميها وقالت :
– « أنا لا أعرف شيئًا على الإطلاق فى هذه الأمور ..» .
تنهد المحقق فى صبر نافذ وقال :
– « سؤال : لمن تقرئين ؟؟ » .
– « أقرأ أى كتاب يقع فى يدى .. أقرأ للعقاد والحكيم وطه حسين وشوقى وحافظ ونزار قبانى وسارتر ودستوفسكى » .
هز المحقق رأسه فى سخرية وقال :
– « مَن دستوفسكى هذا ؟؟ » .
– « كاتب روسى ..» .
– « مصيبة جديدة .. تقرئين لكتّاب ما قبل الثورة .. وتقرئين للشيوعيين ..» .
– « دستوفسكى جاء قبل الثورة الروسية ..» .
– « وتعرفين تاريخه أيضًا ؟؟ » .
– « نعم .. هذا لا يعتبر جريمة .. إنه روائى عظيم .. وحكم عليه بالإعدام ولكن القيصر عفا عنه وهو واقف على عتبة المشنقة ..» .
ضحك طويلًا ثم قال :
– « ربنا يرزقك بقيصر ينقذك من المصيبة التى وقعت فيها ..» .
نظرت إليه فى دهشة ، لكنه عاجلها بقوله :
– « ما هى هواياتك ؟؟ » .
– « هواياتى ؟؟ أهى مقابلة إذاعية أو ريبورتاج صحفى ؟؟ أنا لست نجمة من نجوم الفن ..» .
– « أجيبى على سؤالى » .
– « أحب الأدب والموسيقى والرياضة ..» .
– « ألا تقرأين كتبًا فى السياسة ..» .
– « قليلًا ..» .

– « لأنك سلبية .. ألا تسمعين خطب الرئيس ؟؟ » .
– « أحيانًا ..» .
– « ما رأيك فيها ؟؟ » .
– « كنت أصفق له من دون رياء ..» .
– « لا يهمنا التصفيق المهم ما يعتمل فى قلبك ..»
– « أنا لا أصفق إلا إذا اقتنع عقلى ، ورضى قلبى ..» .
– « ولكنك كنت تنتقدين بعض التصرفات فى المرافق العامة والوزارات وبعض الكبار ..» .
قالت نبيلة :
– « لو حدث ذلك ، فإن لا غبار عليه ، لأنه من صميم حقى كمواطنة شريفة ، يهمها أن تتطور الأمور إلى الأحسن دائمًا ..» .
ابتسم الرجل فى خبث وقال :
– « كنت واثقًا أنك ستكونين عاقلة وتعترفين .. وقد اعترفت » .
فغرت فاها فى دهشة وقالت :
– « اعترفت بماذا ؟؟ أنا لم أرتكب جريمة ..» .
هبَّ واقفًا من خلف مكتبه ، ثم دار حولها واقترب منها وهو يقول فى ثورة :
– « هناك خيط رفيع بين النقد والتآمر ..» .
– « لا أفهم ..» .
– « سوف أفهمك .. إنك تعبئين الرأى العام ضد الحكومة .. وتزعمين أنه مجرد رأى أو نقد .. وتعبئة الرأى العام تعنى التحريض .. والتحريض يدفع إلى التمرد .. إلى الثورة .. إلى اضطراب حبل الأمن فى البلاد .. عندئذ تحترق البلاد ، وينتشر الدمار ، وتسود الفتن .. ويجدها الاستعمار فرصة ذهبية ، وكذلك الصهيونية فينقضون على بلادنا الحبيبة .. هل فهمت الآن يا حضرة المثقفة الجميلة يا من تربي الأجيال وتعلمينهم الأخلاق ..» .

صرخت نبيلة باكية :

– «لم يخطر ببالى أى شىء مما تقول .. إننى حسنة النية تمامًا وأقسم بالله على ذلك ..» .

– «حسنًا .. لو اعتمدنا على حسن النية لخربت البلد ..» .

– «لكن الشعوب كلها تنتقد حكوماتها ، ولم يحدث شىء ..» .

– «إن الذين يحكمون البلد اليوم رجال مخلصون أوفياء ، فلا موجب لنقدهم فى شىء ..» .

– «هذا حق لم يعطه الله لأحد .. ولا حتى للأنبياء ..» .

ابتسم فى مكر وقال :

– «اشرحى لنا هذه العبارة ...» .

قالت بهدوء عاصف :

– «كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يستشير أصحابه .. كان لا يريد الخروج لحرب الأعداء فى غزوة أحد ، لكنهم اعترضوا وأصروا على الخروج .. وخرج .. وكان يريد أن ينزل فى مكان ما فى غزوة بدر ، فأشار عليه أحد أصحابه أن ينزل فى مكان آخر قرب الماء فوافقهم .. وعشرات القصص أستطيع أن أرويها لك ..» .

واجهها بعينين لا تطرفان وبابتسامة شاحبة وقال :

– «نفس أسلوب الإخوان المسلمين .. كنت واثقًا أنك على صلة بهم وهذا دليل جديد ..» .

صمتت برهة ثم قالت :

– «إنكم تهولون فى الأمر ، وتضخمون الأشياء» .

– «الشك وسوء الظن هو سبيلنا للوصول إلى الحقيقة ..» .

صرخت دون وعى :

– «إنكم تدمرون أجمل الأشياء فى الحياة ..» .

– «هذا كلام خطر ، ونقد مدمر للسلطة ..» .

– «أين هى السلطة ؟؟» .

– «نحن ..» .

نظرت إلى صورة الرئيس الضخمة المعلقة فى مواجهتها ، لم تكن الصورة تبتسم هذه المرة ، ترى أين هو الآن ؟؟ ليته يأتى ليسمع .. ألم يقل ذات مرة لقد خلقت فيكم العزة .. لقد خلقت فيكم الكرامة .. لقد خلقت فيكم الحرية .. لعله الآن يجلس ناعمًا هادئًا يقرأ كتابًا جديدًا أو يتصفح مجلة ، أو يداعب أبناءه ، أو يعقد اجتماعًا هامًا ، أو يصدر قرارات ثورية ، لكن أليس لديه بضعة دقائق ليزور فيها هذا المكان والأمكنة المشابهة ، ليرى بنفسه ، إنها على استعداد لأن تدفع حياتها ثمنًا لشىء واحد تأمل فيه ألا وهو أن تسأله : ما رأيك فيما يجرى هنا الآن لها ولسلوى والآخرين » .

قالت نبيلة وهى تكتم أساها :

– «لو علم الرئيس بهذا الذى تفعلونه لأخذكم بشدة ..» .

ضحك الرجل من الأعماق وقال :

– « اطمئنى .. إنه يعرف كل شىء .. إننا مجرد منفذين للخطة ..» .

– « لا أصدق ..» .

– « وهو يثق فينا ثقة مطلقة .. ونرفع إليه تقارير يومية .. إن سر النجاح الذى يتحقق هو التزامنا حرفيًا بالأوامر .. نحن عسكريون أولًا وأخيرًا ..» .

وأفاق الرجل من غفلته التى يبدو أنه سقط فيها سهوًا وقال :

– «لكن ما الذى جعلنى أقول هذا الكلام ؟؟ لقد انقلب الوضع وأصبحت أن المتهم .. أليست هذه مهزلة ؟؟ ومع ذلك فإنى غير نادم على ما قلت ، لأنى واثق أنك ستقتنعين فى النهاية بمنطقنا ، من يدرى ، فقد تصبحين واحدة من رجالنا ..» .

شعرت نبيلة بالاختناق ، أخذت تلتقط أنفاسها بصعوبة .. ازداد لهاثها ، احتقنت عيناها أكثر ، وشعرت أيضًا بما يشبه الدوار ، إنها تكاد أن تسقط إعياء ، وسمعت ضجيجًا فى الخارج .. يا إلهى أهى فى

حلم أم أنها الحقيقة ؟؟ إنها تسمع صوته .. إنه مبعوث العناية الإلهية .. هذا صوت عطوة الملوانى :

– «ما هذه المهزلة ؟؟ هل وصلت بكم النذالة لحد القبض على خطيبتى من أجل تقرير كل افتراء .. كتبه عميل تافه .. هذه المسألة لن تمر بسلام .. قسمًا لأبلغ الرئيس بكل ما جرى ..» .

كانت تقف شاحبة ترتجف وصدرها يعلو ويهبط، وانهمرت دموعها غزيرة ، وأخذت تنشج نشيجًا عاليًا ، وسمعته يقول :

– «أأنت هنا يا حبيبتى .. لسوف آخذ لك بحقك .. هؤلاء الحيوانات سوف ألقنهم درسًا لن ينسوه ..» .

وقد نحوها وهو فاتح ذراعيه ..

وسرعان ما ألقت بنفسها بين ذراعيه وهى تنتحب ، فأخذ يلامس شعرها ويجفف دموعها ، ويقبّل وجنتيها ، وقد تجمع كل الغضب على وجهه ، وأخذ يقول :

– «لا تنزعجى يا حبيبتى .. لقد أخبرونى فى بيتكم بالأمر منذ ساعة واحدة .. أخبرتهم ناظرة المدرسة .. كنت مشغولاً طوال الصباح وبعد الظهر .. لم أعد إلا متأخرًا ..» .

– «أساءوا إلىّ يا عطوة .. احتقروا آدميتى .. عاملونى أسوأ معاملة .. لم أكن أصدق أن يحدث هذا فى بلدنا الطيب ..» .

قال فى دهشة :

– «ولماذا لم تخبريهم أنك خطيبتى ؟!» .

– «قلت لهم ، فلم يكترثوا ..» .

قال المحقق وبدا على وجهه الجد والاهتمام :

– «وشرفك يا عطوة بك لم نكن نعلم ..» .

هزّ عطوة رأسه قائلاً :

– «سيكون حسابكم عسيرًا ..» .

ثم أمسك بيد نبيلة وقال :

- « هيا بنا ..» .
- « هل سنخرج يا عطوة ؟! » .
- « بالطبع .. هؤلاء الكلاب الذين ترينهم الآن في إمكاني أن أضعهم في السجن .. لولا جهلهم بحقيقة وضعك ..» .
قالت نبيلة في غيظ :
- « كيف يعرفون كل شيء عني ولا يعرفون أني خطيبتك ؟؟ » .
قال المحقق وهو يحني رأسه في أدب :
- « أقدم عميق أسفي واعتذاري يا آنستي ..» .
قالت وقد شردت بنظراتها إلى بعيد :
- « معنى هذا أني إذا لم أكن خطيبتك لقذفوا بي وراء الشمس » .
قال عطوة :
- « بالتأكيد ..» .
- « أليس هذا ظلمًا ؟! » .
- « لا تنزعجي يا حبيبتي .. إن الأخطاء التي ترتكب لحماية أمن الدولة يجب أن نعفو عنها ، وننظر إليها بعين التقدير وحسن النية .. ولكن أؤكد لك أنك ستأخذين حقك وزيادة .. هيا ..» .
ثم رمى أمام المحقق بورقة تفيد السماح بالإفراج عنها موقعة من مدير المخابرات العامة .. ومشت إلى جواره، ورنت في مخيلتها الكلمة القديمة « داخله مفقود والخارج منه مولود » .. وتذكرت سلوى .. هذه المسكينة التي تتأوه الآن تحت وطأة الظلام والخوف والإرهاب ، ترى ماذا يفعلون بها الآن ؟؟ وانحدرت على خدها دمعة غالية ..

الفصل ٩

كان عطوة بك يجلس إلى جوارها في سيارته الخاصة، ونسيم الليل يلامس وجهها المحتقن الساخن من أثر الانفعال، كان يقود سيارته في ثقة وسرعة ملفتة للنظر، وبدا واضحًا أن سلطته أكبر بكثير من جسمه وسنه ورتبته، وكان لصوت العجلات صدى تأوه طويل، وأخذ يقول:

– «عندما علمت بالخبر صدمت .. هذا يحدث كثيرًا .. ابن أخت أحد الوزراء حدث له نفس الشيء الأسبوع الماضي .. ومنذ شهر قبض على شقيق ضابط كبير في مكتب المشير عامر وزير الحربية .. كما قبض على رجل من الصحفيين الذين يعملون مع هيكل رئيس تحرير الأهرام .. وهيكل له وزن كبير جدًا .. عشرات الحوادث المشابهة تحدث يوميًا .. إن جهاز الأمن يسيطر على حركة المجتمع سيطرة هائلة تدعو إلى الاطمئنان .. لقد علمت أن لك ملفًا كبيرًا بالمخابرات ..».

قالت نبيلة في اشمئزاز:

– «وهذا ما يؤكد لي أكثر أن هناك كثيرًا من المظلومين ..».

– «لا تقولي هذا الكلام أمام أحد .. ولا حتى أمامي ..».

– «أنا أقول الحقيقة ..».

– «إحمدي الله على نجاتك ..».

– «لن أشعر بالاطمئنان طول حياتي ..».

مد ساعده الأيمن وطوقها في حنان وهو يقول:

– «ما دمت إلى جواري فلا تخافي أحدًا .. الرئيس يعلم مدى إخلاصي، ولهذا فلا يرد لي طلبًا .. إنني على وشك أن أحصل على ترقية استثنائية ..».

قالت وعيناها مغرورقتان بالدموع :
– « عطوة ..» .
– « عيون عطوة ...» .
– « ألا تستطيع مساعدة سلوى ؟ » .
– « من سلوى هذه ؟؟ » .
وأخذت تروى له كل ما تعرفه عن سلوى ، من خلال الفترة القصيرة التى عاشتها معها فى ظلام الزنزانة ، كان يستمع إليها ويهز رأسه ، وأخيرًا قال :
– « يجب أن تنسيها كلية ...» .
– « كيف ؟؟ » .
– « الشىء الوحيد الذى لا يقبل فيه الرئيس وساطة ولا شفاعة هو موضوع الإخوان المسلمين ..» .
قالت نبيلة وقد التفتت إليه فى اهتمام :
– « أهو على علم بكل هذه التفاصيل ؟؟ » .
– « بالطبع .. إن الذى يتخطى أوامره ، أو يخرج على السياسة المرسومة ليس له عقاب سوى الطرد والإهانة .. إن أية غلطة .. أو مجرد تهاون بسيط قد يؤدى إلى كارثة .. إنها حياته ، وحياته مرتبطة بمستقبل الثورة والشعب ..» .
قالت فى دهشة :
– « لكنه مجرد فرد ..» .
– « لا تقولى هذا الكلام الخطير .. أصابعك ليست متساوية ..» .
شردت لحظات ثم قالت :
– « كان عمر ينام تحت ظل شجرة فى الطريق ..» .
– « ولهذا قتلوه .. أنا أعرف التاريخ أيضًا ..» .
– « لكنه خلد بنبله وعدله .. نعم ملأ الأرض حبًا وحضارة ..» .
قال وهو يشعل سيجارة ، والسيارة تنطلق مسرعة :

– «لهذا فقد قدم أحد الخبراء دراسة للرئيس يطلب فيها تعديل مناهج التاريخ الإسلامى .. لم أكن أفهم الموضوع تمامًا .. لكنى الآن أدركت أنها فكرة صائبة ..» .

تذكرت سلوى مرة أخرى وقالت :

– «لكن سلوى بريئة .. إذا كان زوجها مطلوبًا .. فما ذنبها هى؟؟» .

– «إن سلوى وسيلة من وسائل الضغط، ماذا يفعلون غير ذلك؟؟» .

– ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .. هكذا يقول الله فى كتابه .. أم أنكم تريدون تعديل آيات القرآن كما تحاولون تغيير مناهج التاريخ وأحداثه ..» .

– «يا حبيبتى .. نحن نفهم الدين خيرًا مما يفهمه الإخوان .. صدقينى ..» .

إن رأسها يدور ، وتختلط فيه أشياء كثيرة، لقد اضطربت البديهيات والمثاليات ، أدركت أنها كانت غريرة ساذجة كطفلة تحبو .. لم تكن تفهم الحياة كما يجب .. ألا ما أشد غفلتها .. لقد ضاعت أيامها الماضية فى تصرفات بلهاء ، وما أن صدمتها صخرة الواقع حتى أفاقت من غفلتها .. إنها تريد أن تجلس وحدها .. وتفكر فى كل شىء من جديد .. أحلامها الوردية القديمة تذوى .. تضمحل . تذوب فى وهج العذاب النفسى الذى يشتعل فى داخلها .. القانون خرافة .. والعدل خرافة .. والقِيَم الخالدة الرائعة كلها أحالها الواقع الأليم إلى خرافة .. أيمكن أن يعيش شعب بأسره فى ظل تلك الخرافة الكبرى ؟؟ وإلى متى ؟؟ كيف كانوا يصفقون ويهتفون ويرددون الأناشيد والأهازيج فى موكب الزيف الكبير .. لشد ما تكره نبيلة الحياة .. تكرهها بعنف مثلما أحبتها بعنف فى الأيام الخوالى .. مجرد ساعات نهار واحد أحالها إلى إنسانة جديدة تمامًا .. ترى ماذا يدور فى أذهان التعساء الذين

يرزحون تحت وطأة العذاب والإرهاب سنين طويلة .. كيف تمتد بهم الحياة .. هل يأكلون ويشربون ويضحكون ؟؟ إنها لا تصدق أن الدمار الذى أحدثته هذه الساعات فى روحها دمار هائل .. يشبه إلى حد كبير ما يسمونه بالقنبلة الذرية .. احترقت فى قلبها الورود والرياحين .. وانطفأت الشموع المقدسة التى أضاءت فكرها وأحلامها .. فتحولت إلى طاقة كبيرة من السخط والرفض والحقد .. إنها تتصور نفسها زوجة .. فلماذا تلد ؟! لن تلد غير مزق من الأجيال الضائعة التائهة المشردة .. ولن تستطيعوا أن يبنوا حضارة .. سوف يصنعون حياة شوهاء مليئة بالبثرات والتقرحات المعدية ..

وسمعت عطوة يقول :

– « سوف نقضى ليلة ممتعة تنسيك كل همومك يا نبيلة ..» .

قالت كمن لدغتها حية :

– « أنا ؟؟ » .

– « أنا وأنت » .

– « إننى منهارة ..» .

– « كأس واحدة تعيد إليك بهجتك ونشاطك ..» .

– « لا أشربها ..» .

– « ستشربينها من أجلى .. هذه هى كلمة الشكر التى أطلبها منك ..» .

بكت .. وأخذت تشهق .. التفت إليها مستغربًا ، وقال :

– « ماذا جرى ؟؟ » .

– « أنت لا تعلم ما بى ..» .

– « ماذا حدث ؟؟ مجرد تجربة ستستفيدين منها فى المستقبل ..» .

– « الليلة أنا لا أصلح لشىء .. أرجوك .. دعنى أستعيد نفسى .. أنا فى انهيار عصبى تام .. الله وحده يعلم .. ثم لا تنس أن الأسرة كلها الآن فى انتظارى ..» .

زاد من سرعة السيارة .. انطلقت كالريح فى الشارع الواسع .. كان يزفر فى حنق ، وغمغم كذئب جريح جائع :

– « هذا التصرف منك ، لا يمكن أن يكون مكافأة لى على إنقاذك من بين أنيابهم .. » . وضعت يدها على ساعده الأيمن وقالت فى رقة :

– « عطوة .. أنت لا تعلم كم أحبك !! عندما دخلت علىَّ هناك غرفة التحقيق شعرت بسعادة لا توصف .. كنت كالملاك الذى أرسله الله لإنقاذى وأنا على وشك الفناء فى صحراء موحشة لا زرع فيها ولا ماء ولا بشر .. نزلت كلماتك بردًا وسلامًا على نفسى المعذبة .. أقول لك الحق لقد خيل إلىَّ أن مجيئك معجزة من المعجزات .. وكل أملى أن أردَّ لك الجميل .. فى الوقت المناسب .. الليلة أنا لا أصلح لشىء كما قلت لك .. أنا مزقة من يأس وعذاب .. » .

وقفت السيارة لدى باب مسكنها ، هرول أبوها العجوز ، كذلك فعلت أمها المصابة بروماتيزم المفاصل ، لكنها انكفأت ، وجرى إخوتها الصغار وأولاد أخيها وأختها وهم يغنون فى سعادة :

– « أبلة نبيلة .. أبلة نبيلة .. » .

انهمرت دموعها وهى تأخذ بيد أمها وتحتضنها ، وبللت يد أبيها بالدموع وهى تقبلهما ، وجمعت الأطفال بين ذراعيها جولة واحدة ، وأخذت تمرغ خديها الغارقين فى الدموع فى رؤوسهم ، ثم أجهشت بصوت حزين ..

قدم نحوها عطوة وجذبها فى غلظة من يدها وهو يقول :

– « ما هذا الذى تفعلين ؟؟ انظرى إلى النوافذ المجاورة .. النسوة يتطلعن فى فضول .. هذا ليس من مصلحتنا .. » .

ثم التفت إلى أبيها قائلاً :

– « يا عمى .. أنت وحدك تستطيع أن تفهمنى أكثر .. إن ما حدث لا يصح أن يعرف به أحد .. هناك قضايا سياسية كثيرة تقام بسبب ترويج الشائعات .. ولن يكون فى مصلحة أى منا أن تصرح نبيلة بأية

كلمة عما جرى .. يجب أن ينتهى الأمر عند هذا الحد وكأن شيئًا لم يكن ..

هزَّ الرجل الذى أضناه المشيب رأسه فى تقبل واقتناع وقال :

– « هذا عين العقل .. عين الصواب ..» .

ثم اقترب من نبيلة وأمسك بيدها فى حنان، وعلى فمه ترتسم ابتسامة الثقة والنصر وقال :

– « مفهوم يا حبيبتى ؟؟ » .

هزَّت رأسها قائلة :

– « مفهوم ..» .

– « موعدنا غدًا يا نبيلة ..» .

نظرت إليه فى ذهول، كانت تحوم بخيالها هناك حول الركن الأسود الذى تنزوى فيه « سلوى الصافى » وحول المكاتب الأنيقة فى غرفة المحققين، والرجال البلداء الذين لا يعرفون الرحمة أو الحب، أيمكن أن يكون لهؤلاء الرجال زوجات وأطفال وأمهات وأصدقاء ؟؟ وصورة الزعيم تنتصب فوق الرؤوس كأيقونة ساحرة تشع بالثقة والكبرياء والجبروت .. رأسها يدور ويدور .. هدير الهتافات يكاد يصم أذنيها، والتصفيق الحاد الطويل يكاد يدمر كل خلية عصبية فى جسدها، وسقطت بين أيديهم فجأة .. لم تعد تعى شيئًا .. حملوها إلى الداخل .. صرخت أمها فى خوف ولوعة :

– « ماذا فعلوا بها ؟؟ إلحقونى بدكتور .. بنتى .. حبيبتى يا بنتى ..» .

زمجر عطوة بك فى غضب وقال :

– « هذا ليس فى صالحها .. إن الشبهات التى ألصقت بها شبهات قوية .. فلتدخلوا، ولتغلقوا عليكم باب بيتكم .. ولا طبيب ولا دياولو ..» .

اقتربت منه الأم وهى تتكىء على كتف أحد أحفادها :

– « أية شبهات يا ولدى ؟؟ .. تلفيقة من بوليس الآداب !! ..» .

ضرب عطوة كفًا بكف وقال :

– « يا للكارثة !! إفهميني يا أمي .. هذه أمور سياسية تتعلق بأمن الدولة ..» .

دقّت المرأة على صدرها فى خوف :

– « سياسية ؟؟ نبيلة بنتى ؟؟ مستحيل ..» .

نظر عطوة إلى الأم فى ضيق وهو يقول :

– « اللهم طولك يا روح ..» .

حملوها إلى الداخل .. كان جسدها متخشبًا تمامًا ، وكانت تموء بصوت يثير الحزن والشفقة ، وأصابع يديها منقبضة بشدة ، بحيث لم يستطع أحد أن يبسطها ، ومن فمها يطفر زبد أبيض .. ونظر عطوة إلى عينيها المغمضتين ، وشفتيها المزمومتين ، ونهدها النافر ، وشعرها المنسدل فوق الوسادة البيضاء ، فأخذ بروعة جمالها ، برغم اللحظات الكئيبة ، ثم مال على جبينها وقبّلها فى حنان وهو يقول :

– « تصبحين على خير .. لا تخافوا ستكون على ما يرام .. أطفئوا الأنوار ودعوها تنام فى هدوء .. هذه حالة صرع مؤقت سرعان ما تزول بعد أن تستريح وتهدأ أعصابها .. إننى أرى مثل هذه الحالات يوميًا فى السجن الحربى .. لو كان معى حقنة مهدئة لانتهى الأمر فى لحظات ، وعادت إلى حالتها الطبيعية .. وسوف أطمئن عليها بالتليفون .. لو لم يكن عندى مشاغل هامة لقضيت الليلة معكم ..» .

ما إن انصرف عطوة ، وسمعوه وهو يدير محرك سيارته ، حتى قالت الأم :

– « استدعوا الطبيب على الفور ..» .

قال الأب فى تردد :

– « ألم تسمعى كلام عطوة ؟؟ » .

– « من عطوة هذا ؟؟ » .

– « الذى أنقذ ابنتك من السجن ..» .
– « ابنتى أولًا ..» .
– « والحكومة .. هذه قضية سياسة .. أنت لا تعرفين ما يجرى » .
صرخت الأم فى غضب :
– «ملعون أبو الحكومة ..» .
– « اخفضى صوتك يا امرأة وإلا رحنا فى داهية ..» .
– « هل فيه داهية أكثر من هذه .. لسوف أستدعى الطبيب وليكن ما يكون ..» .

وجرت صوب التليفون فى تثاقل ، لقد نسيت الأم آلام الروماتيزم التى تقعدها ، ووجدت تأييدًا تامًا لفكرتها من باقى أفراد الأسرة ، وعلى الرغم من معارضة الأب إلا أنه شعر بارتياح كبير وزوجته تدير قرص التليفون .

قال الطبيب :

– « هذه حالة انهيار عصبى شديد .. ونوبة الصرع بسبب التوتر البالغ .. يبدو أنها تعرضت لإيذاء نفسى كبير .. الراحة التامة لمدة أسبوعين على الأقل .. ويستحسن أن تغادر القاهرة إلى أى مكان آخر طوال فترة النقاهة .. ودوائها بعض المطمئنات أو المهدئات .. وأقراص فيتامينات وأرجو الاهتمام بالتغذية ..» .

هبَّت نبيلة من سريرها وقد بدا الارتياح على وجهها وقالت :

– «سوف أكتب رسالة للرئيس نفسه أشرح له فيها كل ما جرى .. لم أزل أشك فى أن هؤلاء الكلاب يخفون عنه الحقائق الفاضحة المخجلة ..» .

قال أبوها فى توسل :

– « اهدئى يا بنتى ولا داعى للمشاكل .. نحمد الله على ما جرى ، ونغلق علينا بابنا .. وننسى كل ما فات ..» .

قالت أمها فى إصرار :

- « أعرف أنك مظلومة يا ابنتى .. قلبى يحدثنى بذلك .. لكن لن يفعل لك الرئيس شيئًا .. إنهم كلابه الأوفياء ..» .

صاح الأب عبد الله فى غضب :

- «يا ناس حرام عليكم .. إنكم بهذا الكلام تفتحون علينا باب المصائب .. ألا تثقون فى شيبتى .. لقد خبرت الحياة .. ورأيت الكثير ..» .

قال الطبيب وهو يقترب ثانية من نبيلة :

- « اكتبى ما تشاءين ..» .

ثم التفت إلى أبيها قائلًا :

- « إن الكتابة سوف تخفف عنها الكثير من التوتر والضيق .. ذلك جزء من العلاج ..» .

قال أبوها محتدًا :

- «لتقرأ فى كتاب .. لتستمع إلى الموسيقى أو تتسلى بالمسلسلات والأغانى فى الراديو .. ألا يكفى هذا ؟؟» .

نهضت نبيلة من سريرها ، وأسرعت صوب مكتبتها ، ثم تناولت الكتب وأخذت تقذف بها عبر النافذة فى ثورة ، أسرع أبوها ليحاول منعها ، فقال الطبيب :

- «دعوها ..» .

وبعد أن فعلت ذلك عادت إلى سريرها تلهث .

قال الطبيب :

- «لماذا فعلت ذلك ؟!» .

- «فيها الكثير من الخداع .. مخدرات .. زيف .. ليس فيها من الواقع شىء ..» .

ابتسم الطبيب ، وأخرج محقنًا صغيرًا ، ثم كشف عن أعلى ذراعها ، ودس الإبرة فى عضلة الجزء الأعلى للذراع من الخلف وهو يقول :

- «لست معك فى ذلك .. هناك كثير من الكتّاب الشرفاء .. ما أكثر الكلمات الصادقة ..» .

ثم التفت إليها فجأة وقال :

- « ألديك مصحف ؟؟ » .

نظرت إليه فى دهشة ثم أخذت تسحب الكم على ذراعها ، وهمست :

- « لا ..» .

أخرج الطبيب من جيب سترته مصحفًا صغيرًا وقال :

- « تقبلى هذا منى هدية ..» .

تناولته بيد مرتعشة ،قرّبته من وجهها ، قرأت ما عليه ، ثم قربته من فمها ، وقبّلته فى حب .. وظلت هكذا لحظات .. ثم التفتت إليه وقد عادت الابتسامة إلى وجهها الشاحب ، وقالت :

- « حذار أن تكون من الإخوان ..» .

- « القرآن موجود قبل الإخوان بقرون .. وهو ليس حكرًا على أحد .. إنه كتاب الله .. لكل المسلمين .. بل لكل البشر ..» .

واستطرد وهو يغلق حقيبته :

- « الإيمان وحده سوف يشفيك عاجلًا .. إنه خير من أى عقار فى العالم ..» .

وضعت نبيلة المصحف على طاولة قريبة وقالت :

- « ألم يهتز إيمانك قط يا دكتور ..» .

ابتسم فى مرح وقال :

- « كثيرًا ما يحدث ذلك .. حقيقة .. بالتأكيد .. لسنا أنبياء ..» .

- « لماذا ؟؟ » .

- « لأن الإنسان مجموعة من الحالات النفسية .. قد يضعف وقد يقوى .. قد ييأس وقد يأمل .. ونحن لنا طاقات محدودة .. حياتنا كالخط البيانى .. صعود وهبوط .. لكن يجب أن نحذر الضعف والتهاوى لدرجة الصفر .. ولهذا كان الابتلاء وكان الصبر .. وكان

تفاوت الناس فى القدرات لأسباب كثيرة .. ولهذا كانت الجنة والنار ..» .

نهضت نبيلة من سريرها قائلة :

– «سوف أذهب إلى المدرسة غدًا ..» .

قال الطبيب فى بشاشة :

– « أوامرى يجب أن تنفذ بدقة ..» .

– «لكنى أدرى بنفسى .. أنا الآن فى أحسن حال ..» .

– «تذكرى أننى جهة اختصاص .. والخبراء لهم رأى مسموع لدى العقلاء ..» .

هزّت رأسها قائلة :

– « صدقت ..» .

واستأنف الطبيب حديثه قائلًا :

– «وخلال فترة الراحة .. ستعيدين التفكير فى أشياء كثيرة .. أعيدى هندسة مخك إن صح التعبير .. لكن تذكرى أن الصبر هام .. من ينظر إليه على أنه عبادة يسعد ويطمئن باله .. ومن ينظر إلى الصبر على أنه قيد وسجن سرعان ما يصاب بالتوتر ومضاعفاته .. أتدركين معنى كلامى ؟؟ ..» .

هزّت رأسها فى فرح :

– «نعم ..» .

– « والآن اسمحوا لى بالانصراف ..» .

قالت فى رقة :

– « هل نراك ؟؟ » .

– «بإذن الله .. ويسعدنى أن ألتقى بك فى العيادة ..» .

مدّت يدها مصافحة :

– «مع السلامة ..» .

وما أن انصرف الطبيب حتى جلست نبيلة فى مكانها وقالت :

- « إنى جائعة .. أريد أن أسمع قطعة موسيقية هادئة .. اذهبوا وأحضروا الكتب التى رميتها .. سأسافر فى الصباح إلى الإسكندرية .. لا أريد أحدًا معى .. ولا تخبروا أحدًا بمكانى ..» .

عندما علم عطوة فى اليوم التالى بنبأ سفرها ، هاج وماج وقال :

- « هذه مصيبة !! من المفروض ألا تسافر إلى أى مكان إلا بعد الاستئذان من المخابرات .. أين ذهبت ؟؟ » .

قال أبوها :

- « لا ندرى .. لقد تركت لنا بطاقة صغيرة ولم تحدد فيها المكان .. وقالت إنها ستعود بعد أسبوعين ..» .

رمى عطوة سماعة التليفون فى حنق وصرخ :

- « أنا الذى أحرك آلاف الرجال المرموقين بإصبعى أعجز عن التحكم فى فتاة لا تزن أكثر من خمسين كيلو .. هزلت والله .. طيب ..» .

الفصل ١٠

كان عطوة صغيرًا، حينما حدثت تلك الحكاية، إنه لا يمكن أن ينساها، دائمًا تَرِد على خاطره، ذات مرة أحضرت له أمه لعبة من اللعب الجميلة، كانت عبارة عن سيارة صغيرة، عندما يضغط على نتوء أسود صغير فيها، كانت السيارة تنطلق وتلف، وتصدر عنها أصوات .. وجرس صفير يدق، وسائق اللعبة الصغير يحرك يديه ورأسه في براعة .. وعطوة الصغير يجلس مبهورًا أمام لعبته الفريدة، يبدوا أنه كان دون الخامسة من عمره، حاول أن يفهم السر وراء هذا اللغز المعدني المثير فلم يستطع، سأل ا لكبار فأخذوا يشرحون له أشياء لم يفهم منها ذرة .. وأخيرًا أخذ لعبته وانزوى بعيدًا، ثم أخذ يدقها بحجر حتى تفسخت وخرجت من جوفها قطع صغيرة وأسلاك وصفائح .. أخذ ينظر إليها في دهشة، وأخيرًا لم يستطع أن يفهم شيئًا، وحاول تجميع الأجزاء ورصها من جديد، وعندما أراد تشغيل لعبته لم يفلح .. بكى .. جرى إلى أمه .. وإلى إخوته فقالوا له إنها لم تعد تصلح .. لقد تلفت تمامًا .. لكنه يريدها كما كانت .. قالت أمه :

– «لقد ماتت .. وليس في مقدورنا أن نعيدها إلى الحياة ..» .

بكى يومها بكاءً مرًا .. هذه الحادثة مرسومة في أعماق عطوة .. تَرِد على ذهنه كثيرًا، وتطفو كما تطفو السمكة الميتة من أعماق النهر، عطوة الآن لا يدرى الصلة التي تربط بين لعبته المحطمة وبين نبيلة .. لكنه يذكرهما معًا، الحق أن نبيلة أرهقته وضايقته حتى نفذ صبره، إنه لا يعرف ما يدور في رأسها الجميل، عيناها ممتلئتان برموز لا يستطيع فك طلاسمها .. آلاف الرموز لا يفهمها .. ماذا يفعل ؟؟ إنه لا يقبل الفشل، ولا يقر بالعجز أيحطم رأسها ؟؟ أيسحقها كما

يسحق عشرات المعتقلين تحت حذائه ؟ أم يقبض عليها ويعلقها على « العروسة » الخشبية ويظل يلهب جسدها الطرى بالسياط حتى تركع تحت قدميه ، وتأتى إليه مستسلمة صاغرة ؟؟

لكن لماذا يحبها هذا الحب برغم تمردها وعنادها الدنيا مليئة بالنساء الفاتنات– مختلف الأشكال والألوان– وكلهن يستجبن لنزواته وشذوذه ألا يمكنه أن ينساها كلية ، ويعتبرها كأن لم تكن ؟؟ هو فى الواقع لا يستطيع ، إنه يريدها هى بالذات ، ولو أتوا إليه بكل نساء الأرض لما أشبعن نهمه ، ولما أرضين كبرياءه وفضوله ، إنه يريدها وسيحصل عليها ، لا كزوجة ولكن كخليلة .. لقد أدرك بعد تفكير وترو أن مسألة الزواج خطأ جسيم .. إنها أشهى وألذ حرامًا .. أما اللقاء الشرعى فهو فى نظره ماسخ لا طعم له ولا رائحة ولا يثير شهيته ، وهو واثق أن نبيلة بعد تعرضها للأزمة السياسية بالأمس سوف تجعلها تلقى سلاحها فى النهاية ، وخاصة بعد أن تهدأ أعصابها ، وتعيد تقييم الموقف ، ليس هناك إنسان غيرى يستطيع حمايتها ، ورد الاطمئنان والثقة إلى نفسها ..

كان عطوة يجلس فى مكتبه بالسجن الحربى ، وعيناه ترقبان المجزرة الدائمة ، كل شىء يجرى فى دقة ونظام .. التحقيق .. التعذيب .. تسجيل الاعترافات فى الأوراق وعلى أشرطة .. استقبال المعتقلين الجدد حسبما خطط هو استقبالًا غريبًا بالسياط والركل والسب والاحتقار .. وكان سيل المعتقلين لا يتوقف عن التدفق .. ودخل أحد جنود السجن الحربى ، وأدى التحية العسكرية لم يكلف عطوة نفسه مؤنة رد التحية ، بل قال :

– « هيه ..» .

قال الجندى :

– « توسكا تعبانة يا أفندم ..» .

هبَّ عطوة من مقعده فى ذعر قائلًا :

- «ماذا تقول ؟؟ توسكا ؟؟ والله لاخرب بيتك .. منذ متى ؟؟».

قال الجندى وهو يتماسك :

- «كل الكلاب أكلوا إلا هى ..».

- «ولماذا لم تخبرنى منذ الصباح ؟ ..».

ثم اقترب منه عطوة وصفعه صفعة قوية ، فلم يتزحزح الجندى من مكانه ، بينما قال عطوة :

- «تكلم يا حمار ..».

- «يا أفندم حضرتك لم تكن موجودًا ..».

- «ولماذا لم تكلمنى فى التليفون ؟؟ ..».

- «لا أعرف الرقم ..».

- «لأنك حمار .. لِمَ لم تخبر الضابط النوبتجى .. أنت والبهائم التى كنت تعلفها فى بلدكم سواء بسواء .. توسكا برقبتك ورقبة مائة مثلك .. فاهم يا لوح ..».

قال الجندى فى حزم :

- «تمام يا أفندم ..».

وهرول عطوة خارجًا من مكتبه ، وتبعه بعض الضباط والجنود ، واستدعى طبيب الحربى على عجل ، وساد التوتر ، ووقف عطوة أمام مجموعة الكلاب المدربة التى أخذت تجرى حوله وتتمسح فيه وتلعقه بألسنتها إلا توسكا ، فقد بقيت راقدة ، وعيناها تتوسل فى ضراعة ، وأنفاسها تتلاحق ، وهتف عطوة فى خوف :

- «ماذا أصابها يا دكتور ؟؟».

وقف الطبيب يتأملها لحظة ، ثم قال :

- «لا أدرى .. يحسن استدعاء طبيب بيطرى ، فأنا لا أفهم فى الكلاب».

ونظر عطوة إلى الكلبة فى أسى ، وأخذ يمسح على جسدها بيد حانية مرتعشة ، بينما أخذت الكلبة تئن كإنسان يتوجع .. وفجأة طفرت

دمعة من عينى عطوة .. عندما رأى الطبيب ذلك اقترب منه قائلاً :
- « لا تخف يا عطوة بك .. لأول مرة أراك تبكى ..» .
قال عطوة بصوت يبحه البكاء :
- « إنها أعز لدى من أى مخلوق يا دكتور ..» .
- « لهذه الدرجة ؟؟ » .
التفت عطوة إلى الضابط النوبتجى وقال :
- « ابحثوا عن أى طبيب بيطرى فى المعتقل .. وإذا لم تجدوا فلتعتقلوا واحدًا منهم على الفور ..» .
تقدّم الأومباشى عبد المقصود من عطوة بك .. وأدى التحية وهو يقول :
- « عندنا معتقل فى سجن أربعة اسمه « حامد العجمى » يا أفندم .. إنه طبيب بيطرى ..» .
- « وماذا تنتظر يا جاموسة ؟؟ » .
- « إنه فى الحبس الانفرادى .. من الخطرين .. ويجرى معه تحقيق هام ..» .
دفعه عطوة فى صدره بلكمة قوية وقال :
- « أوقفوا التحقيق .. وهيئوا له كل سبل الراحة .. توسكا أهم عندى من أى شىء آخر ..» .
- « حاضر يا أفندم ..» .
وفى دقائق معدودة قدم « الدكتور حامد العجمى » الطبيب البيطرى المعتقل ، كان شاحب الوجه ، مطلق اللحية يرتد سروالاً قصيرًا وسترة متسخة ، والكدمات والجروح تعلو هامته وتخطط يديه ورجليه ، وكانت عيناه تبرقان بغير قليل من التوجس والقلق .
وصرخ عطوة :
- « أنت دكتور ؟؟ » .
- « بيطرى يا أفندم » .

أشار عطوة بيده إلى الكلبة ، تقدّم حامد نحوها ، سمىّ باسم الله ، ثم وضع يده على جسدها- وخاصة بطنها- ونظر إلى عينيها وأنفها ، ثم فتح فمها برفق والكلبة تستجيب له بهدوء تام ، ثم نظر حامد إلى المخلفات التى تحتها ، وقال :

- « هل أخذت قبل ذلك الطعم الواقى ضد داء الكلب ؟؟ » .

قال عطوة :

- « نعم .. بالتأكيد .. كل الكلاب أخذته أمامى ..» .

ثم استطرد عطوة بعد لحظة صمت قصيرة :

- « تكلّم .. هل عرفت مرضها .. ؟ » .

- « اطمئن يا أفندم ..» .

- « هل أحضر لك سماعة أو ترمومتر .. ؟ » .

- « لا داعى لذلك كله يا أفندم .. إنها حمى بسيطة تصيب الكلاب عادة ولن يستغرق علاجها أكثر من خمسة أيام .. أريد ورقة وقلمًا ..» .

أخرج عطوة بك قلمه « الباركر » ، وجرى أحد الجنود صوب مكتب القائد واحضر رزمة من الأوراق البيضاء ، تناولها حامد فى هدوء وكتب بيد مرتعشة بعض العقاقير الضرورية لشرائها من الخارج ، تناولها عطوة ، وكلف أحد الضباط بشرائها فى أسرع وقت ممكن .. ثم التفت عطوة إلى الطبيب المعتقل وقال :

- « لو جرى للكلبة شىء فسأقطع رقبتك ..» .

ابتسم حامد العجمى فى مرارة وقال :

- « اطمئن يا أفندم ..» .

أمسك عطوة بكتفه النحيل وقال :

- « حامد ..» .

- « نعم يا أفندم ..» .

- « أريد أن أخدمك خدمة لن تنساها طول حياتك ..» .

- «متشكر يا أفندم ..».

وانتحى به جانبًا وقال :

- «سوف أصدر أوامرى بألا يعذبك أحد بعد اليوم .. وسأخرجك من مصيبة القضية التى رميت بنفسك فيها ..».

- «والله لا قضية ولا يحزنون يا أفندم».

- «اسمعنى يا مغفل .. سوف أضمك إلى المعتقلين العاديين .. صحيح لن يفرج عنك، لكن يكفى أن تنجو من القضية وتقديمك للمحاكمة ..».

- «متشكر يا أفندم ..».

واستطرد عطوة قائلًا :

- «سوف أفرد لك زنزانة خاصة .. وستعيش الكلاب معك .. كى تشرف على طعامها وشرابها وصحتها .. وسأصرف لك غذاءً كافيًا .. هو نفس غذاء الكلاب .. لحم وأرز وخضار .. أظن أنك لم تكن تحلم بهذا الفضل كله ..».

وعاش الدكتور حامد العجمى مع الكلاب فترة طويلة، نَعِم خلالها بالطعام الطيب، وهدوء البال، والتنزه مع الكلاب فى بعض الأوقات، هذا فى الوقت الذى كان رفاقه المعتقلون وراء الأبواب المغلقة لا يكادون يرون النور إلا فى أوقات قليلة، وهمس أحد المعتقلين لزميله قائلًا :

- «يا بختك يا حامد !! ربنا أنعم عليك من حيث لا تحتسب .. عقبى لنا ..».

وحمد حامد الله بعد أن رأى توسكا قد تماثلت للشفاء ..

وكان عطوة أكثر سعادة ورضا، كان يحتضن الكلبة فى عشق ويلثمها بشفتيه فى حنان، والكلبة تهز ذيلها وكأنها تشكره على الرعاية الفائقة التى لم يحظ بمثلها أحد، وأخذ عطوة بك يناجيها ويداعبها :

– «إخص عليك يا توسكا .. لقد وقع قلبى من الخوف .. أنت تعلمين أننى أحبك يا توسكا .. وإننى على استعداد لأن أفديك بكل ما أملك .. أنت أعز لدى من أى إنسان .. أنت يا توسكا لا تقلين عن الإنسان فى شىء إن لن تتفوقى عليه .. أنت يا توسكا الوفاء والولاء والحب .. وأنت الطاعة والاستسلام التام .. عندما أراك ترقصين لى ، وتظهرين السعادة للقائى أشعر أنك أبعد نظرًا ، وأصدق حسًا وحدسًا من أى إنسان .. حتى فيما يتعلق بأمن الدولة تنهشين لحوم البشر المتمردين «الخائنين» وتمزقين أجسادهم مثلما أبغى .. بل وأكثر مما أبغى .. لو كنت مكان المسئولين لعلقت فى رقبتك رتبة لواء .. لا بل رتبة فريق .. ولماذا لا أضع لك رتبة «مشير» ؟؟ أنت أحق بهذا وأجدر ..

ويوم أن شُفيت توسكا أمر عطوة بك بأن يحتفل بهذه المناسبة احتفالاً يناسب مقامها ، فجمع عددًا من مشاهير الشعراء والكتّاب والفنانين من بين المعتقلين ، وأمرهم أيضًا أن يؤلفوا على الفور قصائد عصماء ، وكذلك طلب منهم كتابة الأغانى وتلحينها وأدائها فى الطابور ، ووعدهم بيوم أجازة من التعذيب والطوابير القاسية التى كانوا يظلون الساعات الطوال يجرون فيها ، حتى تنهار قواهم ، ويرتمون لاهثين على جنبات الساحة الواسعة الحمراء .. ساحة التحقيق أو الموت إن صح التعبير .. وعندما وقف شاعر كبير معتقل ليلقى قصيدته بالأمر لم يجد شيئًا يقوله ، وتلعثم واضطرب ، فتضايق عطوة ، واختطف سوطًا من أحد الجنود ، ثم هوى به على رأس الشاعر قائلاً :

– «إشعر يا ابن الكلب .. لقد كتبت مئات الأبيات ضدى وضد الحكومة .. أنا أعرف ذلك .. ألم تقل عنا :

متبلدون ، عقولهم بأكفهم
وأكفهم للشر ذات حنين ؟؟

والآن ترفض أن تتغنى بشفاء توسكا ، أقسم بشرفى إذا لم تقل شعرًا فى توسكا ، فلسوف ألفق لك قضية ، وأقدمك للمحاكمة ولماذا ملفقة ؟؟ القصيدة التى كتبتها والتى تقول فيها .. تقول .. لا أذكر ..» .

ثم التفت إلى أحد الضباط وقال :

– «ماذا قال هذا الشاعر يا حضرة الضابط ؟ .. أنت تعرف ما قال ..» .

تنحنح الضابط وقال :

فــى لــيــلــة لــيــلاء مــن نــوفــمــبــر
فــزعــت مــن نــومــى بــصــوت رنــيــن
وإذا كــلاب الــصــيــد تــهــجــم بــغــتــة
وتــحــوطــنــى عــن شــمــال ويــمــيــن

قهقه عطوة قائلًا :

– «حلوة شمال هذه !! اسمع .. إذا لم تقل شعرًا الآن فسأمزق جسدك بالسياط ..» .

قال الشاعر المعتقل :

– «يا أفندم الشعر يحتاج إلى وقت ..» .
– «وحياة أمك ؟؟ أتسخر منى ؟؟» .
– «ويحتاج لورقة وقلم وهدوء ..» .
– «قلت لك ألف شعرًا فى توسكا .. وإذا فعلت كافأتك ..» .

قال الجندى أمين المعروف بقسوته وغلظته وعمى قلبه :

– «يعنى عندك البضاعة والناس جواعة ؟؟ إنطق يا بهيم ..» .

وتذكر الشاعر المسكين قصيدة شهيرة لأمير الشعراء شوقى فى مصرع كليوباترا تلك المسرحية الشهيرة ، وكانت القصيدة قد قيلت فى وداع روما ، فحاول الشاعر أن يغير بعض ألفاظها ، ويدس فيها اسم توسكا ، فهز رأسه وقال :

– «حاضر .. سأقول ..» .

فصفق عطوة بيده فى طرب ، وصاح بأعلى صوته فى المعتقلين المتراصين فى صفوف كثيرة : «صفقوا له .. شجعوه .. الكل يصفق ..» .

وهدر المعتقلون بالتصفيق الحاد ، وارتفع صوت أحد المعتقلين فجأة بهتاف كالرعد : «عاشت توسكا ..» .

وضجَّ المكان الواسع بالهتاف «عاشت توسكا» ، وعاد الهاتف الساخر يقول :

– «توسكا توسكا .. عاشت توسكا ..» .

وظل هذا المكان يضجُّ بالهتاف المنغم الصاخب ، وعطوة يهز رأسه فى سعادة ونشوو لا مثيل لهما ، وقهقه وهو يقول :

– «والله إن هذه الهتافات لأقوى ألف مرة من الهتافات التى تصدر عن الجماهير المحتشدة فى ساحة «عابدين» عندما يطل عليهم الرئيس ، كم أنت عزيزة علينا يا توسكا ..» .

وساد الصمت من جديد .. وانبرى الشاعر المسكين يصرخ فى حماس وصوته مندى بالبكاء والانفعال :

توسكا حنانك واغفرى لفتاك
أواه منك وآه ما أقساك
توسكا سلام من شريد تائه
فى الأرض وطن نفسه لهلاك
العاشقات قلوبهن رفيقة
ما بال قلبك لم يلن لفتاك
أنيابك الحمراء تنزف قسوة
وبرغمنا لابد أن نهواك

لا ذنب منك حبيبتي ورفيقتي
الذنب ذنب الوغد من رباك

بطبيعة الحال لم يفهم عطوة بك كلمة مما يقال، كانت تطربه الموسيقى والقافية المكونة من الكاف المكسورة، وهي لها رنين أخاذ يبعث على الطرب وكذلك الجنود والضباط الذين لم يكترثوا لما يقال، وإنما ارتسمت على وجوههم ابتسامة بلهاء لطرافة الموقف، ولابتهاج قائدهم الذي أخذ يصفق في حرارة، ورفع عطوة بك توسكا بين يديه فوق رأسه وهتف هو الآخر :

– «توسكا توسكا .. عاشت توسكا ..».

وردّ المعتقلون والضباط والجنود الهتاف بصوت راعد وهم يلوحون بأيديهم في حماس .. مال أحد لضباط على أذن رفيقه قائلاً :

– «البك شرب زيادة اليوم ..».

– «أعرف .. رأيته بنفسي في المكتب يتناول الكأس تلو الكأس ..».

– «هيه .. لن يأخذ أحد من الدنيا شيئًا ..».

وضحك الضابط الصديق وهمس :

– «لا .. سيأخذ قطعة قطن ..».

وانفجرا ضاحكين، خلف ظهر عطوة بك، الذي قال بعد أن ساد الصمت :

– «انتباه ..».

ووقف الجميع «انتباه» .. الضباط والجنود والمعتقلون والكلاب أيضًا، وقال عطوة بك في إيجاز :

– «يُسمح لجميع المعتقلين بالفسحة في الحوش .. وفي دورة المياة لمدة ساعتين .. ولا مانع من أن يستحموا .. ويغسلوا ملابسهم، ويوزع على كل معتقل قطعة صابون ..».

وصاح أحد المعتقلين :
– « ودورة المياة يا سعادة البك ..» .
وكانت دورة المياة لا تفتح عادة إلا لوقت قصير ، وغير مسموح لأى معتقل أن يبقى داخل المرحاض أكثر من دقيقتين أو ثلاث ، وكان هذا الأمر من الموضوعات الشائكة التى تسبب كثيرًا من المتاعب والمضايقات للمعتقلين ، وخاصة المصابين منهم بحالة إمساك مزمن وما أكثرهم ، ولقد لقى هذا الاقتراح تأييدًا مطلقًا ، وحماسًا شديدًا بين الجموع ، فابتسم عطوة بك وقال :
– « وتفتح دورة المياة أيضًا .. لكن بشرط ..» .
وعاد الصمت من جديد ، وأخذ عطوة بك يتجول بين الصفوف ويقول :
– « لا أريد أن أسمع صوتًا .. أى ضجة أو فوضى سوف تجعلنى ألغى هذه الميزات كلها .. أنتم تعرفون من أنا .. مفهوم ؟؟ » .
وهدر المعتقلون بصوت واحد مرتفع :
– « تمام يا أفندم ..» .
وساد الصمت من جديد ، وعاد عطوة بك يقول :
– « أين فرقة الغناء لنختتم الحفل ؟؟ » .
وتقدَّم مجموعة من المعتقلين ، كانوا حليقى الرؤوس كالعادة ، الشحوب يكلل هاماتهم ، والعيون السوداء الصافية الصابرة تبتسم ابتسامات ذات معنى عميق ، هى السخرية أقرب منها إلى الاحتقار ، وتراص فريق المغنين ، وكانت آلاتهم الموسيقية عبارة عن «سلطانية » أو «قروانة » من الزنك ، يستعملونها فى استلام الطعام ، وأكواب زجاجية بداخلها حصوة أو ملعقة ، وذلك لإصدار أصوات موسيقية وقد استعملت القروانات كطبلة ، هذا بالإضافة إلى الأصوات التى ستصدر عن الفم والتصفيق ، وأخذ قائد الجوقة يغنى ويقول :
تـوسـكـا يـا تـوسـكـا يـا حـبـة عـينى

يـالـلـى سـرقـتـى الـنـوم مـن عـينى
خـيـر إن شـاء الـلـه
دا بُـعـدك والـلـه
والـلـه دا بُـعـدك
دا بُـعـدك والـلـه
كـان عـلـى عـينى
كـان عـلـى عـينى

وأخذ الحماس عطوة بك ، فنحى توسكا جانبًا وأخذ يرقص على الأنغام فى متعة، وازداد التصفيق وترديد الغناء، ولم يستطع المعتقلون أن يكتموا ضحكاتهم .. بينما مال أحد الضباط على صديق له قائلًا :

– «البك زودها .. ربنا يستر ..» .

وصاح عطوة بك فجأة :

– «كل السجن ثابت ..» .

توقف الغناء .. وران الصمت .. ونظر الجميع بعيون خائفة صوب الأراجوز الذى كان يتراقص منذ لحظات .. وانتظروا الأوامر ، تُرى هل تراجع عن وعده ؟؟ وعاد عطوة بك يقول :

– «أنتم أوباش .. قليلو الأدب .. كل كلب إلى زنزانته» .

وفى لحظات كانت السياط تلهب الظهور ، بما فيهم الشاعر الكبير وجوقة الغناء والموسيقى ، وفى لحظات أقفرت الساحة إلا من عطوة بك ورجاله وكلابه ، وأغلقت أبواب الزنازين ، وجلس الشاعر يوسف فى ركن زنزانته ساهمًا ، قال له المعتقل السودانى رزق إبراهيم :

– «فيم تفكر يا صاحب القصيدة العصماء ؟؟» .

هز الشاعر يوسف رأسه قائلًا :

– «نيرون يغنى .. وروما تحترق ..» .

أدرك رزق ما يعنيه أخوه فى الله من ألم ممض فقال مداعبًا :

- «فى مصر أمير الشعراء شوقى، وشاعر النيل حافظ، وشاعر الشباب رامى، والشاعر البدوى الصميم عبد المطلب، وفى لبنان شاعر القطرين مطران خليل مطران .. فى الحربى شاعر توسكا الشيخ يوسف ..» .

وضجَّ الجميع بالضحك .. حتى يوسف نفسه .. وعاد يوسف يقول :

- « إن ملحمتى التى كتبتها عن محنتنا فى الحربى ستكون يومًا ما على كل لسان فى العالم العربى .. لدىَّ يقين أننا سنخرج .. وسيعرف الناس الحقيقة .. إن الرئيس له وجهان .. وجه نعرفه نحن ونقاسى منه، وهو الوجه الحقيقى المعبر عن شخصيته وفلسفته .. ووجه آخر يعرفه به الناس حينما يخطب الخطب الحماسية ويسب زعماء العالم وأعراضهم ويهتف بالحرية .. الحرية لمين ؟؟ لقد خبرنا بأنفسنا الحرية التى يريدها .. حرية المتسلطين والكلاب التى تنهشنا .. الحرية التى ترغمك حتى على الإبداع .. فتقول الشعر بالأمر .. وتغنى بالأمر .. لقد قلت الشعر من أجلكم .. خفت أن يصب عليكم غضبه وسخطه بسببى فقلت أى شىء ..» .

قال الأخ عبد الحميد النجار الفلسطينى :

- «معقول أن يغنى نيرون وروما تحترق .. أما أن يغنى أبناء روما والنار تأكل أجسادهم وبيوتهم فهذا هو الغريب ..» .

وهز الشاعر يوسف رأسه وقال :

- «كلام عميق ..» .

وتنهد يوسف وقال :

- «تعالوا نقرأ مأثورات رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ..» .

وكانت المأثورات عبارة عن مجموعة من الأدعية والابتهالات الواردة عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ومتضمنة لبعض آيات القرآن وبعض السور القرآنية مثل سورة الرحمن والواقعة وسورة يس

وقصار السور، وسمّى يوسف باسم الله، وانطلق السبعة الجالسون فى الزنزانة يقرأون بصوت هامس يرطبه الحنين والطاعة والرضا بقضاء الله وقدره، وتنسكب بعض الدموع، والرؤوس تتطوح فى حركات محسوبة، والقلوب معلقة بالسماء، والعقول تسجد لدى أعتاب الله الملك الحى القيوم الذى لا ينام، وأريج مقدّس يضوع فى جناب المكان وفى الأرواح .. وبعد ساعة انتهت هذه الجلسة الروحية العذبة، وتمتم يوسف، وقد أشرق وجهه بالفرحة الصادقة :

– « نحن فى رحلة إلى الله ..» .

الطريق شاق طويل، والذكريات مريرة والأحداث صاخبة رهيبة، ورجال يُعلقون على أعواد المشانق، وأرواح تزهق دون اكتراث خلف الأسوار والأسلاك الشائكة لا يعلم عنهم أحد شيئًا فى العالم الكبير، والليالى السوداء والحمراء تمر بطيئة متثاقلة يلفعها الرعب والهوان، والفارس الأسطورى يحارب الأعداء بالكلمات والشعارات، ويزج بالأبرياء من أبناء الأمة فى معارك عشوائية خاسرة .. ويموت عشرات الألوف فى الخارج .. فى السجن الكبير .. ويتوارى الشرفاء والعباقرة .. وتخرج الثعابين من جحورها لتعزف أغنية الموت، وتعوى الذئاب فى جنبات الوادى الأخضر جائعة مسعورة .. تسرق الكروم، وتخنق الأطفال، وتحيل جنة الله فى أرضه إلى غابة يسودها قانون الوحوش .. وتمتم الشاعر يوسف :

– « إذا أحب الله عبدًا ابتلاه ..» .



الفصل ١١

مضت أيام ومحمود صقر نزيل «الشفاخانة» – هكذا يسمون المستشفى في السجن الحربى، وكان المعتقلون فى البداية يضحكون لهذه الكلمة، إذ أنها خارج السجن تطلق على المكان الذى يعالج فيه الفلاحون حميرهم، وبمرور الوقت أصبحت كلمة «الشفاخانة» مألوفة تمامًا لديهم وكانت هناك طوابير يومية للمعتقلين، لم تكن للرياضة وتعليم النظام، وإنما كانت للانتقام، إذ يجرى المعتقلون ما يقرب من أربع ساعات جريًا سريعًا، أو كما يقولون فى الجيش «سريعًا مارش»، ليس هذا فقط بل إن الجنود يقفون بالسياط حول مسار الطابور، ويلهبون الظهور والرؤوس بل والوجوه أيضًا بسياطهم مما أفقد بعض المعتقلين عيونهم، وكان لابد أن يسقط البعض إعياءً على جانبى الطريق وهم يلهثون، وبعضهم يقع مغشيًا عليه، فينزلون فوقهم بالسياط كى يقفوا ويستمروا فى الجرى، لكن أغلبهم يستسلم للسياط بسبب عدم القدرة نهائيًا على مواصلة المشوار الطويل، أما كبار السن والعجزة وذوو العاهات والمصابون بالفالج والعميان، فكان يشكل لهم طابور خاص يطلق عليه «طابور الشفاخانة»، ولم يكن من الضرورى أن يكون هؤلاء المرضى نزلاء فى المستشفى، وكان عدد المسجلين فى طابور الشفاخانة يزداد يومًا بعد يوم، وفى أحد المرات كان عطوة بك يتجول فى أنحاء السجن الحربى، ويتفقد رعايا مملكته التعسة، فرأى طابور «سريعًا مارش» لكنه وجد «طابور الشفاخانة» يسير فى بطء، فوقف فجأة وصاح بأعلى صوته :

– «من هؤلاء ؟؟».

فردّ الصول ياسين :

– «طابور الشفاخانة يا أفندم» .

– «كل هؤلاء شفاخانة ؟؟» .

– «نعم يا أفندم» .

– «كلام فارغ .. الجميع طابور واحد .. (سريعًا مارش) » .

وسرعان ما انتقل إليهم حضرة الصول بكرباجه ، وأخذ يقول :

– «سريعًا مارش يا ابن الكلب أنت وهو ..» .

وما هى إلا لحظات حتى انضموا لطابور الأصحاء ، وكان مشهدًا مبكيًا ، إن مرضى القلب والضغط والشلل وذوى العاهات يحاولون الجرى .. تلهبهم السياط ، وبعضهم يسقط أو ينكفىء ، وامتلأ المسار بالضحايا العاجزين عن مواصلة الرحلة الشاقة ، وبعضهم أصيب بنوبة قلبية ، وواحد لفظ أنفاسه الأخيرة ، كان ينظر بعين دامعة إلى السماء ، وصدره يعلو ويهبط ، ويحاول أن يقول «يا رب» ، وآخر أخذ يتقيأ دمًا .. وكان منظرهم وهم يهرولون وقد ارتدوا معاطفهم أو جلابيبهم البلدية وعمائمهم يوحى بالأسى والحزن .. وكان الطبيب يقف إلى جوار عطوة بك واضعًا يده اليمنى فى جيب سرواله دون أن ينطق ببنت شفة ، والتفت إليه عطوة بك ضاحكًا وهو يقول :

– « ألم أقل لك إنهم بسبعة أرواح مثل القطط ؟؟» .

قال الطبيب :

– «هذا يشكّل خطرًا كبيرًا بالنسبة لحياة بعضهم ، فالقلوب المصابة بالذبحة الصدرية أو الجلطة لا تتحمل هذا الجهد ..» .

ردّ عطوة بك ساخرًا :

– «ولماذا تحملت قلوبهم الانضمام للأجهزة السرية ، والاستعداد للتضحية بأرواحهم فى سبيل الله ؟؟ هذا هو سبيل الله .. فليستشهدوا ..» .

قال الطبيب :

– « أغلبهم مجرد معتقلين مشتبه فى أمرهم وإلا لكانوا قد قدموا للمحاكمة ..» .

– « لا فرق بينهم يا دكتور .. كلهم إخوانجية أولاد صرمة » .

– « من الناحية الإنسانية يجب أن ..» .

قاطعه عطوة بك قائلًا :

– « لا تتكلم عن الناحية الإنسانية وحياة والدك .. إنهم حيوانات .. هيا بنا إلى الشفاخانة لنمر على المرضى هناك .. أخاف أن تكون إنسانيتك تجعلك تبقى فيها من لا يستحقون ..» .

ومضى عطوة صوب المستشفى ، وتبعه الطبيب صامتًا ..

عندما دلف عطوة بك للعنبر الأول تجول بنظراته متفحصًا الوجوه .. واقترب من أحد النزلاء ، ثم دقق فيه وهتف :

– « من ؟؟ محمود صقر ؟؟ الله يخرب بيتك .. صرت مثل الحصان أنتم شياطين .. وتأكل أيضًا بشهية ؟؟ يا بختك يا أخى ..» .

نظر إليه محمود بعينيه الصافيتين ، كان عاريًا إلا من سروال قصير حتى لا تلتصق الملابس بالجروح ، وعدد كبير من الجروح قد التئم ، الميكروكروم الأحمر المطهر يغطى كل جسده ، وتوقف محمود لحظة عن المضغ ، وظل محملقًا فى عطوة بك لحظات ، ثم أخذ يلوك الخبز والجبن ببطء فى فمه ، كانت التورمات فى وجهه قد خفت إلى حد كبير ، ومن ثم اتضحت ملامح وجهه ، وقال الطبيب هامسًا فى أذن عطوة بك :

– « لقد نجا بأعجوبة .. نصف ما تعرض له كان كافيًا لأن يودى بحياته ..» .

قال عطوة :

– « لا تخف عليهم يا دكتور .. عمر الشقى بقى ..» .

ثم اقترب عطوة منه أكثر وقال :

– « على الله تكون عقلت يا محمود يا صقر ..» .

لم يرد محمود ، وإن توقف عن الأكل ، ووضع الجزء الباقى من الرغيف وفوقه قطعة الجبن الصغيرة إلى جواره فى هدوء ، وأحنى رأسه ، واستطرد عطوة يقول :

– « أعتقد أنك الآن قد شفيت ، ويمكننا مواصلة التحقيق .. أليس كذلك يا دكتور ؟؟ » .

دق قلب محمود إشفاقًا ، هو يعلم معنى كلمة التحقيق ، إنها السياط والحرق بالنار والركلات والصفعات وسيل السباب والشتائم البذيئة والادعاءات الكاذبة التى لا أصل لها ، ليته مات منذ البداية ، إن العناء الذى يتعرض له يبدو أنه لا نهاية له ، من أين نبتت فكرة حيازته للسلاح فى ذهن عطوة بك ، إنه لا يملك سلاحًا ، وزملاؤه فى القضية لم يذكروا شيئًا عن ذلك ، وكل الشواهد والقرائن تبرىء ساحته من هذه التهمة « يا ويل البرىء الذى يدخل السجن الحربى » ..

نعم صدق محمود فيما يقول لأن المتهم عنده ما يقوله من الاعترافات ، ومن ثم يستطيع أن يضع حدًا للعذاب القاسى الذى يتعرض له ، ولا بأس بعد ذلك أن يقدم للمحاكمة ويحكم عليه بالموت أو السجن ، المهم أن يكون لهذا الإرهاب الدموى نهاية حتى ولو كانت الموت ، لكن البرىء ماذا يقول ؟؟ أيخترع القصص ، ويؤلف الجرائم ثم ينسبها إلى نفسه زورًا وبهتانًا ؟؟

قال الطبيب بعد فترة صمت :

– « إن جلد قدميه منزوع تمامًا بسبب الضرب والجروح ، ومن المستحيل أن يمشى على قدميه ..» .

قال عطوة باستهتار :

– « بسيطة .. نستطيع أن نحمله على محفة إلى مكاتب التحقيق ..» .

رد الطبيب هامسًا فى أذن عطوة :

– « إن أية إصابات جديدة سوف تقضى عليه » .

– « وماذا فى ذلك ؟؟ لن تخرب الدنيا بعده .. كلب وخفى ..» .

– «يا عطوة بك قضيته لا تستحق ذلك كله .. إنها غير ذات موضوع ..» .

ابتسم عطوة وقال :

– « أنت طبيب أم محام ؟؟ » .

– « أنت تعرف ..» .

– « ولماذا لا يعترف ويخلص نفسه ؟؟ » .

كانت الشمس تغمر المكان برغم صغر النوافذ والقضبان المتشابكة التى تغطيها ، وتذكر محمود رحمة الله وفضله عليه ، لقد جاء إلى المستشفى وهو فى أمسّ الحاجة إلى بعض المضادات الحيوية وإلا فتكت الميكروبات وسمومها بجسده ، واعتذر الطبيب لعدم وجود أية حقنة بنسلين وهى أبسط الأشياء ، بل لم يجد قرصًا واحدًا من أقراص السلفاديازين ، وذات يوم فوجىء محمود بالتومرجى يحضر له عشرة حقن بنسلين ستربتوميسين ، وغمغم محمود لحظتئذ :

– « من أين ؟؟ » .

– « اسكت ولا تسأل » .

– « اشتراها لك إخوانك فى السجن الكبير عندما علموا بالأمر .. اشتروا لك ولغيرك .. أحضرت مائة حقنة ، أتدرى كم ثمنها ؟؟ » .

– «كم ؟؟ » .

– «مائة جنيه ..» .

– « وكيف استطاعوا أن ..» .

– «لا تسأل قلت .. اشتروها من الخارج .. لقد كلفتهم كثيرًا .. الحقنة التى ثمنها أربعة قروش دفعوا فيها جنيهًا ..» .

– «لكن ليس مع أحد من المعتقلين نقود ..» .

قال التومرجى فى ضيق :

– « إتعالج وانت ساكت .. هل تجرى معى تحقيقًا ؟؟ » .

وتذكر محمود الليالى التى عانى فيها من الحمى والهذيان والأحلام المختلفة بل إن أذنيه التقطتا ذات مساء صوتًا إلى جواره يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون .. أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .. أديروه صوب القبلة .. وتشهدوا عليه جميعًا ..» لكنه لم يمت ، ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها .. ألا يفكر عطوة بك ورؤساؤه العظام أنهم سوف يموتون يومًا ما ، وسيتركون هذه الدنيا بكل ما فيها من سلطان ومجد ومال ؟؟

وأفاق محمود من أحلامه ، كان الطبيب يقف ساهمًا ، وعطوة بك يفكر فيما قاله الطبيب ، وغمغم عطوة بك :

– «فى القصر الجمهورى يظنون أن محمودًا يخفى شيئًا هامًا ..» .

قال الطبيب :

– « الظن شىء .. والحقيقة شىء آخر ..» .

– « وماذا أفعل ؟؟ » .

– «تستطيع أن تقنع المسئولين الكبار بوجهة نظرك ، أنت هنا على بينة من الأمر أكثر منهم ..» .

– «لا وزن لرأيى .. إن ظنهم فوق يقيننا .. ولا عبرة بما نقول ..» .

وخطا عطوة خطوات بعيدًا عن مكان محمود وإلى جواره الطبيب ، واستطرد عطوة يقول :

– « لا حيلة لى فى الأمر .. إما أن يعترف بالسلاح ويدل عليه أو يموت حتى يصبح السلاح بلا يد تشغله ..» .

– « وإذا لم يكن لديه سلاح يا عطوة بك » .

هز عطوة كتفيه دون اكتراث وقال :

– «لن نخسر شيئًا ..» .

– «بل سنخسر روحًا ..» .

– «وماذا فى ذلك .. مجرد ذرة فى محيط .. حبة رمل فى كون هائل من التلال الرملية .. لن يختل نظام الكون إذا مات محمود يا دكتور ..» .

– «قتل النفس بغير حق جريمة ..» .

– «الحق هو ما يقرره أصحاب السلطة لا نحن .. هم أدرى بأمن الدولة يا دكتور لا تجعلنى أغضب وأضعك فى زنزانة أنت الآخر .. أو على الأقل أطلب نقلك ..» .

وعلى الرغم من الطبيب وجد نفسه يقول :

– «يا ليت !!» .

ثم التفت إليه عطوة كمن تذكر أمرًا هامًا وقال :

– «أنسيت أنك اقترحت أثناء تعذيبه الإبقاء على حياته ، حتى نستفيد منه مستقبلاً ، ولعله يعترف إذا ما بدأنا معه نفس الإجراءات بعد شفائه ؟؟» .

– «لم أنس يا عطوة بك ..» .

– «ماذا إذن ؟؟» .

– «لقد فكرت طويلاً ..» .

– «فيم ؟؟» .

– «أعنى أنه ليس هناك إنسان يضحى بحياته كى يخفى قطعًا من السلاح .. إن التعذيب العاتى الذى تعرض له كان كفيلاً بأن يجعله يخرج كل ما فى جعبته من أسرار .. ولهذا أعتقد أن كل من ماتوا هنا لم يكن لديهم جديد ليقولوه ..» .

وهرول أحد الجنود صوب عطوة بك ، ودقّ الأرض بقدمه وأدى التحية وهو يقول :

– «تليفون يا أفندم ..» .

كان عطوة بك ينتظر مثل هذا التليفون الهام ، ولهذا أسرع خارجًا ،

ونسى وراءه محمودًا ، ونسى الطبيب الذى تنهد فى ارتياح ، وعاد الطبيب صوب محمود وأخذ ينظر إلى وجهه الشاحب وعينيه الصافيتين ، وتمتم :

– «كيف حالك ؟؟» .

– « الحمد لله .. أشكرك يا دكتور ..» .

– « على ماذا ؟؟ » .

قال محمود والدموع تبلل أهدابه الطويلة :

– «سمعت طرفًا من الحديث، وما لم أسمعه استطعت أن أفهمه ..» .

قال الطبيب فى جد وهو يرسم على وجهه علامات البرود القاس :

– « ماذا سمعت ؟؟ » .

دار محمود بنظراته الشاردة داخل العنبر وقال :

– « كان جدى – رحمه الله – من المتصوفين ، وكان يردد أبياتًا من الشعر الصوفى فى حب الله والوجد والفانى فى العبادة الذكر ، سمعته مرة يقول :

قلوب العاشقين لها عيون
ترى ما لا يراه الناظرونا
وأجنحة تطير بغير ريش
إلى ملكوت رب العالمينا

ووضع الطبيب يده برقة وحنان على كتف محمود وقال :

– «محمود .. أنت شاب ، ولو سجنت عامًا أو أعوامًا فسوف تخرج إلى الحياة عاجلًا أو آجلًا .. ولهذا من الضرورى أن تبقى على حياتك ..» .

قال محمود :

– « ماذا تقصد يا دكتور ؟ » .

- «لو كنت تعرف شيئًا عن السلاح فلتبادر بالإرشاد عنه ثمنًا لحياتك ..».

نظر إليه محمود بعينيه الصافيتين ؟ قال :

- « أنت تعرف الحقيقة » .

- « لكنهم لن يصدقوك يا ابنى » .

- « وماذا أفعل ؟؟ » .

هز الطبيب رأسه فى حيرة وأسف ولوى شفتيه قائلًا :

- « لا أدرى ..» .

- «لو كنت مكانى ماذا تفعل يا دكتور ؟؟ أقسم لك لو كان فى استطاعتى أن أخرج وأشترى سلاحًا ، ثم أخبئه فى مكان ما ، لفعلت كى أعترف عليه وأرشدهم إليه حتى يكفوا عن تعذيبى .. لكن ما حيلتى ..» .

كاد الطبيب أن يبكى لكنه تماسك ، وعض على شفته السفلى فى عصبية ، ثم رفع يده عن كتف محمود ، ومسح بها على رأسه العارى ، وغمغم وهو ينصرف خارجًا :

- « ربنا معك ..» .

أمسك عطوة بك بسماعة التليفون فى توتر وهتف :

« ألو .. نعم .. مفهوم .. فى الإسكندرية تقول ؟؟ فى أى فندق ؟؟ فندق مصر ؟؟ .. آه .. فى أى داهية هذا الفندق ؟؟ .. متأكد ؟ طيب طيب .. بلغ سلامى لعبد المجيد بك .. أشكره كثيرًا .. اسمع .. خد بالك .. راقب الفندق بدقة .. سامع ؟! مع السلامة .. لا تتحرك حتى أحضر بنفسى .. آه

بنفسى .. باى باى يا جميل ..» .

وضع عطوة بك السماعة ، كان منفعلًا ، لكنه كان سعيدًا ، أخذ يجفف العرق المنهمر على جبينه الأشقر ، ثم أشعل سيجارة وأخذ يجذب أنفاسها فى تلذذ وغرور ، وأخرج زجاجة ويسكى من درج

المكتب، وصبَّ لنفسه كأسًا جرعها دفعة واحدة، وسمع أحد ضباط المباحث من خلفه يقول:

- «من يشرب وحده يـ ..».

قاطعه عطوة قائلًا:

- «تعال اطفح .. أعرفك .. دنيء .. وشحاذ .. وابن كلب ..».

واختلطت الضحكات المسعورة ..

لقد عرف عطوة كل شيء عن «نبيلة»، فعن طريق عيونه وجواسيسه استطاع أن يعلم أنها سافرت إلى الإسكندرية، وحطت رحالها في مكان مجهول، الخبيثة أرادت أن تهرب منه، إن قلبه يؤكد له ذلك، كما علم أيضًا أن الطبيب المعالج أشار بالاستجمام لفترة نقاهة لا تقل عن أسبوعين، إن له مع هذا الطبيب حسابًا عسيرًا فيما بعد .. وعن طريق الاتصال بأصدقائه من رجال المخابرات في الإسكندرية أمكنه أن يدبر الأمر معهم، وكانت المشكلة سهلة بالنسبة لهم، مجرد أمر بسيط بتكليف كل صاحب فندق أم بنسيون بالإبلاغ عمن نزلوا عنده .. وهكذا لم يستغرق الأمر يومين أو ثلاثة ووضع يده على المكان الذي ينزل فيه «الغزال الشارد» على حد قوله .. وقرر عطوة أن يسافر فجر الغد في قطار الصحافة .. ثم عدل عن ذلك وقرر أن يسافر في سيارته الخاصة التي أهدتها له السلطات العليا تقديرًا لخدماته، وتعبيرًا عن الشكر لوفائه والتزامه، وعزم على أن يقودها بنفسه، وبذلك تكون نبيلة إلى جواره عندما يتنزهان في النهار، وعندما يقضيان سهرتاهما الشائقة في الملاهي ودور السينما ..

وفتل شاربه الأصفر وهو يقول:

- «أنا عطوة والأجر على الله .. أنا وراءك والزمان طويل ..».

استدعى عطوة بك نائبه قائلًا:

- «اسمع لن أحضر للعمل غدًا .. أوصيكم بالكلاب .. لو خدش واحد منهم أو مرض فلن أرحم أحدًا ..».

قال نائبه :

– « والتحقيقات ؟؟ » .

– « تستمر كما هى ، ولا يغلق أى محضر حتى أعود ..» .

– « وباقى المعتقلين ؟؟ » .

– « أغلقوا عليهم أبواب الزنازين طوال اليوم ..» .

– « ألا يخرجون لدورات المياه والمراحيض ..» .

– « كلامى واضح .. لا خروج من الزنازين .. ولن يحدث للمعتقلين شيء إذا اعتكفوا نصف يوم فى حجراتهم ..» .

واستطرد ساخرًا :

– « وهم يعشقون الاعتكاف ليعبدوا الله ..» .

وخرج عطوة إلى الساحة الحمراء ، نفس المشهد الذى لم يتغير منذ زمن طويل اللهم إلا تغيير الأشخاص ، إنه لا يكاد يرى شيئًا ، فخياله ينطلق إلى بعيد حيث الثغر الوادع ، وماء البحر الأزرق ، وشارع كورنيش الإسكندرية الجميل ، والليالى الحمراء تحت الأضواء الخافتة الدافئة .. إنها أروع بكثير من الشاطىء والمناظر الطبيعية .. وشعر بقدر غير قليل من الارتياح والثقة بالنفس ، وثقته بنفسه مستمدة من الإمكانيات الواسعة المسخرة له ، لقد استطاع معرفة مكانها ، وسوف يفاجئها هناك ، سيحاصرها بسلطانه ونظراته وذراعيه ، وسيعتصرها اعتصارًا ، ولو استطاع أن يلتهمها لالتهمها كما تفعل بعض القبائل فى المناطق البدائية المتخلفة ، لو لم يكن مصريًا لكان واحدًا من أكلة لحوم البشر ، لا شك أن هؤلاء الناس لا يعانون من أية عقدة .. قد يسيرون عراة .. وقد يأكلون لحوم البشر .. ويفعلون ما يحلو لهم .. أية سعادة تلك .. ذات مرة أرى جنديًا يعذب معتقلًا .. نعم هو يذكر ذلك تمامًا .. لم يكتف الجندى بالسوط الذى فى يمينه ورأى عطوة مشهدًا غريبًا .. لقد انقض الجندى على أذن المعتقل طالب الطب « محمود الشاوى » ونهشها بأسنانه .. وسعد

عطوة يومها أيما سعادة، وأعجب بالجندى إعجابًا شديدًا، فأسرع إليه وقدم له مكافأة خمسين قرشًا، وأمر بأن يرقى إلى رتبة أعلى، لقد أضاف إلى ذراعه شريطًا .. وفى اليوم التالى تحول عدد كبير من الجنود إلى «عضاضين»، وكانت نكتة طريفة ضحك لها عطوة ورفاقه وأخيرًا وضع حدًا لهذا التصرف بقوله :

– «إنكم أيها العساكر تجترئون على حق كلابى .. الكلاب وحدها هى المسموح لها بالعض لأنكم لا تتقنون هذا الفن مثلهم أو تتلذذون به».

وعاد عطوة فى المساء ليعد العدة للرحيل إلى الإسكندرية ..

الفصل ١٢

كانت نبيلة تجلس فى غرفتها بالفندق، والهدوء يغمر نفسها، لقد نامت نومًا عميقًا وأدت صلاتها قبل أن تشرق الشمس، ثم تناولت إفطارها البسيط المكون من الفول والجبن وكوب الشاى الممزوج باللبن، إن الأيام الماضية مرت وادعة، لا يعكر صفوها معكر، ولم تتعرض لأى انفعال طاغ اللهم إلا فى اليوم الأول عندما سطرت رسالة بكل ما جرى لرئيس الدولة، وانتهت رسالتها بقولها :

« إن هذا لا يمكن أعنى لا يصح أن يحدث فى عهدك أنت .. يا من ثُرت على الطغيان، وأنهيت حكم الملكية الفاسدة، وخطوت خطوات واسعة نحو العدل الاجتماعى الذى ينشده الجميع، فكيف يتفق هذا مع اغتصاب الأبرياء، والقسوة على أبناء الشعب دون مبرر معقول، ونحن جميعًا إخوتك وأخواتك، وأبناؤك وبناتك، وإذا كان البعض يحلوا له أن يبالغ فى إجراءات القمع باسم الحفاظ على أمن الدولة، وحماية أرواح المسئولين، فإنى أعتقد أنك لن ترضى بمثل هذه التصرفات التى لن تخلف وراءها سوى الحقد والخوف والسلبية، وقهر المواهب، وكبت الآراء الحرة، ما دام مجرد الرأى أو النقد البنّاء سوف يعرض صاحبه للانتقام أو السجن أو الفصل من العمل .. وأخيرًا لك يا سيادة الرئيس كل حب وتقدير، ودعاء من الأعماق بأن يوفقك الله لما يحب ويرضى ..» .

وأطلت نبيلة من النافذة الشرقية حيث تتألق الشمس فتشع الدفء والبهجة، كانت سعيدة بهذا الجمال الذى يحيط بها، وبالهدوء الذى يسود المكان، أين هذا من تلك الزنزانة المظلمة فى قلب المخابرات العامة ؟؟ ووثبت إلى ذهنها صورة المرأة التعسة التى تطفر الدموع

من عينيها ، ويمتلىء وجهها الأبيض الشاحب بالكدمات والخدوش «مسكينة سلوى !!» ترى ما مصيرها الآن ؟؟ ليتها كتبت طرفًا من قصتها إلى الرئيس ..» .

وبدا على وجهها طائف من الحزن ارتسم على ملامحها ونظراتها ، وتنهدت فى حسرة ، وحاولت أن تنسى فاختطفت جريدة الصباح .. صورة الرئيس كالعادة على الصفحة الأولى ، العناوين « أو المانشتات » الحمراء ترفع الشعارات الرنانة .. ومزيد من القرارات ضد الإقطاع والرأسمالية المستغلة والرجعية المتآمرة مع الاستعمار والصهيونية ، وبرقيات التأييد التى تتدفق بمناسبة وبغير مناسبة ، والمحاكمات المستعمرة وصورة المتهمين وهم حليقو الرؤوس والاعترافات ، ومقالات عن السخط الشعبى الصاخب إزاء المؤامرات والمتآمرين ، وسباب وشتائم ضد الحكومات العربية الأخرى والتى يطلق عليها الدول الرجعية ، وبحثت نبيلة عن قصة قصيرة أو قصيدة شعر لتقرأ أيًا منهما فلم تعثر إلا على بعض أبيات بالعامية تمجد الثورة والثوار ، حتى الكاريكاتير الذى تحبه وجدته يعالج موضوعًا سياسيًا يعنى الهجوم على رئيس فرنسا .. وقلبت الصفحة لتقرأ حظها فى برج الجوزاء .. فوجدت كلمات تقول : « أنت على موعد مع الحظ .. لا تدع الفرصة تفوتك الليلة » ، لوت شفتيها السفلى فى ازدراء .. ثم جالت فى مربعات الكلمات المتقاطعة .. أمسكت القلم وهمّت بوضع الحروف .. لكن الملل ينتابها .. فكرت فى أن تذهب إلى دار للسينما تعرض فيلمًا أجنبيًا شهيرًا وانتهت إلى ذلك الرأى .. ستذهب إلى حفلة الصباح ، وعادة ما تكون هادئة .. وبعدها ستخرج لتتناول طعام الغذاء فى محطة « الرمل » حيث الزحام والحركة والحيوية الدافقة والسيارات المتلاصقة وأصوات الباعة عند المحطة الرئيسية للترام ، وحيث الكتب الكثيرة التى تغمر الأركان بأغلفتها الزاهية الجذابة ، لم يزل أمامها بعض الوقت ، ولذلك أخذت ترتدى ملابسها بإمعان ودقة ،

وأخذت تضع بعض اللمسات الخفيفة على وجهها الفاتن .. إن الجو يميل إلى البرودة ، ولذلك وضعت « إيشارب » على رأسها ، كما لبست جوربًا طويلاً ، وفستانًا ضافيًا ذا أكمام طويلة ، وبلوزة صوفية حمراء ..

دقّ الباب دقتين ..

قالت وهى تعيد النظر إلى مرآتها :

- « ادخل ..»

لا شك أن الخادم قد عاد لأخذ الأطباق والأكواب الفارغة ..

وعندما فتح الباب رأت صورته فى المرآة .. جمدت فى مكانها لحظة ثم هتفت وقلبها يدق من هول المفاجأة :

- « من ؟؟ عطوة ؟؟ »

قهقه فى سعادة وهو يقول :

- « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ..»

التفتت إليه فى دهشة وقد شحب وجهها :

- « أعوذ بالله ..» .

خطا إلى الداخل وهو يغلق الباب وقال :

- « مفاجأة ظريفة لا شك .. ألا ترحبين بصديق عزيز ؟؟ لم تكونى تتوقعين حضورى .. لن يستطيع الشيطان نفسه أن يهرب من عطوة ..» .

ثم أحاطها بذراعيه قائلاً :

- « لا شك أنك سعيدة بمقدمى ، فالوحدة قاتلة ..» .

ومال عليها يريد تقبيلها ، لكنها أفلتت منه بلباقة ، ودفعته بهدوء وهى تقول :

- « ألا تجلس لتستريح وتشرب القهوة ؟؟ » .

عبرت سحابة من الضيق على وجهه

- « هذا الدلال يقتلنى » .

- « عيب يا عطوة ..» .
- « هل هناك عيب بين رجل وامرأته ؟؟ » .
- « لم نتزوج بعد يا عطوة » .
- « لا أطيق هذا الكلام .. لم أجيء من القاهرة لألعب ..»
التفتت إليه قائلة :
- « كيف عرفت مكانى ؟؟ لم أعط لأحد عنوانى بالمرة ؟؟ »
- « قلبى دليلى ..» .
قالت فى شك :
- «قلبك ؟؟ » .
- « نعم يا روحى ..»
- « يقولون إنه لا قلب لك ..» .
- « ولو لم أحبك لما أتيتك متلهفًا ..» .
- «لم يأت بك قلبك ..» .
- « ماذا إذن ؟؟ » .
- « رغبة آثمة تضج فى جسدك ..» .
ضحك عطوة وقال :
- « القلب جزء من الجسد .. والدم الذى يتدفق منه .. يسرى فى كل أنحاء الجسم .. هكذا يقول أخى الطبيب .. فالقلب عضلة من العضلات ..»
- « الوصف المادى ليس هو كل شيء ..» .
- « تهربين من الحقيقة ..» .
شردت نبيلة بنظراتها وهمست :
- « إذا كانت القلوب متشابهة فى تكوينها ، فلماذا الشر ولماذا الخير ؟؟ لماذا يعشق قلب ، ويحقد قلب ؟؟ » .
قال عطوة فى ضيق :
- « القلب يجمع النقيضين معًا ..» .

- «بنسبة واحدة يا عطوة ؟؟» .
- «لا أعرف ..» .
- «أنت لا تعرف من الحقيقة إلى القشور» .
- «لا أطيق الفلسفة ..» .

أطبق عليها بجماع قوته، وضمها إلى صدره فى عنف وقال :

- «سأجعلك تنسين كل الفلسفات القديمة الصدئة .. نحن فى القرن العشرين ..» .

حاولت أن تفلت منه فلم تستطع، شعرت بأنفاسه تقترب من وجهها، كانت ذراعاه تحيطان بها كأطواق من الصلب تحاصرها بلا رحمة، لامست شفتاه شفتيها حتى كاد يكتم أنفاسها، ماءت كقطة توشك أن تختنق، سحبت يدها ثم هوت بها على وجهه الأبيض المشرب بالحمرة .. تراجع قليلاً بعد أن فك ذراعية وهو يبتسم ويقول :

- «إننى أعبد الشراسة وقلة الأدب ..» .
- «ليس لك كرامة ..» .
- «ما صلة الكرامة بما نحن فيه ؟؟» .
- «اتركنى وحدى ..» .
- «هذه المرة لن يحدث ..» .
- «سوف أقذف بنفسى من النافذة» .

قال فى بلاهة ولعابه يسيل :

- «سيكون ذلك فى قمة الروعة ..» .

صرخت فى غيظ :

- «كلب ..» .
- «قولى ما شئت» .
- «لن تمتلكنى بالقوة ..» .
- «بماذا إذن ؟؟» .
- «بالسلوك المهذب الرقيق ..» .

- « لقد فشلت معك كل الطرق يا حبيبتى .. » .
- « لأنك لا تفكر كإنسان متحضر .. » .
- « يا بلهاء .. ليس التحضر كما تتصورين .. » .
ثم أشعل سيجارة ، وجلس على مقعد قريب من النافذة ، ونفخ سحابة كبيرة من الدخان وهو يقول :
- « إذن فأنت مصرة على عقد القران أولاً ؟؟ .. » .
لم ترد عليه ، بحثت عن حقيبتها ، وأخذت تدس فيها بعض الأشياء الصغيرة ، وسمعته يقول :
- « إن من يصفع عطوة يدفع الثمن غاليًا .. » .
- « ومن يحاول اغتصابى لا يستحق إلا القتل .. » .
- « أنت لى يا حبيبتى .. الاغتصاب يكون لشىء لا نملكه .. » .
- « لست جارية .. » .
- « باسم الحب أنت لى .. » .
- « الحب ليس قهرًا واغتصابًا .. » .
- « أفهم من ذلك أنك لم تعودى تحبيننى » .
صمتت برهة ، ثم قالت :
- « عطوة .. » .
- « عيون عطوة .. » .
- « أرجوك .. إننى فى طور النقاهة .. الوقت ليس مناسبًا لأن نلتقى لقد أكد لى الطبيب أننى مصابة بانهيار عصبى .. وتصرفاتك قد تسبب لى نكسة .. دعنى بحق الله حتى أشفى .. إنك تقسو على من حيث يعتقد أنك تسعدنى .. إن عشرة أيام لا تعنى شيئًا .. » .
نظر إليها بعينين تتقدان حقدًا :
- « معنى ذلك أن أعود إلى القاهرة بخفى حنين .. وأنا الذى ظننت أنى سوف أفتح عكا .. » .
حاولت أن تصطنع جوًا من المرح فقالت :

- « عكا ؟؟ عكا استولى عليها اليهود من قديم .. تغيرت الأسماء والمعانى والناس ..» .
- « والله فتحها أسهل منك ..» .
- « تأدب يا عطوة ..» .
قهقه بصوت عال حتى اغرورقت عيناه ..
قالت :
- « سأخرج » .
قال :
- « إلى أين ؟؟ » .
- « السينما .. هل تأتى معى حتى لا تعود بخفى حنين ؟؟ »
- « قلت لك إن مثلى لا يصح أن يدخل الحفلات العامة ..»
أدركت أنه يعانى من أزمة كبرياء حادة ، وأنه يشعر بحرج عميق أصاب نفسه المتغطرسة ، ففكرت فى حل ، ابتسمت ثم اقتربت منه ، وأمسكت بيده قائلة :
- « سوف تذهب معى فى الحفل الصباحى ..» .
وضحكت وهى تقول :
- « ستكون مثل صبية المدارس الذين يهربون من فصولهم ويدخلون السينما .. لن ترفض دعوتى برغم أنف الحكومة وتعليمات الرئاسة ..» .
نظر إلى وجهها الملائكى الطاهر ، وابتسامتها الحلوة الحزينة ، سرعان ما اجتاحته موجة عارمة من اللامبالاة .. وهمس :
- « سوف آتى معك .. فلنجرب ..» .
- « أشكرك يا عطوة ..» .
قال وهو يقف أمام المرآة ، والسيجارة فى زاوية من زاويتى فمه ، ويده تمر على شعره وشاربه المفتول :
- « يا للعار !! نبيلة تجر وراءها عطوة الملوانى ، فيمضى وراءها

ذليلاً مستسلمًا كالحمل الوديع ..» .
قالت نبيلة وهى تحاول أن تنسيه هذه المشاعر :
– « ألا تحب الدراما ؟؟ » .
– « ما هى الدراما ؟؟ » .
– « الروايات العنيفة المثيرة ذات الأحداث الباكية ..» .
قال عطوة فى استهتار :
– « أعيشها كل يوم ..» .
– « هذه الرواية التى نراها اليوم لون جديد ..» .
– « ماذا تعنين ؟؟ » .
– « كل إنسان يرى فيها ذاته ..» .
– « وهل فينا من لا يعرف ذاته ..» .
– « كلنا .. نحن نخدع أنفسنا ..» .
– « أنا يا حبيبتى لا أجهد نفسى فى الغوص إلى الأعماق .. إننى أرى الأشياء فى ظواهرها .. وهذا يكفى ..» .
قالت وهى تمسك بذراعه فى شىء من التودد :
– « التعمق يفتح أمامك أبواب عالم رائع ملىء بالأسرار والأعاجيب » .
– « هراء ..» .
– « ذلك العالم الذى يسكن الأعماق هو الحقيقة ..» .
– « معنى ذلك أن تسعين فى المائة من الناس لا يعرفون الحقيقة ..» .
قالت :
– « ليس هذا بالضبط .. ولكن كل إنسان يدرك منها بقدر استطاعته ..» .
– « لماذا هذا العناء كله ؟ لماذا لا نأخذ الدنيا ببساطة ويسر ؟ » .
– « بالعمق والصدق وحدهما يتميز الإنسان ..» .

- « أحكام طائشة ..» .

- « يقول الله ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ كما أنه يدعونا إلى التأمل والتفكر فيما حولنا .. لو لم يكن هذا فى صالحنا لما دعتنا إليه السماء ..» .

غمغم :

- « نحن فى الأرض ..» .

- « ولماذا لا نتسامى ؟؟ » .

- « ليس لدينا أجنحة ..» .

- « بل لدينا ..» .

قهقه فى ضجر وقال :

- « فلنذهب إلى السينما .. وعندما أعود إلى القاهرة سوف أقول لأصحابى أننى ذهبت إلى السينما .. عندئذ سيسخرون منى ..» .

قالت وهى تتناول حقيبة يدها :

- « وما دخل أصحابك بنا ؟؟ » .

- « إنهم أصحابى .. ثم هم عقلاء .. الحياة فى نظرهم إنجاز وعمل وغزوات وانتهاز الملذات ..» .

همّت أن تقول له إنهم مجموعة من الحيوانات المفترسة ، لكنها رأت أن ذلك قد يهدم ما بنته من اتفاق هش ، فابتسمت قائلة فى حركة دعابة مسرحية :

- « والآن .. إلى السينما ..» .

لم يعد عطوة يطيق هذا الأسلوب فى المعاملة ، لم يكن يتصور أن هناك امرأة تتصرف على هذا النحو مع خطيبها المحترم ذى المركز القوى ، إن أشباهه من الرجال فى مراكز السلطة المختلفة يطلبون فتنفذ مطالبهم على الفور ، فهو يذكر إن إحدى الفنانت قد استعصت على أحدهم فأتوا بها قسرًا تحت سمع وبصر أهل بيتها ، ولم تجد مناصًا من أن تستسلم لنزواته ، وهناك عشرات القصص والحكايات جرت بعلمه ، وفى كثير من الأحيان كان شاهد عيان .. ولماذا يذهب بعيدًا ؟؟ إن بعضهم مصاب بالشذوذ الجنسى .. هو نفسه يتهمونه بذلك ، وكل ذلك لا دخل له فى الحكم على أقدار الرجال منهم ، يكفى أن يكونوا مخلصين للحكم ، وليفعلوا بعد ذلك ما يشاءون ، لا مانع من أن يرتشوا أو يختلسوا أو يستولوا على أملاك الغير بالقوة أو يتّجروا فى الأوراق المالية المهربة والتى يطلقون عليها العملة الصعبة ، أو يشاهدوا الأفلام الجنسية الصارخة البذيئة فى مجالسهم الخاصة ، ويطبقون ما يشاهدونه عمليًا وسط جو من الانحلال والاستهتار لا يعبأ بشىء ، ولماذا نذهب بعيدًا ؟ إنهم يدسون السم لأعداء الحاكم أو يغتالونهم سواء فى الداخل أو الخارج ، وقد يدبرون اختطافهم فى أجولة ، ويشحنونهم فى الحقائب الدبلوماسية ، أشياء كثيرة تجرى على أرض الوطن وخارجه دون وازع من ضمير أو دين .. هذه الأمور كلها أصبحت أمرًا مألوفًا ، وهى ثمن الإخلاص والتفانى فى سبيل الحاكم ، ولقد كانت هناك فئة قليلة من الرجال تأنف من هذا الأسلوب المنحط ، ولا تشارك فيه ، وتلجأ إلى أضعف الإيمان وهو رفض ذلك السلوك بالقلب .. كانوا يرون الأعاجيب تجرى أمام أعينهم فينصرفون عنها دون كلمة ، وينفذون ما يلقى إليهم من أوامر رسمية

دونما إفراط أو تفريط، ولقد كان أحد الضباط «الصالحين» يجرى تحقيقًا مع أحد الإخوان فى وجود عطوة، وكان ذلك الضابط يمسك مسبحة ويستغفر الله عليها ، والسياط تنهال على المتهم المسكين الذى يستغيث ولا مغيث، ولم يزد على أن قال :

– «يا ابنى اعترف حتى تنجو من هذا العذاب .. هؤلاء ليس فى قلوبهم رحمة، ولن يتركوك إلا إذا اعترفت ..» .

– «يا بك أنت تعرف أنى لا أخفى شيئًا ..» .

وهز الضابط «الصالح» ذو المسبحة رأسه وقال :

– «أنا لا أعرف شيئًا .. لا شأن لى بك .. أنا أسجل فقط ما تقول ..» .

– «فلتحمنى منهم .. أنا مظلوم ..» .

– «أنت تحمى نفسك إذا اعترفت ..» .

لقد نفذ صبر عطوة، ولابد أن يصل إلى نتيجة مهما كان الأمر، لقد فكر فى خطف نبيلة كما يفعل بعض ذوى السلطة، لكنه كان أضعف من أن يفعلها لأن مركزه أقل منهم بكثير، ثم إنه يخاف أن ينكشف الأمر، فيطرد من منصبه الخطير، وهو أشد ما يكون حبًا وتمسكًا بمنصبه، لو خرج منه لمات .. كما يموت السمك إذا خرج من الماء، ولذلك عزم على أن يتزوجها لأسبوع .. لشهر .. لشهور .. ثم يرمى بها حقيرة ذليلة فى الشارع بعد أن يكون قد نال بغيته منها، وروى ظمأه إليها، إنه شديد الملل ولا يطيق الحياة مع امرأة واحدة لفترة طويلة ولا مع رجل واحد .. لا شك أن ذلك يعتبر تراجعًا منه عن الخط الذى رسمه لنفسه، لكن الحياة كرّ وفرّ، لقد تعلم ذلك إبان معركة فلسطين، والحياة العسكرية مناورات .. لقد دخل معها السينما فى الإسكندرية، كانت مندمجة تمامًا فى متابعة الفيلم، أمسك بيدها فلم تمانع، تشجع وقبّل ظاهر يدها فى الظلام، نظرت إليه بعينان تبرقان فى الضوء الشاحب الضئيل، ثم عادت إلى مشاهدة الرواية التى استولت على كل

مشاعرها ، أدرك أن يدها باردة كالثلج لا حياة فيها ولا روح .. إنها بالموتى أشبه .. تململ فى مقعده ، نظر إلى الشاشة فلم يفهم شيئًا من الحوار الساخن الذى يدور بين الأبطال .. لم يلفت نظره إلا النساء الجميلات وهنّ يتحركن حركات محسوبة .. ولذلك مرّ الوقت ثقيلًا على نفسه حتى أخذ يزفر فى ضيق ، تمنى أن ينتهى الفيلم فى أسرع وقت ممكن ، عاد ينظر إلى نبيلة ، إنها لا تكاد تعى شيئًا مما حولها بسبب اندماجها فى وقائع القصة ، قال عطوة :

– «ما الذى يعجبك فى هذا الفيلم ؟؟» .

التفتت إليه كمن تفيق من حلم :

– «ماذا تقول يا عطوة ؟؟» .

– «القصة كلها كلام فارغ ..» .

– «كيف ؟؟ إن فكرتها رائعة .. ألا ترى ؟؟» .

– «لقد تصدع رأسى ..» .

فتحت حقيبتها وهى تقول :

– «معى إسبرين ..» .

قال فى ضيق :

– «لا تتعبى نفسك .. سوف أشعر بالراحة عندما أخرج من هذا المكان الذى أكاد أختنق فيه ..» .

عادت تنظر إليه فى دهشة :

– «هذه القصة فازت بجائزة الأوسكار وعشر جوائز عالمية أخرى ..» .

هز كتفيه دون اكتراث وقال :

– «إن ما يعجب الأجانب قد لا يعجبنى ..» .

– «لكن هناك مستويات رفيعة لا يختلف عليها مجموع الناس ..» .

وعادت لترقب مشاهد الفيلم المثير ، أما هو فقد رجع بخياله إلى السجن الحربى عالمه الحبيب ، تذكر الكلاب ، إنه قلق عليها ، لكن لن يجرؤ أحد على أن يقصر فى حقها ، وتذكر المعتقلين المنفيين خلف الأبواب المغلقة ، كاد يدرك فى قرارة نفسه أن الضباط المحققين لا يؤدون واجبهم كاملاً إلا فى وجوده ، ولهذا تضاعف قلقه .. يجب أن يذهب على الفور بعد أن يتناول طعام الغذاء مع نبيلة ، ثم لا يذهب إلى بيته بل لابد من المرور على السجن الحربى أولاً حتى يطمئن على سير العمل .. إنه يشعر بالسعادة القصوى وهو جالس خلف مكتبه ..

وأفاق من أفكاره على جسد نبيلة وهو يهتز بصورة ملفتة للنظر ، كانت تذرف الدموع وتشهق من البكاء ، قال فى ذعر :

– « ماذا جرى ؟؟ » .

– « إنه شىء رهيب ..» .

– « لا أفهم ..» .

– « ألا ترى ؟؟ لقد قتل الطغاة حبيبها ..» .

– « وماذا فى ذلك ؟؟ الناس يموتون كل يوم ..» .

– «كان شريفًا صادقًا .. وأحبها أروع ما يكون الحب .. وعاش كالنبى فى قلب مجتمع يقدسه .. إنها جريمة بشعة ..» .

عاد عطوة يمسك بيدها ويقول :

– « هذه قصة خيالية ..» .

– «لكن أحداثها منطقية .. وتعبر عن واقع الحياة ..» .

– « هذه أمور تسلية ..» .

– « وللتهذيب أيضًا يا عطوة ..» .

– «يا حبيبتى السينما تجارة .. يأخذون فلوسكم ويحقنونكم بمخدر لطيف ..» .

– «ليس دائمًا ..» .

هبَّ من مكانه واقفًا وقال بحزم :
– « هيا بنا ..» .
– « كيف ؟؟ لم تنته القصة بعد » .
– « لقد مات البطل ..» .
– « الموت ليس النهاية يا عطوة .. البطل باق ..» .
– « باق للدفن ..» .
– « كلا .. الناس سيثورون .. أنظر .. لقد أحاطوا بالمجرمين .. ألم أقل لك ؟؟ القصة لم تنته بعد .. والبطل مات جسدًا لكن أفكاره حية تفعل فعلها .. أنظر .. لقد أمسكوا بهم .. إنه يسوقونهم أذلاء .. هذا هو الموت الحقيقى .. أنظر » .
عاد عطوة للجلوس مرة أخرى ، وقبض على يدها فى عنف وهو يقول :
– « هل جننت يا نبيلة ؟ الناس تنظر إليك ..» .
– « وها هى البطلة ..» .
– « قولى الأرملة ..» .
– « إنها تحمل الراية من بعد زوجها الشهيد ..» .
– « كونى عاقلة يا نبيلة .. هذا لا يحدث .. لسوف تبحث لها عن رجل آخر ، المرأة لا تعيش بغير رجل وخاصة فى أمريكا ..» .
– « أنت لا تفهم القصة ..» .
قالتها وهى مركزة بصرها على الشاشة ، ضحك عطوة وهمس :
– « إننى أستطيع أن أتوقع أية أحداث بمجرد مشاهدة الجزء الأول من القصة » .
– « القصة فى حد ذاتها ليست شيئًا .. المهم هو دلالة الأحداث ..» .
– « ما معنى دلالة الأحداث ..» .

لم تجب على سؤاله، كانت مشدودة إلى ما يجرى أمام بصرها، ووجد عطوة نفسه مضطرًا لأن يجلس صامتًا إلى جوارها حتى تنتهى القصة، وتظهر كلمة النهاية .. عليه أن يصبر ويحتسب، فالنساء فى رأيه كالأطفال يتشبثن بالأشياء التافهة، والأساطير الخرافية، ولهذا فهنّ لا ينفعن لغير السرير والزينة واللهو، يخطىء من يظن أن لهنّ رسالة أو مبدأ، ليس لهنّ إلا المتعة واللعب والثرثرة، يبدو أن درس الاعتقال ليوم واحد لم يعلمها شيئًا ذا قيمة، كان يسمع فى القرية «اكسر للبنت ضلع يطلع لها ضلعان ..» فعلًا .. النساء كائنات غريبة قد يصبح من الصعب فهمهن .. فى رأى عطوة أن الشىء الوحيد الذى يفضح الغموض ويكشف الإبهام هو الكرباج .. الألم هو المفتاح الذى يفض الأبواب المغلقة، ويميط اللثام عن المجهول .. الألم أقوى من الموت ..

كانت الساعة قد قاربت الواحدة، وهما يسيران فى ميدان «محطة الرمل» أشهر ميادين الإسكندرية، وقد حرص عطوة على أن يلبس فوق عينيه نظارة سوداء أنيقة ذهبية الأذرع، ومشى إلى جوارها فى أنفة وكبرياء، قال لها حينما رآها تهرول وتندس فى الجموع :

– «يجب أن تسيرى بوقار وهدوء ..» .

– «نحن فى الشارع ..» .

– «والشارع يلزمنا بآداب لابد منها ..» .

– «لم تعلق على كلامه، بل أشارت بيدها إلى مطعم متواضع وقالت :

– «أنظر .. هنا أتناول طعامى ظهر كل يوم ..» .

أبدى عطوة نفورًا واشمئزازًا ظاهرين، وقال :

– «لا يليق ..» .

لم تجد ضرورة لأن تناقشه الأمر، واكتفت بقولها :

– « اذهب بنا إلى أى مكان ..» .

كان المطعم الذى صحبها إليه من مطاعم الدرجة الأولى ، الديكور الرائع ، والثريات المدلاة من السقف جميلة ، والأرائك مصفوفة فى نظام ودقة وأبهة ، وغالبية الجالسين من الأجانب وبعض وجهاء المدينة ، وانتحى عطوة ركنًا قصيًا بعيدًا عن حركة الدخول والخروج ، وجلسا حول مائدة صغيرة ، وقدم النادل بقائمة الطعام ، أعطاها أولًا لنبيلة التى اختارت الأصناف التى يروقها ، ثم تبعها عطوة ، وقبل أن ينصرف النادل قال :

– « مشروب يا بك ؟؟ » .

– « طبعًا .. ويسكى ..» .

كانت تأكل فى شىء من الكسل والشرود ، لم تزل تفكر فى القصة التى شاهدتها ، ومن آن لآخر تتذكر سلوى .. الوجه الشاحب ذا الجروح والكدمات «والوحوش التى تقبع وتعربد هناك فى المخابرات العامة .. والتفاصيل الدامية التى تهز كيانها هزًا .. وحانت منها التفاتة إلى عطوة .. كان يمسك الشوكة والسكين ويمزق اللحوم ، ويأكل فى شراهة ، ومن آن لآخر يصب كأسًا ثم يجرعها .. ويقول :

– « ألا تشربين ؟؟ » .

فتقول كل مرة :

– « الماء فقط ..» .

وأخيرًا قال عطوة :

– « هذه ماء أيضًا .. لو شربت كل يوم كاسين من الويسكى لشفيت من كل الأمراض ، ولامتلأ قلبك بالسعادة والبهجة ..» .

أطال النظر إليه فضبطها متلبسة فقال باسمًا :

– « ماذا يدور فى ذهنك ؟؟ » .

– « أنت رجل لا تفكر فى الغد ؟؟ » .

- «لدى ما يشغلنى عن ذلك ..» .
- « إنك ذو قدرة هائلة فى التحكم بعواطفك وعقلك ..» .
- « ألا يقولون إن المستقبل بيد الله ..» .
- « هو ذاك ..» .
- « وما دام ليس بأيدينا ، فلم نفكر فيه ؟؟ » .
قالت :
- « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ..» .
فأكمل ساخرًا :
- « واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ..» .
قالت فى شرود :
- « هو ذاك ..» .
- « أنا لا أخشى الموت ..» .
- «لكنه واقع لا محالة يا عطوة ..» .
- « إنه لا يدخل فى دائرة اختصاصنا ..» .
وفجأة توقفت عن المضغ وقالت :
- « أتؤمن بالله ؟؟ » .
صمت برهة ، ثم أغمض عينيه لحظة ، وقد توقفت يداه الممسكتان بالشوكة والسكين ، ثم ابتسم وقال :
- « أهو تحقيق ؟؟ » .
- «لم تجب على سؤالى » .
- « حبيبتى .. لو كان هناك إله لما انتصر ستالين ولما قتل حسن البنا ..» .
ارتجفت أناملها ، فألقت بالملعقة بما فيها من طعام وقالت :
- « يبدو أن الخمر لعبت برأسك ..» .
عاد إلى الأكل بشراهة وهو يقول :
- « حقيقة .. هذه الأمور لا أفكر فيها ..» .
- « لكنه موضوع أساسى ..» .

- «بالنسبة لى .. لا ..» .
- «ومع ذلك اطمئنى .. كان أبى رجلًا صالحًا مؤمنًا .. وعلمنا أشياء كثيرة عن الله وصفاته وأوامره ونواهيه .. وهذا الموضوع لم أطرحه للمناقشة منذ سنين .. ومع ذلك فأعتقد أن الله موجود ..» .
قالت نبيلة :
- «لكن الإيمان يقتضى الالتزام بأوامر الله ..» .
- « هذه قضية أخرى .. وعمومًا فالويسكى لم يرد تحريمه بالاسم فى أى كتاب سماوى ..» .
وأخذ يضحك ، ثم ملأ كأسًا أخرى وشرب نصفها ..
وفجأة ظهر رجل قبالتهما ، وأدى التحية فى أدب وقال :
- « أية أوامر يا سعادة البك ..» .
قال عطوة باقتضاب :
- «متشكر .. بلغ تحياتى لعبد المجيد بك ..» .
وانحنى الرجل فى أدب ، وعيناه تنظران لدى موطىء قدميه ، ثم استدار وانصرف ، وعينا نبيلة تلاحقه ، إنه يشبه إلى حد كبير أولئك الرجال الذين انتزعوها بالأمس القريب من بيتها وساقوها إلى مبنى المخابرات إنه ليس واحدًا منهم بالتأكيد ، ولكنه من طرازهم ، وقالت نبيلة :
- «من هذا الرجل ؟؟» .
- « أحد عيوننا ..» .
- «لعله هو الذى أرشدك إلى مكانى » .
قهقه عطوة فى سعادة وقال :
- «لن تخرجى من نطاق مملكتى مهما فعلت ..» .
قالت فى تحد :
- «ملكوت الله أوسع من عالمك الصغير ..» .
أشار بيده قائلًا :

- «مهما فعلت، وأينما ذهبت فستكونين بين أصبعى هكذا ..».

تجشأ ثم صفق بيديه، فهرول النادل، تمتم عطوة وهو يمسح شفتيه بمنشفة نظيفة بيضاء:

- «الحساب ..».

قدم إليه النادل ورقة صغيرة، وقال عطوة وهو يضع يده فى جيبه ليخرج حافظة نقوده:

- «أربعة عشر جنيهًا فقط ؟؟».

ثم أخرج من الحافظة خمسة عشر جنيهًا ورمى بها على المنضدة وهو يقول:

- «الباقى بقشيش لك».

قال النادل فى سعادة:

- «فليمد الله فى عمرك .. وعمر الست هانم ..».

وما أن انصرف النادل حتى قالت نبيلة:

- «وجبة واحدة بمرتبى شهرًا كاملًا ..».

امتلأ قلبه بالغبطة، وأخذ كرشه يهتز وهو يضحك، وقال وهو يمسك بيدها فى نشوة:

- «مليون جنيه فى حذائك .. أنت أغلى عندى من كل كنوز الدنيا ..».

وغمغمت وهى تتناول حقيبة يدها:

- «متشكرة ..».

ركبت السيارة إلى جواره، وانطلق بها صوب فندقها، ولدى الباب قال لها:

- «لن أطيق الصبر أكثر من أسبوع .. سأنتظرك .. وبعد عودتك بيومين أو ثلاثة سوف نعقد القران .. ونضع حدًا لهذا العذاب .. أريدك لى وحدى .. باى .. باى ..».

وصرخت العجلات وهو يدور بسيارته، ونظرت نبيلة إلى السيارة

وهى تنطلق بعيدًا عن الشارع الطويل، وظلت تنظر حتى توارت عن الأنظار .. وعندما همت بالدخول توقفت فجأة، ثم أدارت ظهرها للباب .. وخطت صوب الشارع .. لقد شعرت برغبة جارفة فى أن تندس وسط الناس وتمتزج بهم وتحادثهم .. وتنفس عما فى داخلها من اضطراب وهموم وقلق.



الفصل ١٤

لقد طالت فترة الاعتقال، وكان النزلاء يعانون من قلق بالغ بالنسبة لنسائهم وأطفالهم خارج السجن، والحكومة لم تسمح لهم بالزيارة، حتى مجرد كتابة خطابات عادية تحت المراقبة لم يسمح لهم بها، وهناك عدد كبير من المعتقلين ذوى الأعمال الحرة، بعضهم مرتبط بالتزامات وعقود قانونية لتوريد بضائع، أو إقامة بنايات، أو الوفاء بأعمال متنوعة، وبعضهم لديه بعض المتاجر التى أغلقت أبوابها، وأصبحت أسرهم بلا مورد رزق، ولقد سمح لبعض الموظفين الحكوميين الذين لم يقدموا للمحاكمة– وما أقلهم– بصرف مرتباتهم عن طريق كتابة توكيل لأحد الأقارب، أما الغالبية العظمى وهم من ذوى المهن الحرة فقد وقعوا فى حيرة ولا يدرون ما يفعلون، وألح المعتقلون على إدارة السجن الحربى كى يسمحوا لهم بكتابة خطابات يدبرون بها بعض شؤونهم فى بيوتهم، ولكن أحدًا لم يستجب لهم، ولم يجد المعتقلون وسيلة مباشرة كى يحققوا ما يريدون، وأخيرًا فكروا فى تهريب خطابات إلى ذويهم، لكن كيف يتم ذلك وهم خلف أبواب الزنازين أو فى الساحة الدامية تحت التحقيق، أو فى طوابير العذاب اليومية، فضلًا عن أن الجنود لا يسمحون لأى معتقل بالحديث معهم أو مناقشة أى أمر من الأمور، فالعلاقة بين العساكر والمحبوسين علاقة أمر يصدر ثم التنفيذ، وأى تلكؤ فى تنفيذ الأمر معناه العقاب الصارم الذى قد يصل لدرجة القتل، وقد تكرر حدوث ذلك ..

قال الشاعر يوسف :

– «أيها الأحباب .. إن هناك قضية ميراث شائكة مرفوعة أمام القضاء، وقد حان موعد نظرها، ولا أدرى ماذا أفعل ..» .

قال المعتقل السودانى رزق إبراهيم وهو طالب بكلية الحقوق :
- «قانونًا لابد أن يستدعوك للمحكمة ..» .
ضحك الشاعر يوسف وقال :
- «حذار أن تتحدث هنا عن القانون يا رزق ..» .
أما الأخ الفلسطينى عبد الحميد النجار فقد قال :
- «الحمد لله .. بلدى احتلها اليهود ، واستولوا على بيتنا وعلى البيارات المثمرة .. ولم أترك ورائى غير أريكة خشبية أنام عليها وحشية وبطانية ووسادة وقليلًا من الكتب .. ولا دخل لى إلا الإعانات التى يتكرم إخوتنا فى مصر أو فى هيئة الأمم .. وعندكم مَثَل مصرى يقول «إيش ياخد الريح من البلاط ..» .

وكان الضابط «معروف الحضرى» يجلس فى ركن قصى من الزنزانة ، وهو منهمك فى تلاوة بعض آيات القرآن التى يحفظها ، ومن آن لآخر ينهض ليصلى بعض ركعات نفلًا .. وكان معروف يحظى باحترام الجميع وخاصة الشيخ عبد الحميد النجار ، لأن «معروف» بطل من أبطال حرب فلسطين المشهورين ، وقد كتبت كبريات الصحف العربية عن تضحياته وبطولاته فى عام ١٩٤٨ ، ومع ذلك فهو رجل عف اللسان ، فى غاية التواضع والإخلاص والرقة .. قال معروف :
- «إننا نضع أرواحنا على أكفنا .. ومن يضحى بروحه لا يشفق على مال أو عقار أو أرض .. كل شىء إلى زوال .. فلنترك الأمر لله وليكن ما يكون ..» .
رد الشاعر يوسف قائلًا :
- «هذا حق .. لكن من نعولهم لهم حقوق تجب المحافظة عليها ..» .
قال معروف :
- «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ..» .
هبَّ عبد الحميد واقفًا وقال :

– « سمعت أن أحد العساكر مستعد لتوصيل خطاب للبيت وإحضار الرد عليه مقابل خمسة جنيهات مصرية ..» .

قال يوسف :

– « خمسة جنيهات ؟ ؟ هذا مبلغ كبير .. ومع ذلك فأنا على استعداد لأنه لا يوجد بديل .. ثم إن هناك من اقترض منى سبعين جنيهًا ولابد أن أخطر أهلى حتى يحصلوها ..» .

وتكفل الشيخ عبد الحميد النجار بإجراء الاتصالات اللازمة، واستطاع بالفعل أن يتعرف على العسكرى نفسه ، وتم الاتفاق على أن يتم تسليم الخطابات والفلوس لمعتقل يدعى « قورى » وكان « قورى » هذا يهوديًا يعيش منفردًا فى زنزانة مجاورة، وكان يسمح له بالخروج منها لتنظيف غرف الضباط والجنود ، وإعداد الشاى والطعام لهم ، ولهذا يكاد يكون متواجدًا أغلب ساعات النهار خارج زنزانته ، وكان « قورى » شخصية عجيبة ، فقد حفظ سورة « يس » وقصار السور ، لكن الإخوان ضبطوه مرة وقد رسم نجمة إسرائيل على باب الزنزانة من الداخل ، وكتب كلمات بالعبرية ، فقام أحد مجاهدى فلسطين القدامى بتلقينه درسًا لا ينساه ، وضربه ضربًا مبرحًا ، ومع أن العسكرى المناوب تدخل فى الأمر وانتقم من المجاهد القديم ، إلا أن الأخير شعر بارتياح بالغ .. وعادت الأمور إلى مجاريها بعد ذلك .. فالمصائب يجمعن المصابين ، وأخيرًا أبدى قورى استعداده لتوصيل الخطابات والنقود للعسكرى ، وكانت حماقة العسكرى الذى خان الاتفاق ، وأمسك بالرسائل ورمى بها فى صندوق بريد واحد بحى العباسية ، دون أن يضع عليها أية طوابع .. مما لفت نظر ساعى البريد ، وكانت هناك رقابة شديدة على البريد فى تلك الفترة ، وما أن فتحوا أحد هذه الخطابات حتى وجدوه صادرًا من السجن الحربى ، وسرعان ما فتحوا باقى الخطابات ، وكانت كارثة إذ أخطر السجن الحربى والمخابرات والمباحث العامة على الفور ،

وأجرى تحقيق رهيب مع أصحاب الخطابات، واستطاعت السياط وأفانين التعذيب المتنوعة أن تنتزع الاعترافات، وسيق «قورى» ومعه العسكرى وجميع من كتبوا الرسائل إلى الساحة الحمراء .. كان يومًا بالغ الصعوبة، وقد تصادف أنه يوم «عيد» .. ووضع الجميع تحت إجراءات قمع مشددة وبينهم أيضًا الشاعر يوسف والشيخ عبد الحميد النجار ورزق إبراهيم والضابط معروف .. كان الثمن باهظًا .. لكن الحكومة سمحت بعد ذلك للمعتقلين بكتابة خطابات مفتوحة بحيث لا يزيد حجم الخطاب عن ثمانية أسطر، وبصيغة تكاد تكون محددة، اللهم إلا فى حالة طلب أشياء معينة من الأهل ضرورية .. فتكتب باختصار شديد على أن تعرض على الضابط المختص لمراجعتها ..

وبعد أن مرت الأزمة، عاد قورى إلى زنزانته ولم يعد يسمح له بمغادرتها.

كانت زنزانة يوسف الشاعر مثل عنبر المستشفى، فجميعهم قد استلقوا على الفراش مجهدين متألمين بسبب ما تعرضوا له من ضرب، وكان أكثرهم مرحًا برغم الجروح والكدمات الشيخ عبد الحميد النجار، وغمغم وهو يمسك بقطعة قطن مغموسة فى مطهر الميكروكرون الأحمر :

– «كله بثوابه يا أحباب .. لا تحزنوا .. ليست هذه أول (علقة) ولن تكون الأخيرة .. لم يكن هناك ضرورة لأن أكتب خطابًا .. لكن العدوى انتقلت إلىّ كما انتقلت لأخينا الكبير معروف ..» .

قال معروف باسمًا :

– «لم أكن حريصًا على الكتابة إلى الأهل، لكنى فقط أردت أن أخترق ذلك الحصار الصارم الذى أقاموه حولنا ظلمًا وقهرًا .. يمكن أن تسموه مجرد تمرد صغير .. أنا عدو الاستسلام ..» .

وقهقه الشيخ عبد الحميد، فردّ الشاعر يوسف :

– «لماذا تضحك ؟؟» .

– «أضحك لأنك لم تكتف بالخطاب الهام فأرفقت به قصيدة عصماء فكان أن تسلمت ثلاثة سياط لكل بيت .. الحمد لله أنك لم تكتب ملحمتك الشهيرة الطويلة ، إذًا لسلخوا جلدك ولعل عقابك كان سيستمر حتى هذه اللحظة ..» .

وضحكوا جميعًا برغم الألم ، واستطرد عبد الحميد قائلاً :

– «وأخونا رزق– سامحه الله– كتب مذكرة شافية عن الوضع القانونى للاعتقال ، وكان يريد أن تصل إلى يد النائب العام ..» .

قال رزق فى حماس وقد برقت عيناه بريقًا لامعًا ملحوظًا فى وجه الأسمر :

– «كلمة حق يجب أن تقال» .

أردف الضابط السجين معروف قائلاً :

– «دعوا النائب العام فى حاله .. فعلى الرغم من أنه مطلق السراح إلا أنه يعيش فى السجن الكبير ..» .

وعاد الشيخ عبد الحميد يكركر وقد أعطى قطعة القطن لرزق كى يستعملها هو الآخر :

– «مسكين قورى .. لقد كان يموء كالقطة التى تكوى بالنار ..» .

وكان يتلوى تحت وقع السياط وهو مربوط فى (العروسة) .. ويهتف : تسقط إسرائيل المجرمة .. يسقط ابن جوريون .. أنا مصرى .. ارحمونى ..» .

وأخذ يوسف يترنم ببعض أبيات جديدة من الشعر يضيفها إلى «نونيته» أى ملحمته الشهيرة ، وأخذ الإخوان يستعيدون الأبيات كى يحفظوها عن ظهر قلب .

ولم يقف تكدير المعتقلين عند هذا الحد ، فقد قام الضباط والعساكر بحملة تفتيش ضخمة ، كانوا يسحقون فيها قطع الصابون ، ويقطعون الأرغفة ، ويمزقون الملابس بحثًا عن «أجهزة لاسلكى»

كما يقولون ، وذلك بسبب إذاعة أخبار السجن الحربى الرهيبة فى بعض الإذاعات العالمية فى نفس اليوم الذى حدث فيه التكدير ، ويا ويل من وجدوا معه قطعة ورق أو قلمًا صغيرًا من الرصاص لا يتجاوز بضعة سنتيمترات .

وهكذا مرت أيام العيد كأتعس ما تمر الأيام ، فلا طعام يذكر ، ولا نوم ولا مشاعر طيبة يمكن تبادلها فى مثل تلك المناسبة ، فالساعات تمر وهى خليط من الدموع والآلام والجراح والذكريات التى يوشيها الحزن العميق .. وبرغم لحظات المرح الخاطفة التى يجود بها الله من فضله على التعساء ، إلا أن جو التوتر والقلق والخوف كان يلفع السكون الدامى فى جنبات السجن الرهيب الذى فاق البستيل بشاعة ..

وقال الضابط معروف :

– «ليس العيد لمن لبس الجديد ، ولكن العيد لمن خاف يوم الوعيد » .

علق الشيخ عبد الحميد باسمًا :

– « الحمد لله نحن فى أعياد متصلة ..» .

وهبَّ رزق إبراهيم واقفًا ، ومدَّ عوده الأسمر النحيل إلى أعلى متشامخًا ، ونظر صوب النافذة الصغيرة ذات القضبان المتشابكة ، وأخذ يرتل فى شجن قصيدة المتنبى الشهيرة التى يقول فيها :

عيد بأى حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهمو
فليت دونك بيد دونها بيد

وتبللت الأهداب بالدموع الخاشعة الصابرة .

وحاول عبد الحميد أن يبدد جو الكآبة فقال متصنعًا المرح :

– « أتبكى يا يوسف وأنت شاعر المحنة الأكبر ؟؟ » .

قال يوسف بصوت جريح :

– « دموعنا صلوات فى محراب الحق .. » .

وقال رزق :

– « أنا لا أبكى خوفًا ، ولكنى أصرخ فى وجه عجزى ، العجز قيد بشع .. لو واجهونى فى معركة متكافئة ، لمت وأنا سعيد النفس .. » .

وساد الصمت فجأة عندما دار المفتاح فى ثقب الباب ، ثم أطل العسكرى بوجهه الكالح الغاضب ، فهبَّ الجميع واقفين ، وأدوا التحية العسكرية حسب التعليمات وهم يهتفون بصوت واحد قوى :

– « تمام يا أفندم .. » .

قال العسكرى :

– « خذا هذا معكم .. » .

وتطلعت العيون .. ودخل شاب مهترىء الجسم ، عار إلا من سروال قصير على جسده سطور قصة عذاب مضنية بشعة ، كان يخطو فى ضعف ووهن حاملًا « بطانية » رثة ولا شىء غيرها ، وعندما أغلق الباب قال بصوت راعش ضعيف :

– « السلام عليكم .. » .

– « وعليك السلام .. » .

وأفسح كل واحد منهم له مكانًا ، وتناول معروف منه البطانية وهو يتمتم :

– « أجر وعافية يا أخى .. » .

هز رأسه شاكرًا ، ثم جلس وهو يلهث ..

وساد الصمت دقيقتين أو ثلاث ، ثم قال الضيف الجديد :

– « أخوكم محمود صقر من منية البندرة » .

قال معروف :

– « أهلًا بك .. » .

ولم يطق رزق إبراهيم صبرًا ، فابتدره قائلًا :

- «ما هى قضيتك ؟؟» .

- «لا قضية ..» .

وتدخل عبد الحميد قائلًا :

- «دعه يا رزق حتى يلتقط أنفاسه أولًا ..» .

لكن محمودًا ابتسم ، فأضاءت ابتسامته ، وجهه الشاحب المضنى وقال :

- «يعلم الله كم أنا سعيد بوجودى معكم !! لقد أرهقنى الحبس الانفرادى أكثر مما أرهقتنى السياط .. إنه لفضل كبير من الله أن أجد من أتحدث إليهم .. أنتم السلوى والعزاء والحب .. لو مت بينكم لكنت فى أوج الرضا والاطمئنان ..» .

قال رزق وهو يمصمص بشفتيه :

- «لقد آذوك كثيرًا ..» .

- «كله فى سبيل الله يهون .. لم أشعر بآلام السياط إلا فى البداية .. وبعدها خيّل إلىّ أن جسدى كله قد تخدر .. فاستسلمت .. وماذا كان بيدى أن أفعل ؟؟ إنها لحظات تنظر حولك فلا تجد إلا الله .. عندئذ تقترب منه .. تناديه فيرد عليك .. تشكو له فينزل السكينة على قلبك .. لعلها أروع لحظات الحياة .. إنها أوقات خلو واعتكاف على الرغم من الشياطين الذين يحاصرونك بالسياط ..» .

وسمع صفير عال ، فساد الصمت ، وجاءهم صوت العسكرى يصيح من بعيد :

- «اثنان من كل زنزانة للتعيين ..» .

وكلمة التعيين تعنى الكمية المسموح بها من الطعام للنزلاء ، ووثب عبد الحميد ورزق ومعهما معروف ، لكن عبد الحميد قال :

- «لتبق أنت يا أخ معروف .. والله لن تذهب ..» .

فلم يجد معروف مناصًا من أن يعود إلى مكانه .

كان الذهاب إلى أخذ « التعيين » ضربًا من إنكار الذات أو التضحية فالذين يذهبون لأخذ الطعام أو أى شىء لابد أن يتعرضوا لضربات السياط ولذلك كان يعفى منها كبار السن والمرضى ، وهذا اتفاق أو عُرف بين النزلاء ، وكان معروف يتضايق لأن زملاءه يعفونه من أداء هذه المهمة ، وكان يصر فى كثير من الأحيان على الذهاب ، إذ أنه واحد منهم ، ويجب أن يتحمل مثلما يتحملون ، فالكل شركاء فى المسئولية وفى المصير وهو يعتبر كل ما يتعرض له من عسف وظلم قربات لله الذى كتب الابتلاء على عباده ..

وعاد رزق بعد ذلك يقول :

– « أخى محمود !! هل أنت من قادة الجهاز السرى ؟ ..» .

ابتسم محمود وقال :

– « أنا مثلك ولكنها أرزاق يا رزق ..» .

– « يبدو أن رزقك كثير ..» .

– « هذا من فضل الله .. أنا نفسى لم أكن أخفى سرًا ، ولم أفهم إطلاقًا سبب ما يفعلون بى .. أتراني ارتكبت جريمة لا أعرفها ؟؟ وأخيرًا قلت لنفسى : لا تحاول أن تحلل الأمور تحليلاً منطقيًا وإلا جننت .. فلا منطق هنا .. ولا إنسانية .. ولا قاعدة .. ولا قانون ..» .

وانكب الرجال على أطباق العدس يأكلون فى شهية ، وما هى إلا فترة وجيزة حتى اختفت الأرغفة ، وخلت الأوعية ، وغمغم الشيخ عبد الحميد :

– « لم أزل جائعًا .. إن رغيفًا واحدًا لا يكفى ..» .

قال رزق فى عصبية :

– « احمد ربك يا أخى .. جوعوا تصحوا ..» .

وبلل عبد الحميد شفتيه بلسانه وقال :

– « ليتنى كنت معهم ..» .

قال رزق :

- «مع من ؟؟» .
- «مع الدكتور العجمي والكلاب ..» .
وابتسم الرجال .. وابتسم محمود أيضًا ..

الفصل ١٥

كانت نبيلة مندهشة لتصرفات عطوة، إنه أنموذج غريب من الرجال لم تر له مثيلًا فى حياتها، يبدو أنه يمتلك من السلطة ما لا يخطر لها على بال، وإلا كيف عرف مكانها ؟؟ وكيف أنقذها من براثن الطغيان يوم اعتقلوها ؟ ثم ما الذى يمده بذلك المال كله ؟؟ لقد لاحظت أن حافظة نقوده ممتلئة بالأوراق المالية، كما علمت بعد ذلك أنه غافلها ودفع لها بالفندق عشرين جنيهًا تحت الحساب، الواقع أنها، كانت فى البداية حائرة بالنسبة له، بعد أن كانت تحبه، وتتمنى الزواج منه، واليوم أصبحت لا تطيق وجوده إن لم تكن تخافه، وهذا تطور لا يبشر بخير، لقد أخذ يتضح لها أن إمكانية الحياة معه أصبحت شبه مستحيلة، لكن كيف تفلت من بين براثنه ؟ لقد ضمنها يوم أن أفرجوا عنها، وهذه نقطة هامة لا يمكن تجاهلها، ثم أنه يستطيع أن يلحق بها وبأهلها الأذى إذا أراد ذلك، بسبب السلطات الواسعة التى يتمتع بها، ونظرًا لصلاته الوثيقة مع عليه القوم، وانطلاقًا من مبادئه وأفكاره المدمرة التى لا ترحم، إن الأمر يحتاج إلى مزيد من الحنكة والصبر والدهاء، ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولم تعد نبيلة تشعر بالاطمئنان والسعادة اللتين سعدت بهما يوم أن وصلت إلى الاسكندرية، إن الفندق لم يعد يروق لها، ولابد أن تبحث لها عن ملجأ أمين آخر، فمن الممكن أن يأتى إليها عطوة فى أى وقت، ولهذا غادرت الفندق فى منتصف الليل، وأخذت باقى حسابها، وذهبت إلى إحدى صديقاتها فى حى «محرم بك» لتقضى بقية الأجازة المرضية هناك، والحق أنها سعدت إلى جوار صديقتها، وقضت معها أوقات ممتعة لا يعكر صفوها أى شىء

اللهم إلا الذكريات المريرة، القلق الذى ينتابها من وقت لآخر بخصوص المستقبل، وحان وقت العودة إلى القاهرة .. كان يومًا .. لقد وجدت عطوة جالسًا هناك .. احتضنتها أمها فى حب وأخذت تغمر وجهها بالقبلات، أما أبوها فقد قبّل رأسها فى حنان ودعا بالستر، وبقية الأهل والأطفال أخذوا يتسابقون إلى الترحيب بها وإبداء أعظم المشاعر نحوها .. لقد غرقت فى حب خالص يبعث على الرضا والأمل ..

أما عطوة فقد بقى جالسًا فى مكانه يرقب المشهد المثير باهتمام بالغ، ومالت نحوه قائلة :

– «كيف حالك يا عطوة ؟؟» .

قال وهو يشبك يديه ويضعهما تحت ذقنه :

– «كما ترين .. طال انتظارى حتى أصابنى الملل .. وخاصة عندما ذهبت إلى الاسكندرية مرة أخرى فلم أجدك بالفندق ..» .

– «أذهبت إلى هناك ..» .

– «بالتأكيد، فلم يكن من المقبول أن أتركك هذه المدة دون أن أعاود الاطمئنان عليك» .

طأطأت رأسها قائلة :

– «آسفة ..» .

– «تحاولين الهرب منى دائمًا، لست أدرى لماذا ؟؟» .

– «لا تظن ذلك يا عطوة .. أنا لم أكن أقرأ الغيب، لو علمت أنك ستحضر لانتظرتك ..» .

سدد إليها نظرات غاضبة وقال :

– «تعلمين ..» .

– «أنت شكّاك .. وكيف أعلم ؟؟» .

– «بذكائك ..» .

أدركت أنها لابد أن تفعل شيئًا كى تكسب ثقته ورضاه، حتى تدبر

أمرها بهدوء .

ومن ثم اقتربت منه ، ووضعت يدها على كتفه ، وهى واقفة إلى جواره وقال :

– « أين سنذهب الليلة ؟؟ » .

ابتسم فى سعادة وقال :

– « بالتأكيد لن نذهب إلى السينما ..» .

– « أعرف ..» .

قال :

– « إن فندق (مينا هاوس) فيه جلسة لطيفة للغاية ..» .

لم تكن تحب الفنادق كثيرًا ، إنها تضيق ذرعًا بالياقات المنشاة ، وملابس السهرة ، والحركات المرسومة ، والأضواء الخافتة والكؤوس ، وطبقة الأثرياء الذين يرمون بالأوراق المالية الكبيرة على الموائد دون اكتراث لا تدرى تمامًا لماذا ، لكنها تشعر بتأنيب الضمير وبالضيق ، لكن لابد أن تخطط وتدبر للخلاص منه ، ولن يتم ذلك إلا إذا جعلته يطمئن إليها تمامًا ، ويثق فيها ثقة مطلقة ، وهبّ عطوة واقفًا وهو يقول :

– « لماذا لا نذهب الآن ؟؟ » .

قالت أمها :

– « يجب أن تستريح من عناء السفر .. ويمكنكم الذهاب فى المساء ..» .

ودهشت الأم عندما سمعت ابنتها تقول :

– « بل أريد الذهاب يا أمى .. عطوة وحشنى جدًا ..» .

اتسعت ابتسامته ، بينما قالت الأم :

– « لكن ..» .

قال عطوة :

– « لكن ماذا يا حماتى ؟؟ » .

طأطأت الأم رأسها قائلة فى استسلام :
- « لا شىء ..» .
وعلقت نبيلة قائلة :
- « غدًا سأذهب إلى المدرسة .. ولن أفرغ من العمل واستدراك ما فات قبل أسبوع ، ولذا لابد أن أخرج الليلة ..» .
قال عطوة :
- « هذه المدرسة كالعقلة فى الزور .. لماذا لا تستقيلين ؟؟ » .
- « ذلك سابق لأوانه ..» .
كانت تجلس إلى جواره فى سيارته الأنيقة ، وبعد مسيرة دقائق قالت :
- « عطوة ..» .
- « عيون عطوة ..» .
- « لا أستطيع أن أرد لك طلبًا ..» .
- « أتقسم على ذلك » .
- « وحياتك عندى ..» .
وضعت ذراعها حول عنقه وقالت :
- « أريد أن أزور سلوى ..» .
- « سلوى ؟؟ من هذه ؟؟ » .
- « المعتقلة التى كانت معى ..» .
التفت إليها فى دهشة قائلاً :
- « وما الذى جعلك تفكرين فيها الآن ؟؟ » .
أرادت أن تستثير كبرياءه ، فقالت :
- « لقد وعدتها بذاك .. وقلت لها : إن خطيبى من الكبار .. فلم تصدقنى ..» .
ضحك عطوة وقال :
- « إنه نوع من التباهى والافتخار .. أعرف .. فأنا خبير بمشاعر

النساء .. حسنًا فلنذهب إلى السجن الحربى أولًا ..» .
قالت نبيلة :
– « هل هى هناك ؟؟ » .
– « لن نستطيع أن نعرف مكانها إلا من هناك ..» .
– « إنها فى المخابرات العامة ..» .
– « هذا مكان مؤقت لا يجلس فيه المعتقل إلا وقتًا قصيرًا ..» .

وانطلق بسيارته عبر « البوابة الكبيرة » .. الجنود يدقون الأرض بأحذيتهم الثقيلة ، ويرفعون أيديهم بالتحية ، والأبواب المغلقة تفتح على الفور ، والبروجى ينطلق ، ونبيلة تنظر إلى كل ذلك فى دهشة ، كان قلبها يدق بشدة ، ترى كيف حال سلوى الآن ؟ لقد أحبت هذه الفتاة ، ورق قلبها لها ، ولا يكاد يمر يوم إلا وتفكر فيها ..

عندما بلغت السيارة ساحة الحربى صدمت نبيلة بما رأت ، لم تكن تصدق ، هذا رجل معلق من قدميه ، ورأسه متدلى إلى أسفل ، وهناك حبل يمر على بكرة صغيرة يجذبه الجندى فيرتفع الضحية ، ثم يرسل الحبل ، فتسقط رأس المسكين فى حوض ماء ، فيتملل وتنبعث فقاعات الهواء إلى سطح الماءْ ، ويكاد يختنق ، وندت نبيلة صرخة عالية وهى تقول :
– « ما هذا ؟؟ الرجل سيموت ..» .
قال عطوة بصوت أجش :
– « اصمتى .. لا تفضحينا .. إنه يأبى أن يعترف ..» .
– « هذه وحشية .. أتوافق على ذلك يا عطوة ؟ » .
– « هذه أوامرى ..» .
– « مستحيل » .
– « الأمر يتعلق بأمن البلاد .. ومصر محاطة بالأعداء من كل جانب ..» .

وحانت منها التفاتة إلى الساحة الكبيرة ، فوجدت المجزرة قائمة

على قدم وساق، السياط تعلو وتهبط، والصراخ والأنين والاستغاثات تملأ المكان، والأجساد العارية تنزف دمًا أحمر .. أطالت النظر لحظات .. ثم سقطت مغشيًا عليها ..

وقهقه عطوة، وقال وهو يحملها إلى مكتبه :

– «النساء رقيقات القلوب ..» .

واستدعى لها الطبيب على الفور ..

كانت الكلاب تنبح وتنهش ..

وأصدر عطوة أوامره بالتوقف .. فساد الصمت والهدوء .. وانصرف الجنود وبقى المحققون والمعتقلون فى أماكنهم .. وما أن حقنها الطبيب حتى أفاقت بعض دقائق .. نظرت حولها فوجدت العيون تحاصرها .. هتفت :

– «ما هذا الذى تفعلون ؟؟» .

قال عطوة :

– «هذا يحدث دائمًا .. فى كل عصر .. وكل مكان ..» .

– «يا لتعاسة الإنسان !!» .

ضحك عطوة وقال :

– «من أى فيلم سمعت هذه العبارة .. لابد أنك سمعتيها من يوسف وهبى ممثلنا الكبير ..» .

ثم أمسكت بذراع عطوة قائلة :

– «لماذا تعيش فى هذا المكان يا عطوة ؟؟ هل هذا هو عمل الجيش الذى أنت أحد ضباطه ..» .

– «بالطبع .. فالجيش اليوم يحكم ويحارب ويحفظ الأمن، ويرعى كل نواحى الحياة فى مصر .. ألم تسمعى عن الثورة ؟؟» .

قالت فى استغراب !

– «الثورة ؟» .

– «نعم .. فالثورة هى تغيير شامل فى كل شىء .. لقد فشل

السابقون .. ونحن نصحح مسار الأحداث ..» .
أشارت بيدها إلى جموع الواقفين فى الساحة الحمراء وقالت :
– «وهؤلاء لم يكونوا حكامًا سابقين ..» .
– «أجل .. لكنهم يعترضون ..» .
– «وماذا فى ذلك ؟؟» .
– «فيه الخيانة والغدر وضياع البلد ..» .
– «من قال ذلك يا عطوة ؟؟» .
– «نحن ..» .
– «من أنتم ؟؟» .
– «أبناء الشعب المكلفون بحمايته ..» .
– «هؤلاء التعساء هم أيضًا أبناء الشعب ..» .
أمسك بيدها وضغط عليها فى حب وقال :
– «لو قال غيرك هذا الكلام لذبحته .. لا تقولى هذا الكلام أمام أحد ، من حسن حظك أن الرفاق انصرفوا فخلا لنا الجو .. حذار أن تشيعى مثل هذه الأفكار المدمرة ..» .
أغمضت عينيها ، وصمتت .. وجاءها صوته :
– «أتشربين شيئًا .. ؟» .
– «متشكرة .. أشعر بالغثيان .. هيا بنا ..» .
– «ماذا ؟؟ ألا تريدين رؤية سلوى ؟؟» .
– «أين هى ؟؟» .
– «انتظرى لحظات ..» .
وخرج عطوة ليبحث الأمر ، أطلت عبر باب المكتب المفتوح ، الأذلاء يقفون منكسى الرؤوس ، كسيرى النظرات ، يظللهم الحزن والأسى ، وبعضهم ملقى على الأرض دون حراك ، وغمغمت قائلة : «يا إلهى .. أيمكن أن يكون هذا طريق الرخاء والحب والحرية ؟؟ أى مجنون يمكن أن يقول هذا الكلام ؟؟ وكيف يصدق عاقل ذلك ؟؟ يخيل

إلىَّ أن خيوط مؤامرة كبرى تنسج فى هذا المكان ولا يمكن أن يكون الهدف منها سوى تدمير روح الشعب، ودفعه دفعًا للكفر بالمُثُل العليا .. يا للمصيبة !! لم أكن أعرف شيئًا عن هذا كله، وأنا التى تدرس التاريخ للجيل الجديد، وتعلمهم معانى الشجاعة والحرية والعدل .. وتثنى على الثوار ودورهم التاريخى الرائع ؟؟ أى جريمة كنت أرتكب؟ وهل أستطيع بعد الآن أن أقف فى الفصل، وأقوم بنفس الدور ؟؟ لقد كنت أعيش فى وهم كبير .. لقد طار النوم من عينى !! وكيف أنام بعد اليوم .. الصحافة تكذب .. والفنانون يكذبون .. والإذاعات تخدع الناس .. والحكّام يكذبون .. وأغلب الناس يضربون فى التيه حيارى، بعد أن ضلوا الطريق، وفقدوا المعالم، وضاع الهدف ..» .

ودخل عطوة وهو يقول :

– «لن ترى سلوى ..» .

هبَّت واقفة فى رعب وقالت :

– « هل ماتت ؟؟ » .

– «لا .. أفرجو عنها .. وهذا هو عنوانها ..» .

وألقى أمامها بشريط صغير من الورق، وما أن أمسكت بالورقة وأخذت تقرأ ما فيها حتى قال :

– «حذار أن تزوريها ..» .

رفعت رأسها قائلة :

– «لماذا ؟؟ » .

– « لأنها موضوعة تحت المراقبة ..» .

– «ما معنى ذلك ؟؟ » .

– «معناه أن كل من يحاول الاتصال بها يعرِّض نفسه للشبهات والخطر وقد يقبضون عليه ..» .

هزت رأسها متفكرة .. ثم فتحت حقيبة يدها ودست الورقة فيها وهى تقول :

– «لكن أحدًا لن يمسنى بسوء ما دمت خطيبة عطوة» .
انتشى بهذه الكلمات ، وقال :
– «بالضبط .. لكن سأقول لهم إنك من أنصارنا ..» .
– «ماذا تعنى ؟؟» .
– «أعنى أنك عين لنا ..» .
– «قل لهم ما شئت ..» .
أمسك بكتفها وقال :
– «ليس الأمر بهذه البساطة ، إنك ستدفعين الثمن ، سيكون على عاتقك مهمة كبرى ..» .
– «ماهى ؟؟» .
– «أن تكتبى تقريرًا مفصلًا عن كل ما يدور بينك وبين سلوى .. ستكونين بذلك من جهاز المخابرات الذى يخدم الرئيس ..» .
نظرت إليه وهى لا تكاد تصدق وقالت :
– «أترضى أن تكون زوجتك جاسوسة ؟! ..» .
قهقه عطوة وقال :
– «إنك بذلك تؤدين واجبًا مقدسًا لخدمة الوطن ..» .
نظرت إلى الساحة الحمراء عبر الباب المفتوح ، الرجال يقفون تحت الشمس شبه عراة ، هذه صفحة دامية من صفحات التاريخ ، صفحة كتبت حروفها بمداد الدم وبحبات العيون والقلوب ، وسمعت عطوة يقول :
– «فى البداية يبدو الأمر غريبًا شاذًا .. ستجدين صعوبة لا شك .. لأنك لم تتعودى مثل هذا العمل ، ولأنه يرتبط فى ذهنك بأحط الخلق والسلوك .. حسنًا .. جميعنا فى أول الأمر كنا هكذا .. لكن الزمن كفيل بتغيير أفكارك وستكونين فى منتهى السعادة عندما تتأكدين أنك تؤدين دورًا هامًا من أجل حماية الرئيس والوطن ..» .
تناولت حقيبتها وأخفت دمعة بللت أهدابها ، وقالت :

- « هيا بنا .. أريد أن أنام ..» .
- « ومينا هاوس ؟؟ » .
- « لابد من تأجيله للغد ..» .
- « إنك دائمًا متقلبة الرأى ، وهذا يغيظنى ..» .
- « أرجو أن تقبل عذرى ..» .
- «سأقبله لا من أجل خاطرك .. لكن لأن هناك اجتماعًا هامًا سيعقد الليلة على مستوى عال ، ولابد من حضورى ..» .

أمطرت السماء مطرًا خفيفًا كالدموع ، وكانت السحب تبدى تجهمًا واضحًا يوحى بالحزن والفراق والوداع ، والناس يهرولون فى الطريق وكأنهم يفرون من البرودة والمطر اللذين يلاحقانهم أينما ساروا .. وسلوى قابعة فى قلبها .. تبكى وتنظر بعينين خائفتين ، والرجل معلق من قدميه .. يتدلى عاجزًا مقهورًا يرى الموت أمام عينيه المتورمتين .. وهناك الكلاب تنطلق فى خفة ورشاقة .. كرشاقة الجنود والضباط وهم ينفذون الأوامر وتطلعت نبيلة عبر النافذة المبللة بالمطر صوب السماء .. لكن الصورة كانت غامضة متجهمة لا تنبىء عن شىء واضح ، أو توحى بأمل باسم ..

الفصل ١٦

لم تكن نبيلة تتوقع ما قالته أمها حينما عادت ، لقد أخبرتها أن رسالة عاجلة قد وردت من القصر الجمهورى يطلبون إليها أن توافيهم على عجل لأخذ أقوالها فى الرسالة الخاصة التى بعثت بها إلى الرئيس ، واضطربت نبيلة ، لعلها ندمت على إرسالها ذلك الخطاب ، لقد كتبت ما كتبت فى لحظة انفعال وضيق وتمرد ، يا للكارثة !! أتذهب مرة أخرى ، وتدور فى دوامة سين وجيم ؟ هذا أمر لم تعد تطيقه ، أو تصبر عليه ، أتتصل بعطوة مرة أخرى كى يكون إلى جوارها ، إنها فى مسيس الحاجة إليه الآن ، يبدو أن أمثاله قد أصبحوا ضرورة من ضرورات الحياة ، وإلا تعرضت لمشاكل لا حصر لها ، أقلها إهدار الكرامة ، وتهديد الأرزاق ، لكن لا ، لن تخبر عطوة بشىء مهما كان الأمر ، ستواجه مصيرها بشجاعة وليكن ما يكون ، إنها مواطنة ، وقد رأت أوضاعًا خاطئة ، تعتقد أنها ليست فى مصلحة الحاكم أو المحكومين ، وانطلاقًا من مبدأ الصدق والأمانة والخوف على مصلحة الوطن أرادت أن ترفع الأمر للرئيس نفسه ، أعلى سلطة فى البلاد ولو أن كل إنسان تقوقع على نفسه ، واعتصم بالصمت ، ليبعد عن نفسه المتاعب المتوقعة ، وليدرأ عن نفسه الشبهات ، لسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ، ولتراكمت الأخطاء ، وأدى ذلك إلى انفجار مروع لا يعلم إلا الله مداه ، وثم أقنعت نبيلة نفسها بضرورة ما فعلت وبمدى أهميته ، وأنها على صواب لا شك فيه ، وقالت لأمها :

- « ولماذا لم تخبرينى فور وصولى .. ؟ » .
- « كان عطوة موجودًا .. ولم أشأ أن أتكلم أمامه .. » .
- « وما الحل الآن ؟؟ » .

قالت أمها :

– «لقد تركوا لنا رقم تليفون للاتصال بهم كي يحددوا الموعد » .

– والتقطت نبيلة الرقم ، وأدارت قرص التليفون ، وقدّمت نفسها ، فعلمت منهم أن الموعد غدًا فى الساعة الحادية عشرة صباحًا .

قال أبوها فى خوف :

– «لم يكن هناك ضرورة لما فعلت يا ابنتى وأرى أن نشرح الأمر لعطوة قبل فوات الأوان ..» .

هبّ نبيلة محتجة :

– « لا أريد ذلك ..» .

– «لماذا يا ابنتى ؟؟ ألم ينقذك بالأمس القريب ..» .

– « أجل .. لكنى هذه المرة إما أن أنقذ نفسى أو أذهب بلا عودة .. ولماذا أخاف ؟؟ أنا لم أرتكب جرمًا يا أبى » .

– « الناس اليوم يا فتاتى يساقون إلى الموت لمجرد الشبهة ..» .

– « إننى أوضح أمرًا خطيرًا .. ولن يصعب علىّ تقديم الدليل ..» .

ابتسم أبوها فى مرارة وقال :

– « الدليل ؟؟ » .

– «نعم .. ما على المسئولين إلا أن يذهبوا إلى المخابرات العامة أو السجن الحربى ليروا كيف تنتهك آدمية الإنسان ..» .

ربت أبوها على رأسها فى حنان وقال :

– « أتعتقدين أن الجلادين يفعلون ذلك دون أمر عال ؟؟ » .

– « إنه شىء لا يصدق ..» .

تنهد الأب فى حزن وقال :

– «رحم الله الإمام محمد عبده فقد كان يقول : لعن الله السياسة وساس ويسوس وما اشتق منها ..» .

قالت نبيلة فى إصرار :

– «نحن لا نعيش وراء الستار الحديدى حيث العالم

الشيوعى ..» .

– «دعك من الأسماء والشعارات، فإن ما يجرى اليوم صورة صارخة للظلم لا مثيل فى أى مكان ..» .

قالت الأم وعيناها مبللتان بالدموع :

– «كنا نعيش فى هدوء، ما الذى جرّ علينا هذا الوبال كله يا ربى؟؟» .

علق الأب فى استسلام :

– «هذا قضاء الله وقدره، نحن لم نفعل شيئًا يوجب كل ذلك ..» .

وآوت نبيلة إلى غرفتها، كانت على شوق إليها، ومع ذلك فقد نظرت إلى أرفف الكتب، وكراسات التحضير المدرسى، واسطوانات الموسيقى نظرة كلها ملل وعزوف، وتذكرت الطبيب، وسرعان ما انطلقت صوب التليفون، كان الدكتور سالم فى عيادته، لقد بدا واضحًا فى صوته أنه سعيد بعودتها، وأخذ يستفسر عن حالتها الصحية والنفسية فى لهفة، وأخيرًا اتفقت معه على زيارته على الفور .. كانت أمها معترضة، وتطلب منها أن تستريح بعض الوقت، لكن نبيلة كانت قلقة متوترة، لا تستطيع الجلوس أو النوم أو التسلى بالقراءة أو سماع الموسيقى، وفى دقائق معدودة كانت فى طريقها إلى الطبيب .

نظر إليها الطبيب نظرة فاحصة وقال :

– «حمدًا لله على سلامتك .. أراك أحسن حالاً ..» .

قالت وهى تجلس قبالته، وتعبث فى مقبض حقيبتها بعصبية :

– «لا أظن ..» .

– «إن الشكل العام يوحى بأنك أفضل من ذى قبل ..» .

– «لم تزل المشاكل آخذة بخناقى ..» .

قال فى أسى :

– «يجب أن تتقبليها كأمر واقع وتعيشيها ..» .

رددت فى دهشة :
– « أهذا هو العلاج ؟؟ » .
– « بعض العقاقير يا آنستى لا توجد فى الصيدليات ..» .
– « أستطيع أن أشتريها من الخارج ..» .
– « لا أقصد العقاقير الطبية ..» .
– « ماذا تقصد إذن يا دكتور ؟؟ » .
– « الأمن النفسى .. إنه لا يباع .. ولا يشترى » .
هزت رأسها وفهمت ما يرمى إليه ، واستطرد الدكتور سالم قائلاً :
– « لقد خلقه الله حقًا مباحًا للجميع .. كالماء والهواء .. لكن بعض الحكام يغلقون عليه خزائنهم .. يسجنونه ..» .
قالت فى غضب :
– « إنه ظلم وخيانة وتَعدٍ على حق الله ..» .
أشار بيده قائلاً :
– « أرجوك .. الحيطان لها آذان » .
هدرت فى حنق :
– « ولماذا نسكت ؟؟ » .
– « لو سكت الناس لما امتلأت السجون بالشرفاء ..» .
وأخذت تروى له ما شاهدته فى السجن الحربى من أهوال ، وما فعله عطوة بك بها ، والظروف الصعبة التى عانت منها طوال الأسبوعين الماضيين ، ثم قالت وهى تكاد تبكى :
– « لن أتزوج عطوة ..» .
نظر إليها فى دهشة وقال :
– « ستدفعين الثمن غاليًا ..» .
– « حتى لو دفعت حياتى ..» .
– « لا يصح أن تدفعى حياتك لأمر بسيط كهذا ..» .
– « إنه أبشع من الموت » .

قال الطبيب بعد أن صمت لحظات مفكرًا :
– «لدىَّ حل» .
هبَّت واقفة ، واقتربت منه ، وأمسكت بكُمّ معطفه الأبيض الناصع النظيف وقالت متوسلة :
– «ما هو ؟؟» .
قال وهو يلف سماعته على سبابته اليمنى :
– «الرحيل» .
– «إلى أين يا دكتور ؟» .
– «إلى الخارج .. لفترة تستطيعين فيها أن تسترجعى هدوء البال والاستقرار النفسى المفقود .. وأيضًا ستفلتين من عطوة ..» .
ودارت نبيلة بنظارتها فى أرجاء المكان ، وأطلت عبر النافذة حيث المبانى الشامخة والمآذن والقباب ومداخن المصانع ، والسماء الرحبة الزرقاء ، وغمغمت قائلة :
– «هذه فكرة رائعة ..» .
– «لكن هناك أمورًا لابد من التفكير فيها ..» .
– «ما هى ؟؟» .
– «لا بد من موافقة جهة العمل أولاً ، ومكتب الأمن ثانيًا» .
– «فعلاً هذه مشكلة ..» .
وطرقع الطبيب بأصابعه قائلاً :
– «أليس لديك بطاقة جامعية ؟؟» .
– «لماذا ؟؟» .
– «لو أن لديك بطاقة لأمكنك أن تستخرجى جواز سفر دون أن تشيرى فيه إلى أنك موظفة ، بل سيكتبون فى خانة المهنة «طالبة» .. ولدىَّ صديق بالجوازات يمكن أن يقدم لك بعض المساعدات ..» .
قالت نبيلة فى فرح :
– «فكرة مدهشة .. فعلاً لدى بطاقة جامعية للدراسات العليا ..» .

– « ممكن أن يتم ذلك إذا لم تعترض جهات الأمن على سفرك ..» .

– « أعتقد أن عطوة قد محا كل ما يتعلق بهذا الأمر ..» .

قال الطبيب :

– « لي قريب في الكويت ، وفي الإمكان أن يرسل إليك بطاقة دعوة للزيارة ، وسوف يتكفل بإيجاد فرصة عمل لك هناك ..» .

بينما كانت نبيلة تقلب الأمر على شتى جوانبه ، جاءها صوت الدكتور سالم محذرًا :

– « لكن لا يصح أن يعلم أحد بالأمر .. حتى الأهل ..» .

هزت رأسها موافقة ، بينما استطرد الطبيب ..

– « إنك لن تستطيعي أن تتخلصي من كل همومك النفسية في هذا الجو المشحون بالأسى والقلق .. وعلاجك هو السفر إلى الخارج ، ولا يصح أن تعودي من الخارج إلا إذا ..» .

قالت في هدوء :

– « إلا إذا تغيرت الأحوال » .

ثم هزت كتفيها في يأس وقالت :

– « يبدو أن التغيير بعيد المنال .. إنهم يسيطرون على كل شيء .. لقد دانت لهم البلد بكاملها ..» .

ثم استطردت ، وهي تتطلع إلى القاهرة الكبرى عبر النافذة المفتوحة :

– « ولن أسافر قبل أن أذهب إلى القصر .. وإلى سلوى ..» .

وشرحت نبيلة للطبيب قصة الخطاب الذي بعثت به إلى الرئيس ، والموعد المضروب غدًا ، وضرورة زيارتها للمسكينة سلوى التي تم الإفراج عنها قريبًا ، فأوصاها الطبيب بالحذر التام ، وبضرورة اكتساب ثقة عطوة ، حتى تنجح الخطة ، وتنجو من بين براثنه ، وبينما كان الدكتور سالم يقدم لها نصائحه الثمينة ، قفز إلى ذهنها سؤال :

– « لماذا لا تسافر أنت الآخر يا دكتور ؟؟ » .

– «كان فى إمكانى أن أفعل ، لكنى اعتذرت ..» .
– « ألا تخاف على نفسك ؟؟ » .
ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال :
– «حسنًا .. كيف تكون حال البلد لو هاجر منها كل الأحرار والشرفاء .. سيبقى ملايين من الناس لا يجدون من يقف إلى جوارهم .. أنا باق هنا لأؤدى رسالتى فى الطب وغير الطب .. ألا تعلمين أن لى أخًا قد صدر ضده حكم بالأشغال المؤبدة من محكمة الشعب .. » .
هتفت فى انبهار :
– «أخوك ؟؟ » .
– «نعم .. لا توجد أسرة إلا وأصابها قدر من ظلم أو هوان ..» .
وبدا الطبيب أمام عينيها عملاقًا أسطوريًا أقوى من الخوف والموت وجبروت الحاكمين ، وأيقنت أن الاستسلام الشعبى الظاهر وراءه نار تحت الرماد لن تخمد جمراتها بعد ، وأن الصمود فى أحلك أيام اليأس التعسة هو أروع آيات البطولة ، فهتفت فى إصرار :
– «لن أسافر ..» .
اقترب منها الطبيب وقال :
– «مستحيل ..» .
– « ولماذا أنت تبقى ؟! » .
– «كل له مكانه ودوره ..» .
– « ودورى أنا الهروب ..» .
– « أبدًا .. سوف تجدينهم فى الخارج لا يكفون عن العمل ليل نهار من أجل قضية الحرية .. سيكون لديك المال والقلم وحرية الحركة .. والوقت مناسب دونما ضغوط أو تهديد .. وكل ميسر لما خلق له .. أنا هنا .. وأنتم هناك ، لابد أن تستقيم الأمور على هذا النحو .. هل اقتنعت ؟! » .

هزت رأسها قائلة :
– «نعم ..» .
وشرد الطبيب بضع لحظات وقال :
– «وبعد فترة .. طالت أم قصرت .. سوف تعودين .. وسترين راية خضراء تخفق فى السماء مكتوبًا عليها بأحرف من نور: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ..» .
غمغمت :
– «تمنيت أن أسافر الآن .. إننى أتخيل عالمًا من الحرية والحب والسلام .. لا رقابة فيه .. ولا سياط ولا كلاب .. ولا عطوة ولا معتقلات .. إنه عالم الأحلام الملىء بالورود والرياحين والكلمات الحلوة .. والكرامة ..» .
قال الدكتور سالم محذرًا :
– «لكن لا تنساقى وراء الأحلام الوردية .. وتذكرى أن عليك واجبًا .. وأن على أرض الوطن ملايين يساقون كما تساق الأغنام وأبشع ..» .
– «أعرف ..» .
– «وكما أن الرسول– صلى الله عليه وسلم– لم ينتصر على أعدائه بالدعاء والصلوات وحدهما بل بالعمل والجهاد والعرق والدماء .. فكذلك فى كل عصر .. لابد من التضحيات ..» .
– «أعرف ..» .
– «بالطبع .. فأنت مدرسة تاريخ ..» .
عادت تتطلع إلى النافذة وتقول :
– «التاريخ !!! كنت أقرؤه كقصة طريفة شائقة حلوة .. وكنت أطرف لما فيه من أحداث .. أما اليوم فقد تيقنت أن التاريخ شىء آخر .. إنه تجربة حية مشتعلة لم تخمد ألسنة اللهب فيها برغم مرور القرون .. لم يكن التاريخ أحداثًا متسلسلة تتواكب فى هدوء .. بل كان

صراعًا داميًا مريرًا، ومقدمات ونتائج .. وتغيير جذرى فى واقع الحياة ..» .

ابتسم الطبيب قائلًا :

– «المرضى ينتظرون» .

– «سأنصرف .. لقد أخذت الكثير من وقتك الثمين .. لكن يجب أن تكون سعيدًا، لقد قدمت لى الدواء الناجح ..» .

– «أرجو ذلك ..» .

وصافحته وانصرفت، خرجت من عيادته خلقًا جديدًا، لقد مرت تجربة القلق والعذاب والانصهار، وبعدها تم التشكيل والتكييف، ولماذا تخاف نبيلة ؟؟ إن أقصى ما ينتظرها هو الموت، وهى لم تعد تخاف الموت، لقد اكتشفت نفسها، وعرفت طريقها، وهذا أروع ما كسبته فى حياتها .

دقت الباب، وبعد دقيقتين انفرج عن وجه تعرفه، إنها سلوى لقد ذهبت الكدمات والجروح، وصار وجهها الشاحب صفحة نقية من الطهر والنقاء والرضا، وهتفت سلوى وقد تدفقت الفرحة من عينيها :

– «أنت ؟؟» .

وأدخلتها على الفور، وعادت سلوى تقول :

– «لقد أخطأت خطأ كبيرًا بحضورك إلىّ ..» .

– «لماذا ؟؟» .

– «إنهم يراقبون البيت ..» .

– «كنت حذرة .. لم أر أحدًا يحوم حول البيت» .

تنهدت سلوى قائلة :

– «أنت طيبة القلب .. البقال يراقبنى .. والكواء أيضًا .. من يدرى؟؟ ربما يكون بعض الجيران يقومون بنفس المهمة، أنا لا أزور ولا أزار» .

قالت نبيلة :

- « سلمى الأمر لله .. كيف حال صابر » .
- « نائم ..» .
- « وزوجك » .
- « لم تعد ترد منه رسائل .. يبدو أن الحكومة تستولى على الرسائل والشيكات التى يرسلها إلىّ » .
- « ولماذا لا تسافرين إليه ؟؟ » .
- « كان هذا هو المتفق عليه ، لكن المسئولين منعونى » .
- « بأى حق ؟؟ » .
نظرت إليها فى حزن وقالت :
- « وهل يجرؤ أحد على سؤالهم ؟؟ » .
- « وكيف تعيشين إذن ؟؟ » .
- « أخدم فى البيوت .. أغسل .. أكنس .. أطبخ .. أى شىء » .
قالت نبيلة فى حنق :
- « إجرام منهم » .
زفرت سلوى فى ألم :
- « ليس هذا فحسب ، بل إنهم طاردونى أينما ذهبت .. إذ سرعان ما يطردنى أصحاب البيوت بتحريض منهم .. لست أدرى ماذا تريد الحكومة منى .. وأنا لست طرفًا فى النزاع » .
فتحت نبيلة حقيبة يدها وقالت وهى تمسك ببعض الأوراق المالية :
- « خذى هذا » .
- « مستحيل » .
- « إنه حقك .. ولا تحملى همًا بعد اليوم .. سأتكفل بك منذ الساعة » .
قالت سلوى وهى ترجع إليها النقود :
- « أنت لا تفهميننى .. إنهم يفتشون البيت من آن لآخر ، وإذا وجدوا معى مالًا فسوف يشكون فى أن أحدًا من الإخوان يقدم لى بعض

الإعانات » .

قالت نبيلة :

– « وماذا فى ذلك ؟؟ الناس يساعد بعضهم بعضًا » .

ابتسمت سلوى فى مرارة وقالت :

– « سوف يسألوننى عن مصدر التمويل ، وإذا لم أخبرهم تكفلت السياط بإنطاقى .. وأنا امرأة ضعيفة لا أتحمل السياط لمدة طويلة .. قد أعترف عليك وأسبّب لك المتاعب .. فوفرى على نفسك .. ووفرى علىّ » .

أعادت نبيلة إليها المبلغ قائلة :

– « اعترفى علىّ .. لا يهمك .. لسوف أسافر .. ولن يستطيعوا أن يصلوا إلىّ .. وبعد أن أسافر سادبر لك الأمر بطريقة بعيدة عن الشكوك .. اطمئنى » .

أخذت سلوى النقود ، ثم دمعت عيناها ، واحتضنت نبيلة فى عاطفة جياشة ، وأخذت تقول من بين دموعها :

– « أتدرين لماذا أفرجوا عنى ؟؟ لكى يتتبعوا خطواتى ، ويكتشفوا أى حلقة للاتصال بينى وبين زوجى .. جعلوا منى مصيدة لأهل النخوة والخير .. إنهم يريدون أن يحيلوا البلاد إلى غابة للضباع والضوارى .. منهم لله » .

وعادت نبيلة إلى بيتها منهوكة القوى ، تشعر برغبة جارفة فى النوم .

الفصل ١٧

كانت نبيلة تفكر فى الأحداث المتلاحقة التى مرت بها فى الأيام الماضية ، إن هذه الأحداث قد رفعت الغشاوة عن عينيها ، إن أبسط وصف لها هو أنها كانت تعيش فى غفلة ، لم تكد تدرى حقيقة ما يجرى حولها ، كانت تعمل ، وتأكل وتشرب وتنام ، وتقرأ الكتب ، وتسمع الموسيقى ، وتفتح قلبها للحياة والحب ، بقلق أو ملل ، كانت حياة هادئة جميلة لا يعكر صفوها شىء ، ويوم أن عرفت عطوة ، انقلب كل شىء رأسًا على عقب ، لقد اكتشفت عالمًا آخر ، غريب غاية الغرابة ، عالمًا كعالم الليل بما فيه من غموض وغدر وخوف وأحلام مزعجة ، لا شك أنها كانت بالأمس سعيدة فى غفلتها ، أما بعد أن انزلقت قدمها إلى العالم الشائك المثير الجديد ، فقد فقدت معنى الراحة والاستقرار ، وعرفت القلق والعذاب النفسى والتفكير المضنى ، إن المعرفة بذلك العهد الجديد ، قد خلقتها خلقًا آخر ، وجعلتها تستشعر واجبات والتزامات لم تكن تخطر لها على بال ، والعجيب أنها ليست نادمة أو ساخطة على كل ما جرى ، إنها تعتبر ذلك ثمنًا للمعرفة ، إن التجربة مُرَّة ، لكنها مفيدة ومثيرة ، ومبهظة ، لكن الذى آلمها حقيقة أنها جرَّت أهلها إلى المشاركة فى هذه التجربة القاسية ، وقد كانت حريصة كل الحرص على حماية أمها المريضة ، وأبيها العجوز ، وأسرتها السعيدة التى تنعم بالحب ، والاستقرار ، وفكرت فى هذه الليلة بالذات أن تقتل عطوة ، وأخذت تفكر وتدبر وتعد العدة للساعة الفاصلة ، وقضت وقتًا طويلًا من الليل فى دراسة هذا الموضوع ، لأن زيارتها للسجن الحربى قد أقنعتها أن عطوة ورفاقه مجموعة من القتلة الأوباش ، وأنهم قد تجردوا من كل

إنسانية ورحمة مهما كانت المبررات والأسباب، فلو فرضت أن الإخوان المسلمين مجرمون– وهذا فرض جائر– لو فرضت ذلك، لما كان من العدل أن يعاملوا هذه المعاملة التى لم ير لها الشعب مثيلًا فى تاريخه، سواء من الإنجليز من المستعمرين، أو الصهيونية العالمية المنحرفة، فما بالك بإخوة فى الوطن يفعلون تلك الأفاعيل الشنيعة !!

لكنها أيقنت فى النهاية أن قتل فرد أو أكثر لم يغير من الواقع شيئًا، إنه نظام بأكمله قد اتخذ الظلم طريقًا، والتصفية الجسدية والنفسية أسلوبًا، ومثل هذا النظام يستطيع أن يجند الألوف بل مئات الألوف لارتكاب الجرائم المتنوعة فى حق الأبرياء والشرفاء، فالتنافر دائم بين الخير والشر، وبين العدل والظلم، والمعركة أزلية منذ قابيل وهابيل، والوباء إذا حل بأرض، لن يجدى معه عزل مريض أو عشرة، ولكن التغيير الشامل هو القوة الحقيقية الضاربة التى تستطيع أن تعيد الاتساق والإشراق إلى وجه الحياة .. إن عطوة مثل قطعة السلاح العمياء التى يستوردونها من الخارج، وهو أداة يحركها الظلم حسبما يهوى، ويصوبها إلى الهدف الذى يريد، ولو قطعت الأيدى الغاشمة المتوحشة التى تحمل الموت والدمار، وتسدد قذيفتها إلى صدور الأبرياء، لانتفى الشر، وسقط عرش الظلم .. وكل نظام فاسد– حسبما تعلمت من التاريخ– يحمل فى ثناياه عوامل فنائه وانهياره .. والشر قوة .. وكلمة .. وتنظيم، ولن يقهر إلا بسلاح القوة .. والكلمة .. والتنظيم .. لكن السيل الجارف الرهيب يتدفق فى سرعة مذهلة، حاملًا شروره ومآثمه، ولا يمكن فى الوقت الراهن تجنب كارثة مروعة ستحدث حتمًا .. هكذا يحدثها قلبها ..

ونهضت نبيلة من سريرها، وهى أشد ما تكون إرهاقًا وأسى، لكن عليها أن تتماسك وتذهب إلى الموعد المضروب فى القصر الجمهورى، عليها أن تعتصم بالكياسة واللين والدهاء، وإلا فتحت على نفسها بابًا من المشاكل قد يعوق تحركاتها فى المستقبل، فتحرم

من السفر ، وتبقى بين براثن الشيطان إلى الأبد ، فيفترسها عطوة ، ويدمر أحلامها وأمنياتها فى المستقبل الوارف الوادع الذى تنشده ..
وقبل الموعد بربع ساعة كانت هناك .. استقبلها أحد الرجال هناك ، قال لها :
– « خيرًا .. ماذا تريدين ؟؟ » .
– « أريد مقابلة الرئيس ..» .
– « هكذا دفعة واحدة ..» .
– « إنه زعيم الشعب .. وأنا واحدة من هذا الشعب .. ولقد قال أن بابه مفتوح دائمًا ..» .
قال الرجل :
– « بالطبع .. لكن ..» .
– «لكن ماذا ؟؟ » .
– « أريد أن أعرف السبب أولًا ..» .
– «سأقوله له ..» .
– « حسنًا .. لا يمكن أن تقابليه إلا إذا سجلت ما تريدين فى ورقة وأدخلناها له .. تلك هى الأوامر .. وإلا فلا مقابلة ..» .
أخرجت نبيلة ورقة على الفور ، وسجّلت عليها موجزًا لما تريد أن تحادث الرئيس فيه ، تناول الرجل الورقة ، وقرأها متمعنًا ثم قال :
– «تقولين إنك من المخلصين للثورة والرئيس ..» .
– «بكل تأكيد ..» .
– «لكن إيمانك بالرئيس ، يفرض عليك التزامًا ..» .
– «ما هو ؟؟ » .
– «أن تثقى فى سلامة تصرفات القيادة وتقبليها دون مناقشة ..» .
– «لكنى أعتقد أن أوامر الرئيس تنفذ بطريقة خاطئة ، وبأسلوب مبالغ فيه ..» .

ابتسم الرجل فى ود وقال :
- « لا يجرؤ أحد على فعل ذلك ..» .
- «لكنه يحدث دائمًا .. هل زرت الحربى ؟؟ هل دخلت يومًا مبنى المخابرات العامة ؟؟» .
- « بالطبع .. فنحن دائمو الاتصال بهم ..» .
- « إذن تعرفون ما يجرى هناك ؟!! ..» .
- « لا شك ..» .
نظرت إليه نبيلة فى شىء من الدهشة ، قال :
- « وللعلم فقد قرأ الرئيس نفسه رسالتك بإمعان ووضع خطوطًا حمراء تحت بعض فقراتها ، إنه لا يهمل أية رسالة ترد إليه ، وهو يرحب بأى رأى يقرؤه أو يسمعه أيما ترحيب ، ويستفيد منه بطريقته الخاصة .. أنت لا تعرفين ماذا كان فى نية الإخوان المسلمين ، كانوا يريدون قتل الرئيس .. وتدمير البلد .. والاستيلاء على السلطة .. والاستناد إلى التعصب الأعمى والجمود والفوضى .. أكنت تتوقعين أن أوروبا أو أمريكا أو روسيا سوف ترضى بأن يثبوا إلى الحكم ؟؟ إن نجاحهم كان معناه القضاء على حرية الوطن ، والسقوط فى أيدى استعمار لا يرحم .. وليس من المعقول أن أعامل بالرفق واللين من أرادوا قتلى ..» .
قالت نبيلة :
- « ولماذا لا يحاكمون محاكمة عادية .. ؟!» .
- « فى حالة الحروب الأهلية .. أو تعرُّض أمن البلاد للخطر لا تجدى المحاكمات العادية ..» .
- « لم تكن هناك حرب أهلية ..» .
- « لقد أجهضناها .. لم يكن من المعقول أن ننتظر حتى تحدث ..» .
- « لكن هناك أبرياء .. أنا أعرف ..» .

- «بطبيعة الحال .. لأن مثل هذه الفتن قد تعصف ببعض الأبرياء .. لكن الأمور سوف تتضح فيما بعد ..» .

تململت نبيلة فى مجلسها ، وأخذت تفرك أصابعها فى توتر ثم قالت :

- «ولماذا لا نناقش أفكارهم ؟؟» .

- «أفكارهم فى مظهرها مقبولة .. هم يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية .. ولا يستطيع أحد أن يقول لا ..» .

- «إذن هم على حق ..» .

- «ليس الأمر بهذه البساطة .. هناك اعتبارات عديدة لا يمكن تجاهلها ..» .

- «هل أستطيع معرفتها ؟؟ ..» .

ابتسم الرجل وقال :

- «ليست هذه هى القضية ..» .

- «ما القضية إذن ؟؟» .

- «التمرد المسلح .. نحن لا نسمح به لأى سبب .. ولهذا نحن نقاوم الأسلوب الخاطىء أو الجانب السياسى فى حركتهم .. كلنا مسلمون .. أليس كذلك ؟؟» .

أدركت ما فى كلام الرجل من تحريف وزيف وكذب ، فهى تعلم أن الإخوان لم يبدأوا بالعدوان ، وتعلم أن الرئيس كان له علاقة سابقة بهم ، وأنهم وضعوا أيديهم فى أيدى الثورة فى البداية ، بل كان لهم أعضاء بارزون فى مجلس القيادة الأول ، وكان هذا التعاون على أساس إطلاق الحريات للشعب ، وفتح الطريق أمام عزلة الدستور الإلهى كى يحكم ويسود ، حتى تتحقق العدالة للجميع ، لكن الثورة غدرت بهم .. اعتقلتهم مرارًا .. ضيقت عليهم الخناق .. حاربتهم فى أرزاقهم .. كممت أفواههم .. دبرت لهم المكيدة تلو المكيدة .. كما ثبت من التحقيق أن المرشد العام لم يكن يعلم شيئًا عن حادث المنشية ،

وأن باقى التنظيمات والقيادات لا علم لها بشىء ، وأن الحادث مقصور على بضعة نفر أسرعت الحكومة بمحاكمتهم وشنقهم دون أن تتجلى الحقيقة ، فالحادث يشوبه غموض كبير ، وعلى أسوأ الاحتمالات فإن هذه المجموعة الصغيرة إذا كانت قد دبرت ذلك الحادث فعلاً ، فلا معنى لهذه الحملة الشرسة التى عمت الجميع ، ولا تلك الإبادة الشاملة التى هزمت أعمدة الحق والحرية فى قلب مصر ، بل وفى قلب العالم الإسلامى كله .. بل إن صحافة العالم الحر وإذاعاته قد أدانت ذلك التصرف إدانة تامة ، لما أقدم عليه حكام مصر من قسوة بالغة ، وعنف لا مثيل له .. ثم إن أفكار الجماعة لم يسمح بمناقشتها المناقشة السليمة ، وأصبح المتهم لا يجد فرصة للتعبير عن وجهة نظره ..

أدركت نبيلة كل ذلك وأكثر منه ، لكنها شعرت أن بينها وبين السقوط فى هوة هؤلاء الظالمين شعرة ، ولهذا أعادت حساباتها بدقة وسرعة وذكاء ، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة مصطنعة وقالت :

– « الآن فهمت ..» .

– « أرجو أن تكونى قد اقتنعت ..» .

– « تمام الاقتناع ..» .

– « هذا لا يكفى ..» .

قالت نبيلة فى اهتمام :

– « ماذا بعد ؟؟ » .

– « أنت من جيل الثورة ، وعليك مسئولية كبرى ، ويجب أن توضحى الأمور لكل من لك بهم صلة ..» .

فقهقهت ، فنظر إليها الرجل فى دهشة ، وهتف :

– « لماذا تضحكين ؟؟ » .

مالت على أذنه هامسة :

– « أنا ضمن التنظيم الشعبى الذى يحمى الثورة .. وأتعاون مع المخابرات ..» .

قهقه الرجل هو الآخر وقال وهو يصافحها :

– « ولماذا لم تقولى ذلك منذ البداية ؟؟ » .

– « ألم يخبركم عطوة ؟؟ إنه خطيبى ..» .

ابتسم الرجل وغمز بعينه قائلًا :

– « نعرف كل شىء .. ولقد علم الرئيس بما يجرى لك .. وسوف يعاتب عطوة عتابًا مرًا .. إن ما جرى لك مجرد مزحة ثقيلة .» .

توترت أعصابها ، ونظرت إليه فى اهتمام قائلة :

– « ماذا تعنى ؟؟ » .

– « هذه لعبة من عطوة .. بعد أن تمنعت عليه .. أراد أن يلقنك درسًا حتى تستسلمى له، فدبَّر الأمر مع أصدقائه من رجال المخابرات الذين قبضوا عليك .. لقد ضحكنا كثيرًا لما حدث .. عطوة أحمق .. ومخه ضيق .. نحن نعرفه .. ولذلك لا نحاسبه على حماقته .. بل تكون عادة مادة للضحك والتسلية ..» .

أغمضت عينها ، دارت رأسها ، لم تكن تصدق ما تسمع ، لكنها يجب أن تكمل المسرحية حتى نهايتها ففتحت عينيها وقالت :

– « لا أسمح لك بأن تسخر من خطيبى ..» .

– « أنا لا أسخر منه .. وسوف نلتقى معًا .. وستكونين معنا وسنقضى ليلة ممتعة ونحن نستعيد ما حدث منه بالنسبة لك .. إنه ظريف برغم كل شىء ، والرئيس يحبه ..» .

كظمت دمعة كادت تفلت من بين أهدابها ، وغمغمت بصوت غير مسموع « كلب .. حقير » كان الرجل مشغول آنذاك بالرد على مكالمة تليفونية، وعندما عاد ، اقترب منها ، وربت على كتفها فى مودة وقال :

– « والآن ، ما رأيك ؟؟ » .

– « ألن أقابل الرئيس ؟؟ » .

– « ممكن بعد ثلاثة أيام .. لأنه غير موجود .. لكنى أعتقد أنه لا

مبرر لذلك وسيكون فى المستقبل أمامك فرص كثيرة للقائه .. فأنت زوجة أحد الرجال المخلصين .. المرموقين ..» .

ثم ضحك وهو يقول :

- « والمشاغبين الظرفاء أيضًا ..» .

- « إنها فرصة العمر .. يسعدنى أن أراه ..» .

قال الرجل وهو يضغط على زرار فى جهاز صغير :

- « أتريدين أن تسمعى صوتك ؟؟ » .

وكم كانت دهشتها عندما سمعت كلامها مسجلًا بحذافيره وعلى الرغم من سخطها وغضبها إلا أنها قالت :

- «لم أكن أعرف أن صوتى جميل إلى هذه الدرجة ..» .

قال الرجل :

- «وسوف يسمعه الرئيس نفسه ..» .

قالت فى توسل :

- « أريد أن أضيف بضع كلمات ..» .

- «تكلمى ..» .

تنحنحت وانتظرت حتى أعاد الجهاز وقالت :

- « إن الرئيس هو الأمنية التى خفقت بها قلوب الملايين منذ فجر التاريخ .. وهو الأمل الذى داعب خيال التعساء والمحرومين والمظلومين منذ مئات السنين، سِرْ أيها الزعيم الخالد ونحن وراءك .. قلوبنا ترعاك .. وشفاهنا تلهج بالدعاء لك .. فأنت أول حاكم مصرى صميم يحكم البلاد منذ آلاف السنين ..» .

ولم تستطع أن تكمل، فقد انهارت باكية، كانت تريد عكس ذلك بالضبط .. كانت تريد أن تندب المحزونين المقهورين فى المجزرة الهائلة فى السجن الحربى، وتريد أن تبكى ضيعة الحق، وحياة العبيد، وعالم النفاق والكذب الذى يساق إليه الناس سوقًا كما يحدث لها الآن .

وقال الرجل :

– «لقد جرفك الحماس فعلاً .. سوف يسعد الرئيس لسماعك .. وأنا واثق أنك سوف تنالين منصبًا كبيرًا فى أقرب فرصة .. ولا تنسى الحلاوة ..» .

وقالت نبيلة وهى تجفف دموعها :

– «أرجو ألا تخبر عطوة بشىء .. فلو علم بما جرى لتخلى عنى ..» .

– «لن يستطيع ..» .

– «كيف ؟؟» .

– «يخاف من غضب الرئيس عليه ..» .

– «هل سيبقى على علاقته بى ؟» .

– «لا شك فى ذلك ..» .

وأشعل الرجل سيجارة من نوع «الكنت» وقال :

– «ومع ذلك فسوف أحقق لك ما تريدين .. لن أخبر عطوة ..» .

– «لا تجعله يعرف أننى كشفت مزاحه فى المخابرات ..» .

– «هذا أمر متروك للرئيس نفسه .. أما بالنسبة لى فلن أتكلم ..» .

هبّت واقفة وقالت وهى تلوح بيدها :

– «باى .. باى ..» .

كانت تمضى على غير هدى ، شعرت برغبة جارفة فى السير على قدميها ، الرصيف مكتظ بالبشر ، وواجهات المحلات التجارية مرصعة بأفخم البضائع وأغلاها ، والسيارات تملأ الشوارع بالضجيج وكلمات الغزل تطاردها حتى من الصبية المتسولين النائمين جوار الجدران بأرديتهم المتسخة ، وشعورهم الرثة المتشعثة ، وأقدامهم الحافية ، أما ما جرى منذ لحظات كان أمرًا عجيبًا ، لقد كان كلامها خليطًا من التمرد والنقد الشديد ، ومن الاستسلام والتوسل وكسب الثقة ، اضطرب كل شىء فى ذهنها ، وتشعر أن ساقيها لا تكادان تحملانها ، لكنها

تتماسك، وتسرع الخطى، وكأنها تفر من وباء يطاردها أيمكن أن يكونوا قد بعثوا خلفها بمخبر يتجسس عليها، ووجدت سيارة «أتوبيس» واقفة أمام إشارة المرور وتوشك أن تتحرك، وقذفت بنفسها أمامها، ثم عادت وانحرفت إلى اليمين، وأمسكت بعمود الباب، يلاحقها احتجاج السائق الذى انطلق مسرعًا وهو يقول:

– «ما الذى تفعلين ؟؟ كدت أدوسك ..».

– «معذرة ..».

وفى زحام محطة تالية، تسللت وسط الجمع الغفير من الناس، وغاصت فى الزحام، ثم دلفت إلى شارع جانبى، تلفتت حولها، فلم تجد أحدًا، وظلت سائرة فى طريقها حتى عثرت على «تاكسى» أخذها إلى عيادة الدكتور سالم .. وهناك ألقت بجسدها المنهك على مقعد أمامه، وهى تشهق باكية.. أسرع بإعطائها حقنة مهدئة للأعصاب، ثم أخذ يستمع إليها، أدرك أنها نادمة على أنها لم تواجههم بالحقيقة كاملة، ولم تصرخ فى وجوههم قائلة إنكم ظلمة .. قساة .. خونة .. وتركها الدكتور سالم حتى نفثت عن ألمها المكبوت، وركنت إلى حال من الهدوء النسبى والاطمئنان، ثم قال:

– «هذا أمر طبيعى ..».

– «كيف ؟؟».

دار بنظراته فى جو الغرفة الوادع وقال:

– «عندما جاء أحد الصحابة إلى رسول الله يبكى، ويعتذر له عن إرغام المشركين له، وتعذيبهم إياه، وإكراهه على سب الرسول، تبسم محمد– صلى الله عليه وسلم– وقال: «وإن عادوا فعد ..» أنت يا نبيلة فى حالة إكراه.. وقلبك لم يزل ينبض بالحب والخير والإيمان .. ولا عليك مما قاله اللسان ..».

أخذت تجفف دموعها وتقول:

– «لقد تضاءلت أمام نفسى .. خيل إلىّ أننى مخلوق تافه حقير

يخاف من التهديد وقسوة القضبان .. من إذن يستطيع أن يقول كلمة الحق ..» .

قال الدكتور سالم بصوت صارم :

– « أنت ..» .

– «كيف ؟؟ » .

– « بعملك ..» .

وخلع السماعة من عنقه واستطرد :

– « إن الذى يعزم على فعل الخير ، سيجد أمامه عشرات الأبواب المفتوحة والجهاد بالكلمة أسهل أنواع الجهاد .. الكلمات تساعد على صنع التغيير لكنها ليست كل شىء .. وما لم تتحول الكلمات إلى سلوك أو فعل فستبقى الأمور على ما هى عليه ..» .

ثم التفت إليها قائلاً :

– « هل أعددت أوراق السفر ؟؟ » .

نظرت إليه بعينين حزينتين وقالت :

– « سأبدأ اليوم بإذن الله ..» .

الفصل ١٨

جلس نزلاء الزنزانة ٤٧ بالسجن الحربى، وقد أطبق الليل، وقال الشيخ عبد الحميد النجار وهو يلتف بالبطانية الرثة المتسخة :

– « أتدرون لماذا انضممت إلى الإخوان المسلمين ؟؟ » .

نظر إليه الضابط معروف، ولم ينطق بينما انطلق رزق إبراهيم قائلاً :

– « لماذا ؟؟ » .

– « لأنى رأيت فيهم الأمل لتحرير فلسطين ..» .

تدخل الشاعر يوسف قائلاً :

– « الهدف الأسمى هو تحكيم كتاب الله وشريعته ..» .

التفت رزق إلى يوسف قائلاً :

– « لا تعارض بين الاثنين ..» .

ردّ يوسف :

– « أنا مصر على ما أقول، فعندما تسود عدالة الله فى الأرض، فلسوف يندحر الظلم، وتتحقق الحرية للجميع ..» .

كان الضابط معروف يستمع إلى الجميع باهتمام، وكان قليل الكلام، كثير الصمت، وكان دائمًا ينصح إخوانه باللجوء إلى كتاب الله، وتدبر معانيه، وقضاء الوقت فى العبادة والاستغفار، وكان مؤمنًا أن من يتمعن فى كتاب الله، يجد الحلول لكل المشاكل، وتتضح أمامه السبل، وينجلى كل غموض وإبهام، لأنه يثق ثقة مطلقة أن المؤمن الحق يرى نور الله، وأن صدق النية، وقوة العزيمة يبعثان على الأمل، ويحققان الهدف المنشود .. وخرج معروف عن صمته قائلاً :

– «أيها الإخوان .. العالم كله ليس فيه حرية . هذه هى عقيدتى التى لا تتزعزع» .

قاطعه طالب الحقوق رزق إبراهيم قائلاً :

– «يجب أن نحقق أولاً مفهوم الحرية ..» .

– «فى كلمات قصار .. أقول هى أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء ، دون تعدٍ على أمر الله ونواهيه ..» .

وسادت فترة صمت قال معروف بعدها :

– «فى هذا الإطار تستطيع أن تنطلق ، فتبدع وتنتج وتحقق السعادة لنفسك وللآخرين من كل لون ودين ، ومن ثم تصل إلى الهدف الأسمى ألا وهو رضاء الله ..» .

ولم يعترض أحد ، لكن النزيل المريض محمود صقر أردف :

– «وهل هذه مهمة هينة .. ؟» .

– «فى كل العصور كانت رسالة شاقة تتطلب التضحيات الجسام ..» .

وأراد أن يوضح أبعاد القضية فقال :

– «الشرق الشيوعى يهدد إنسانية الإنسان ، ويرتكب الجرائم البشعة ، ويلقم الضحايا التعساء لقمة العيش .. والغرب مع أمريكا يطلبون الحرية لهم ولا مانع لديهم من استعمار الشعوب وإذلالهم ونهب ثرواتهم .. إنها عنصرية من نوع مقيت .. حتى الحرية فى بلادهم يتحكم فيها رجال المال والأعمال ، ولهذا انحسرت الحرية فى فحش القول ، وسعار الجنس ، والانفلات من قيود الفضيلة والدين .. قل لى بربك من هناك يملك الصحف والإذاعات وغيرها . إننا أعترف أنهم حققوا قدرًا من العدالة الاجتماعية وحرية الفكر والعلم .. وهناك رواد أصلاء ، لكن الحرية الحقيقية هى التى تعم بنى البشر .. وتفك الإنسان من إسار الحاجة وتسلط مراكز القوة السياسية والاقتصادية والفكرية ..» .

واستمر الجدل حول هذه النقاط كلها، وكان رزق يستشهد بنصوص القانون الدولى وهيئة الأمم، ويحاول يوسف أن يقدم من آن لآخر آية من آيات القرآن، أو حديثًا صحيحًا من أحاديث الرسول، أو قولًا لفقيه من الفقهاء، وعاد الحوار يدور حول قضية فلسطين، فأخذ معروف يشرح لهم صعوبة الموقف، حيث إن أمريكا وأوروبا متحالفة مع الصهيونية ذات التأثير البالغ النفوذ فى حياتهم السياسية والفكرية، كما أن روسيا تؤيد إسرائيل وتدعمها، وحكام العالم الإسلامى أضعف من أن يواجهوا هذا التيار الجارف، وهم على ما هم عليه من تأخر وانهيار وتفكك، فضلًا عن أن شعبًا كشعب مصر - بما له من ثقل مادى ومعنوى - لا يستطيع أن يؤدى واجبه، والسياط تلهب ظهره، والاستبداد يشل حركته.. عندئذ قال عبد الحميد النجار :

- «لهذا كنت أقول دائمًا إن الأمل منوط بالإخوان، لأنهم الجهة الحية الوحيدة التى لا تخضع، لشرق أو لغرب، ولا تأتمر لحاكم من الحكام، ألا وهى أن نكبتنا تلك التى نعانى منها وراءها أصابع خفية.. أصابع الحلف الدنس للشيوعية والصهيونية والاستعمار الأنجلو أمريكى.. إنهم جميعًا أعداء الإسلام الذى سوف يهدد مصالحهم إذا ما نهض وأظل الناس برايته ..».

ولم يستطع عبد الحميد أن يستطرد فى حديثه، فقد كان صوت العسكرى المناوب يصرخ فى جوف الليل :

- «المعتقل عبد الحميد النجار.. المعتقل عبد الحميد النجار.. إخبط على الباب يا ابن الكلب ..».

هبَّ عبد الحميد مذعورًا، وجرى صوب باب الزنزانة بحركة تلقائية، وأخذ يدق الباب بقبضته المتشنجة ويقول :

- «زنزانة ٤٧ يا أفندم ..».

وساد الصمت الممزوج بالخوف، واشرأبت الأعناق نحو الباب المغلق، وغمغم عبد الحميد وهو يقف خلف الباب «خير يا رب»،

وتمتم يوسف «أيام الهوان لا نهاية لها»، أما رزق فقد هدر: «يا لضيعة حقوق الإنسان فى هذا المكان الجهنمى» وأما محمود صقر فقد قال بصوت واهن:

– «ادعوا لأخيكم بالستر والتوفيق ..».

وبقى الضابط معروف صامتًا، وعيناه مصوبتان إلى الباب السميك الصلد برغم الظلام، وفتح الباب، فهبَّ الإخوان واقفين وأدوا التحية العسكرية قائلين «تمام يا أفندم»، وظل معروف جالسًا مكانه يرقب المشهد بأسى، عندئذ نظر إليه العسكرى فى حنق، وصوَّب نحوه ضوء منظاره الكاشف وصاح:

– «إنت يا حيوان لماذا لا تقف ؟؟».

قال معروف دون أن يتحرك من مكانه:

– «إخرس .. قطع لسانك».

وتوقع الجميع أن ينهال العسكرى عليه ضربًا بالسوط، لكن الذى حدث كان غريبًا غاية الغرابة، لأن المعتقلين لم يألفوه من قبل، لقد أخذ العسكرى يتراجع فى غير قليل من الخوف.. ثم صاح لعبد الحميد:

– «أنت عبد الحميد ؟؟».

– «نعم .. هيا».

ثم أغلق الباب، وبعد لحظات سمعوا الجندى يأمر عبد الحميد «سريعًا مارش» واستطاعوا أن يسمعوا أزيز السياط وهى تهوى عليه، وسيل الشتائم التى يقذفها العسكرى فى بذاءة وقحة لا نظير لها ..

قال معروف:

– «فلنقرأ شيئًا من القرآن .. ولندع الله له ..».

أخذوا يقرأون، وأخفى الظلام دموعًا تسربت فوق الوجوه الشاحبة، وكانت صورة عبد الحميد عالقة بأذهانهم، وقلوبهم تنبض

فى قوة، لكأنما انتزعوا عضوًا من أعضاء جسدهم، إن أجزاء منهم هناك .. معه، وبقية منه ما زالت مرافقة لهم .. كيان واحد يتمزق بلا رحمة .. وبعد أن انتهوا من القراءة رفع يوسف يديه صوب السماء، وأخذ يدعو لعبد الحميد دعوات صادقة مؤثرة، وهم يؤمّنون على دعائه ..

وقال معروف، وهو يُعد العُدة لكى ينام :

– «إن ما يحيرنى أن الإنسان لا يتعظ أبدًا بأحداث التاريخ ..» .

ولم يعلق أحد، وبعد لحظات قال يوسف :

– «هل تستطيع أن تنام ؟؟» .

قال رزق :

– «سننتظر حتى يعود ..» .

قال محمود صقر بصوت واهن :

– «قد يعود بعد يوم أو يومين أو ثلاثة ..» .

وقال يوسف :

– «بعضنا لم يعد على الإطلاق» .

أما معروف فقد قال وهو يتصنع النوم :

– «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» .

فتّش عبد الحميد فى ذهنه عن شىء يمكن أن يكون موضع مساءلة فلم يجد، إن شريط حياته التعليمى، والاجتماعى والسياسى، وحتى العاطفى يمر بسرعة خاطفة لعل عبد الحميد يستشف منه أمرًا يتعلق به هو، لكن بدون فائدة، خير للإنسان ألف مرة أن يكون قد أتى فعلاً معروفًا يحاسب عليه، أما أن يذهب إلى مكاتب التحقيق وهو لا يعلم من أمر جريمته شيئًا فهذا أمر قاتل، لقد كان عبد الحميد يواجه اليهود فى المعارك الدامية بقلب من حديد، كان يصول ويجول وكأنه يمارس عملاً عاديًا من أعمال الحياة لا بد أن ينجزه، لكنه لأول مرة

يقدم على مواجهة المحققين وهو واجف القلب ، مضطرب الفكر ، إن اليهود أعداء وهذا أمر واضح محدد قد استقر فى ذهنه ، هم مغتصبون معتدون ظالمون غرباء ، ومن ثم فلا مجال للتردد ، أما اليوم فهو يواجه إخوة له ، يفعلون فعل اليهود فى عدوانهم وظلمهم وقسوتهم ، وهذا أَمَرُّ على نفسه من المعارك الضارية التى تزهق فيها الأرواح ، وعندما وصل إلى الساحة الحمراء حيث المجزرة الدائمة ، نظر إليه المحقق وقال :

– « ضمه مع أفراد قضية سوريا .. أعنى منشورات سوريا » .

ولم يفهم عبد الحميد من عبارة الضابط شيئًا ، ما المقصود بمنشورات سوريا ؟ وما صلته هو بذلك ؟! ووجد عبد الحميد نفسه وسط مجموعة من الرجال لا يعرف واحدًا منهم ، حاول أن يلتفت إلى جاره ، فعاجله العسكرى بضربات سوطه قائلًا :

– « وجهك للحيط .. وارفع يديك إلى أعلى » .

كانت السياط تؤلمه ، وسدد إلى العسكرى نظرات آسفة يمازجها الخوف ، وسرعان ما نفَّذ الأوامر مكرهًا ، وعادت إلى ذهنه كلمات المحقق «منشورات سوريا » ، وأخذ يفكر ، لا شك أنها مجموعة من المطبوعات تهاجم الوضع القائم فى مصر ، وتدافع عن المظلومين من المعتقلين فى السجون ، إن عبد الحميد لا يستطيع أن يفهم غير ذلك ، وإلا لما ساقوه إلى هذا المكان وخضبوا جسده النصف عارى بالسياط ، لكنه لم يسمع عن هذا الأمر مطلقًا ، ولا يمكن أن يكون له صلة به ، وغافل العسكرى الواقف خلفه ، واختلس نظرة أخرى إلى الواقين ، ماذا رأى ؟؟ يا إلهى إن فتاة تقف على مقربة منه كم كانت دهشته حينما وجد أحد العساكر يقترب منها ، ويقبض على مكان حساس فى جسدها ، فتصرخ الفتاة محتجة : «يا سفلة يا أوباش» واستطاع أن يرى ويسمع السوط وهو يهوى على جسدها ، فتنبعث صرخاتها المتوسطة فى ألم .. وبلغ سمعه ألفاظ سباب بذيئة لا

يصدقها عقل .. إن الأمر يزداد غموضًا .. ولم يدر عبد الحميد أطال الوقت أم قصر، فقد كان مشغولاً بما يسمع من بكاء واستغاثة، وأسئلة وأجوبة، لعله يفهم منها شيئًا، وأخيرًا أتى الضابط واقترب منه قائلاً :

– « عبد الحميد » .

– « نعم يا أفندم .. » .

– « لا أحب اللف والدوران .. » .

– « نعم .. » .

– « من الذى هرب المنشورات السورية يا عبد الحميد ؟؟ » .

– « أية منشورات ؟؟ أنا لا أعرف عنها شيئًا، أقسم بالله أنى لا أعرف عنها شيئًا .. » .

– « الإنكار لا يفيدك .. » .

– « والله لم أذهب إلى سوريا طوال حياتى .. » .

– « عبد الحميد .. افهمنى يا ابنى .. لقد وزعت هذه المنشورات فى الأزهر .. » .

قال عبد الحميد :

– « الأزهر يا بك فيه عشرات الألوف » .

– « لكن أليس هناك سوى عبد الحميد واحد .. » .

– « ولم أنا بالذات ؟؟ » .

– « تحرياتنا تقول أنك ضالع فى الجريمة .. » .

– « وما هو الدليل ؟؟ » .

صفعه الضابط على وجهه قائلاً :

– « أتسألنى عن الدليل يا لاجىء يا ابن الـ ؟؟ » .

نظر إليه عبد الحميد فى حزن وقال :

– « لأننى يقينًا لا أعرف شيئًا .. » .

بلع المحقق ريقه، وتنهد فى صبر نافذ وقال :

- « حسنًا .. الفتاة قالت إنها سمعت طالبين أزهريين يتحدثان عن المنشورات فى الترام ..» .
- « ومن هما ؟؟ » .
- « لا نعرف يا سى عبد الحميد .. لو كنا عرفناهما لانتهى الأمر ..» .
ثم التفت الضابط ناحية اليمين وقال :
- « تعالى يا وفاء ..» .
جاءت الفتاة ترتجف ، قال الضابط :
- « لا تخافى يا ابنتى .. نحن لا نريد إلا الحقيقة .. أتعرفين هذا الرجل .. ؟ » .
هزت رأسها قائلة :
- « الكذب حرام يا بك .. أنا لا أعرفه ..» .
وأشار الضابط بيده فأحضروا أكثر من خمسة عشر نفرًا كانوا متراصين جوار عبد الحميد ، وأياديهم مرفوعة إلى أعلى ، ومروا على عبد الحميد واحدًا واحدًا للتعرف عليه ، فلم يعرفه أحد ..
وغمغم الضابط :
- « هنا التفاهم لا يحل المشكلة ولا يلقى الضوء على أية قضية .. الكرباج وحده هو الحل الحاسم ..» .
وانهالت السياط فى وقت واحد على أجساد المجموعة بما فيهم وفاء التى كانت تصرخ بطريقة تمزق نياط القلوب ، كان مشهدًا مؤلمًا لعبد الحميد النجار ، تذكر أخته التى تتعلم فى جامعة بيروت ، إنها فى عمر وفاء .. من يدرى ؟ قد لا يرحمون وفاء وقد يأمرون « العسكرى الأسود » بهتك عرضها ، فتعيش جريحة ناقمة بائسة طوال حياتها .. فعل اليهود ذلك فى بعض الأوقات ، وهنا يفعلها- حسبما سمع- العساكر الجهلاء .. لا حدّ للحماقة والظلم ، لقد وهب عبد الحميد حياته يومًا ما فداء لوطنه ، ونذر نفسه لله ، كان من المتوقع أن يستشهد على

ثرى أرضه وهو يدافع موجات العدو الصهيونى الغادر ، وعندما آمن بمبادىء الإسلام ، وانخرط فى سلك الإخوان المسلمين ، كان يعلم أن معركته فى سبيل المبادىء لن تقل شراسة وخطرًا عن معركته فى سبيل الأرض .. لماذا لا يفعل شيئًا لينقذ هذه المجموعة التى اختاروها اعتباطًا ، ويحمى عرض هذه الفتاة بالذات ومستقبلها .. وصاح عبد الحميد بأعلى صوته :

– «كفى سأقول الحق ..» .

وهرول الضابط صوبه وهو يشير لحملة السياط كى يكفوا عن الضرب ..

– «قل يا عبد الحميد .. أنت رجل صادق وشجاع .. إن الشجاعة هى أن تعترف بالحقيقة لا تصمد للتعذيب .. لأن التعذيب لا يليق إلا بالحمقى والحيوانات .. وأنت رجل تربيت فى أحضان الدين وتعرف الله ..» .

نظر إليه عبد الحميد طويلًا ، وابتسم فى مرارة .

صاح الضابط :

– «تكلم ..» .

قال عبد الحميد :

– « أنا الذى هربت المنشورات .. حقيقة أنا لم أذهب إلى سوريا لكن الذى أرسلها لى هو « وليد عبد الرحيم ..» .

التفت إليه الضابط فى اهتمام وقال :

– « ومن هو وليد ؟؟ وأين يسكن ؟؟ وكيف التقى بك ؟! » .

– « وليد زميل لى فى معركة الفدائيين مع اليهود .. إنه سورى الجنسية .. ومن الإخوان .. ومن سكان حلب على ما أذكر .. أرسلها إلىّ بالبريد ..» .

هزّ الضابط رأسه فى ضيق قائلًا :

– « بالبريد ؟؟ »

- « نعم ..» .
- « وأين هى المنشورات ؟؟ » .
- « وزعتها كلها ..» .
- « أين ؟؟ » .
صمت عبد الحميد برهة وقال :
- «فى الشوارع .. فى الترام والأتوبيسات .. وفى معاهد الأزهر ..» .
- « ألا تعرف عدد هذه المنشورات ..» .
- « مطلقًا ..» .
- « ألم تعط أحد من أصدقائك فى الأزهر ؟؟ » .
- « فكرت فى ذلك .. لكنى لم أفعل ..» .
- « لماذا ؟؟ » .
- « مخافة أن يقبض على أحدهم فيعترف على ..» .
وغمغم الضابط :
- « شيطان .. أنت إرهابى ضليع ..» .
وأخيرًا قال الضابط :
- « ألم تحتفظ بمنشورات من هذه المنشورات ؟؟ » .
قال عبد الحميد فى خبث مصطنع :
- «لم يكن من المعقول أن أحتفظ بشىء يديننى فى المستقبل ..» .
ومع ذلك، فقد استدعى الضابط على الفور أحد زملاءه، وكلفه بإرسال إشارة عاجلة لوزارة الداخلية كى تقوم بتفتيش مسكن عبد الحميد النجار وأصدقائه حسب التحريات السابقة، على أن يكون التفتيش غاية فى الدقة ..
ثم عاد الضابط إلى عبد الحميد ليقول له :
- « أرجو أن تذكر لنا كل ما كتب فى المنشورات بأمانة ..» .
قال عبد الحميد فى سخرية :

- «بأمانة ؟؟» .

- «نعم ..» .

وصمت عبد الحميد برهة ، إن القصة كلها مخترعة ، من وحى خياله ، أراد بها أن ينقذ هؤلاء المظلومين حتى يعودوا إلى ذويهم ، وأن يستخلص هذه الفتاة المسكينة وفاء من بين مخالب الذئاب التى لا تعرف الرحمة ولا الشرف ولا العدل ، حتى اسم صديقه السورى كان اسمًا مخترعًا لا وجود له فى عالم الحقيقة ، وما دامت قصة المنشورات كلها قصة مصطنعة فكيف يدلى بمضمونها ؟؟ إنها مهمة شاقة ، لكن عليه أن يتصرف وأن يبلغ بالتضحية إلى منتهاها .. هو يعلم أنه يكذب ، لكنه كذب الشرفاء الذين يضحون بأنفسهم من أجل إنقاذ المظلومين ، لأن يظلم عبد الحميد وحده أخف وطأة من أن يساق هؤلاء الأبرياء إلى العذاب أو الموت ، فالمحققون لابد أن يخرجوا بنتيجة حتى ولو كانت على حساب الشرف وقدسية الحياة .. لكن ماذا يمكن أن تتضمن هذه المنشورات ؟؟ وصرخ الضابط :

- «تكلم يا عبد الحميد .. تكلم حتى تنقذ هؤلاء المساكين» .

- «أؤكد لك يا حضرة الضابط أن هؤلاء جميعًا مظلومون وليس لأى واحد فيهم صلة بالموضوع ..» .

- «أعلم .. أعلم ..» .

تنحنح عبد الحميد وقال :

- «المنشور يتحدث عن انحراف الثورة ، وبطشها بالأبرياء ، وانسياقها وراء القوى الاستعمارية والصليبية المعادية للإسلام .. ويتحدث عن ضياع الحريات العامة ، وانتهاك الدستور ، وقتل عدد كبير من الإخوان دون محاكمة .. وعن الفساد الذى استشرى فى كل مرافق الحياة فى مصر ، وإحالة الشعب إلى جواسيس ، واضطهاد أساتذة الجامعات وفصل بعضهم من مناصبهم ، وإرهاب معظم الكتّاب والمفكرين الأحرار ، واللجوء إلى أخس الوسائل وأحطها للتعامل مع

كل صاحب فكر إسلامى، أو رأى حر، وملء المساجد والنقابات ومعاهد العلم برجال المباحث والمخابرات ..».
وصمت عبد الحميد برهة، فقال الضابط:
– «ألم يقولوا شيئًا عن محكمة الشعب ؟؟».
عاد عبد الحميد إلى ابتسامته الساخرة وقال:
– «قالوا أنها مثل حكم (قراقوش)، وأنها غير دستورية، وأن قضاتها فئة من المنحرفين والشواذ ..».
غمغم الضابط قائلًا:
– «الله .. الله .. وماذا أيضًا ؟؟».
– «وأن الأحكام مسبقة .. وموضوعة قبل المحاكمة ..».
– «حلو !!! وكيف عرفوا ذلك ؟ أولاد الزانية !!».
– «وأن الصحافة لم تصور القضية تصويرًا عادلًا، بل اندفعت إلى تشويه الإخوان، وصفحات نضالهم تشويهًا مقصودًا .. وألصقت بهم الصفات الذميمة، والتهم الباطلة، زورًا وبهتانًا ..».
احتقن وجه الضابط فى غيظ وقال:
– «ثم ماذا ؟؟».
– «ثم دعت الشعب إلى الثورة على الظلم والفساد، وتلقين المسئولين درسًا حاسمًا .. وقالت أن النصر لا شك آت .. وأن دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة ..».
قال الضابط وهو يصر على أسنانه من الغيظ:
– «أبقى شىء ؟؟».
– «لا ..».
وأمسك الضابط بأذن عبد الحميد، وجرّه فى عنف وقال:
– «أتجرؤ على نشر مثل هذا الكلام بين الناس يا ساقط يا لاجىء يا ابن الكلب ؟».
– «هذا ما حدث ..».

– «الإعدام قليل عليك ..» .
– «لله الأمر ما شاء يفعل ..» .
– «لا تتكلم عن الله ..» .
– «ليس لى غيره ..» .
– «أنتم إخوان الشياطين» .
وسادت فترة صمت قال الضابط بعدها :
– «المتهمون فى قضية منشورات سوريا يأتون إلىَّ ..» .
وتجمع المتهمون حوله وفيهم وفاء .. قال الضابط لهم :
– «إننى آسف لكل ما جرى لكم .. لكن الذنب ليس ذنبنا ولا ذنب الحكومة .. هذا الوغد السافل المدعو «عبد الحميد النجار» هو سبب كل بلية ، لقد سمعتم لقد اعترف بحيازته للمنشورات ، وبتوزيعها بين الجمهور ، إذن فالجريمة واضحة أمامكم .. والمجرم ها هو يقف بينكم .. وعليكم أن تلقنوه الدرس الذى يستحق ..» .
ثم أخذ السياط من العساكر ، وسلَّم كل منهم سوطًا ، ووضع عبد الحميد فى مركز الحلقة التى كونها منهم ، وقال :
– «عليكم أن تضربوه ..» .
ولما لم يتحركوا ، صرخ فيهم الضابط :
– «إذا لم تضربوه فسنضربكم أنتم .. هيا ..» .
ورفع المتهمون سياطهم وأخذوا يضربون عبد الحميد وهو يبتسم فى ألم ، لكن الضابط صاح :
– «ما هكذا يكون الضرب ..» .
ثم تناول سوطًا ، وانهال على عبد الحميد دون شفقة .. ثم مال صوب المتهمين وأخذ يضربهم فى جنون حتى يوسعوا عبد الحميد ضربًا مبرحًا حسبما يريد ، فلم يجدوا مناصًا من أن يفعلوا ما أراد الضابط، وعبد الحميد يتلقى الضربات صامتًا مستسلمًا .. وألقت وفاء بسوطها على الأرض ، وأمسكت بخناق عبد الحميد وهى تقول :

– «لماذا فعلت ذلك ؟؟ حرام عليك .. أيعجبك ما جرى لنا بسببك ؟؟ أنت لا تعرف ما عانيته طوال الساعات الماضية .. لقد كاد عقلي أن يذهب .. منك لله ..» .

وأفلتت دمعة من بين أهداب عبد الحميد وهو يقول :

– « آسف يا آنسة وفاء .. لقد فعلت كل ما في وسعى لإنقاذك .. أعنى إنقاذكم ..» .

– « أليس عندك ضمير ؟؟ كيف حفظت القرآن إذن ؟؟ » .

– « آنسة وفاء .. كل بنى آدم خطَّاء .. وأحب الخطائين إلى الله التوابون ..» .

وأشار الضابط بيده كي يكفوا عن الضرب والصياح حينما وجد عبد الحميد قد سقط على الأرض مغشيًا عليه ..

– « احملوه إلى الفسقية وألقوا به في الماء حتى يفيق ونستكمل التحقيق »

وبعد أن حملوا عبد الحميد ، قال الضابط وهو يجفف عرقه :

– « حسنًا .. سوف نفرج عنكم .. إن تحرياتنا ، ونتيجة التحقيق قد أكدت لنا أنه لا علاقة لكم بتنظيم الإخوان المسلمين ، وأن المجرم الحقيقى هو عبد الحميد النجار ، ويجب أن تعلموا أن هذا الأثيم ضليع فى صلته بالاستعمار والصهيونية ، وأنه لا شك ضمن شبكة رهيبة تهدف إلى قلب نظام الحكم فى البلد ، ولا شك أن أصابع المخابرات المركزية الأمريكية تحرك هذه الخيانات .. وستقرأون كل هذه التفاصيل فى الصحف عندما يفرج عنكم ، قالت وفاء ودموع الفرح فى عينيها :

– « هل سيفرج عنى ..» .

– « بالتأكيد ..» .

– « اليوم ؟؟ » .

– « ليس اليوم ..» .

- «لماذا ؟؟» .
قال الضابط وقد اجتاحه موجة مفاجئة من السعادة :
- «لا بد أن يعترف بكل الأشياء التى حدثتكم عنها ، ثم يقفل باب التحقيق .. ولا تنسوا أنه لا يمكن الإفراج عنكم وآثار الضرب على أجسادكم ، ماذا يقول الناس عنا ؟؟ لابد أن تلتئم الجراح أولاً ، وتزول الكدمات وجميع الآثار ..» .
قالت وفاء فى ضراعة :
- «لن أخرج من بيتى .. ولن يرانى أحد .. ولن أقول حرفًا واحدًا مما جرى» .
ابتسم الضابط وقال :
- «بالطبع .. لأن من يتكلم يعود إلى هنا مرة .. ثانية ..» .
صاحت وفاء فى هستيرية :
- «مستحيل .. مستحيل .. لا أريد أن أعود إلى هنا أبدًا .. لو حدث فسوف أموت ..» .
- «اطمئنى يا آنستى .. وستكون صلتك بنا فى المستقبل قوية .. ستكونين عينًا من عيوننا .. هذا إذا أردت أن يفرج عنك ..» .
- «ماذا تعنى ؟؟» .
قال وهو يعطيها ظهره منصرفًا :
- «ستعرفين كل شىء فى حينه ..» .
وبعد أن مشى الضابط خطوات ، عاد واستدار صوبها قائلاً :
- «سوف ترحلين إلى سجن القناطر الخيرية تمهيدًا للإفراج عنك .. هناك سجن النساء .. أما زملاؤك فسننقلهم إلى القلعة إعدادًا للإفراج ..» .
وأخذ الجميع يتبادلون القبلات والعناق ، ونسيت وفاء نفسها ، وفعلت مثلما يفعلون ، وبينما هم غارقون فى نشوتهم التى أنستهم السياط المؤلمة جاءهم صوت أحد العساكر الواقفين :

– «وجهك للحائط يا ابن الكلب إنت وهو .. وهى ..» .

وفى لحظات كانت نظراتهم مركزة على الجدار الكالح الأصم وعاد العسكرى يقول :

– «ارفعوا أيديكم ..» .

وشدت الأذرع الشاحبة صوب السماء .

وقال أحد العساكر لزميله هامسًا :

– «أرأيت ؟؟ لقد ظهر أنهم جواسيس ..» .

ردَّ زميله قائلًا :

– «يتهيأ لى أن الولد (عبد الحميد) لابد أنه يهودى .. شكله يقول ذلك .. والله كان فى نيتى ألفت نظر حضرة الضابط .. يا خبر أسود .. شياطين ورب الكعبة .. ربنا ينصرك عليهم يا جمال يا عبد الناصر ..» .

وغمغمت وفاء بينها وبين نفسها :

– «لسوف أعيش طوال حياتى لا أرى شيئًا ، ولا أسمع شيئًا ، سوف أطبق فمى إلى الأبد .. لقد سمعت الطالبين يتحدثان فى الترام عن بعض المنشورات السورية .. أبلغت أحد أقاربى الضباط .. ظننت أننى سوف أنال مكافأة .. لكن للأسف لم يقابلونى بغير السياط واللعنات والمساخر .. سألت عن قريبى الضابط فلعنوه ولعنوا أباه وأمه .. وجدت نفسى فجأة معلقة من ضفائرى والسياط تلهب جسدى .. وأنا الذى أقمت الدنيا وأقعدتها وأنا طفلة فى الابتدائى حينما صفعتنى المدرسة صفعة خفيفة .. وثار أبى .. وثارت أمى .. وشكوها إلى وزير التربية والتعليم .. ليتنى لم أتكلم .. ألا يمكن أن يكون أصحاب المنشورات على حق ؟؟ إن نظرات عبد الحميد توحى بالبراءة والحب والشجاعة .. وكان لابتسامته معنى غريب لا أفهمه .. إن قلبى يحدثنى بأن هذا الرجل يخفى شيئًا .. إنه عالم من الغموض والقوة .. حتى عندما اعترف لم يكن منهارًا ، كان يتكلم بثقة واتزان .. الجميع هنا

يعترفون وهم فى أشد حالات الوهن والضعف أما هو فلا .. شلت يمينى .. كيف كنت أضربه .. تمنيت أن أتلقفه على صدرى وهو يسقط مغشيًا عليه، وأضمد له جراحه، وأسقيه ماء .. كان يبدو ظامئًا .. لكنه كان صابرًا ثابتًا .. حتى عندما سقط لم أر على وجهه علامات الألم أو الخوف .. لكن لماذا فعل ؟؟ ماذا تجدى المنشورات إزاء هذه القوة الباطشة العاتية .. الورقة لا تصنع شيئًا أمام المدافع والسياط ..» .

وصحت وفاء من أحلامها على صوت خلفها يقول :

– « آنسة وفاء ..» .

– «نعم ..» .

– « هيا ..» .

– « إلى أين ؟؟ » .

– «ستعرفين فيما بعد ..» .

وفى مكتب عطوة بك وجدت قريبها الضابط الذى سمعته يقول :

– « الله يخرب بيتك يا عطوة ، ماذا فعلت بالبنت يا متوحش ..» .

قال عطوة فى خبث :

– «لزوم الشىء ..» .

– « أليس فى قلبك رحمة ؟؟ » .

– « الرحمة مسألة نسبية .. إنها أمامك حية ترزق ..» .

وتضاحكا ..

واقترب الرجل من وفاء قائلًا :

– « لا تحزنى .. إن إجراءات الأمن سخيفة بعض الشىء .. لكن ثقى أنك قدمت للعدالة خدمة وطنية كبرى .. وأؤكد أنك سوف تكافئين عليها ..» .

– « فقط اتركونى لحالى ..» .

قال قريبها :

- «ستقضين أسبوعين فى سجن القناطر للنساء، وبعدها تخرجين ..».

علق عطوة فى سخف :

- «أسبوعان .. هذه فترة طويلة .. لابد أن لديك موعدًا هامًا ..».

نظرت إلى وجهه الشرس، وابتسامته المقيتة، ثم أرخت أهدابها فى استسلام، وناجت ربها بصوت لا يسمع :

- «يا رب .. أنت وحدك تعلم ما بى ..».

ونظرت إلى ركن فى الغرفة، فوجدت عبد الحميد جالسًا لا يستطيع النهوض لكثرة ما لاقى من عناء، تمنيت أن ترى بنفسها فوقه وتقبّله وتذرف الدموع على قدميه الشريفتين .. لكنها وقفت كالمشلولة .. وسمعت الضابط يقول له :

- «سوف تعود إلى زنزانتك الآن حتى تستريح بضع ساعات وتأكل وتنام .. وبعدها تكمل التحقيق ..».

قال عبد الحميد :

- «أما زالت هناك بقية ..».

قال الضابط مقهقهًا :

- «كثير جدًا .. يا ما فى الجراب يا حاوى !!».

الفصل ١٩

عاد عبد الحميد إلى زنزانته مهدمًا يكاد يسقط إعياءًا ، ألقى السلام على الإخوان وهو يحاول أن يبتسم ، لكن ابتسامته كانت بيتًا من الشعر المعبر فى صدق عن ذكريات ليلة طويلة ؛ لم ينم له فيها جفن ، وأدرك الجميع ما يعانيه أخوهم من كرب وأسي وهو يتذرع بالصبر والرضا ، وارتمى إلى جوار محمود صقر لاهثًا ، كانت ثيابه ملوثة بالدماء ، وخطوط سوداء تسجل على رأسه وجسده قصة العسف الذى لا يرحم ، وامتد الصمت والقلق احترامًا لآلام إنسان ، لكن رزق إبراهيم عادة لا يطيق الصمت ولا الصبر ، أما معروف فقد فهم كل شيء بعد نظرة شاملة ، وعاد إلى التمتمة وقراءة القرآن ، بينما أغمض محمود عينيه وهو يتذكر أيام التحقيق الرهيبة والشاعر يوسف كانت عيناه تدوران فى محجريها وتكاد أن تثقبان السقف .. قال رزق :

– « ثيابك مبتلة ..» .

ردَّ عبد الحميد :

– « أغرقونى فى الفسقية حتى أفيق ..» .

– « لهذه الدرجة ؟! » .

– « إنهم يفعلون ذلك لمن يغمى عليه ..» .

– « أعرف .. لكن .. ماذا أقول ؟؟ لقد انتهى التحقيق معك منذ فترة طويلة ..» .

قال عبد الحميد وهو يكز على أسنانه من الألم :

– « ملحمة كتبها الله علينا ، وهل لتحقيقاتهم نهاية ؟؟ » .

– « هذا أمر عجيب ..» .

– « يا رزق قصتنا معهم .. قصة الحياة والموت .. نحن أو هم ..

هكذا يتصورون ، لا مكان لكلينا فى الدنيا .. إنهم لا يريدون أن يسمعوا من أحد كلمة (لا) » .

وأخذ عبد الحميد يروى لهم قصة المنشورات السورية بكاملها ، وكيف أن استدعاءه كان مجرد احتياط إذ أن المنشورات وزعت فى دور العلم الأزهرية ، وهو طالب بالأزهر ، ثم شرح لهم تطورات التحقيق ، وكيف قرر أن يضحى بنفسه لإنقاذ الأبرياء المساكين ، وخاصة الفتاة وفاء التى جازوها جزاء سنمار ، وكان الجميع مشدودين إلى روايته المثيرة التى لا تكاد تصدق ، وغمغم عبد الحميد فى نهاية حديثه قائلًا :

– « وهكذا أصبحت على رأس تنظيم سرى جديد ، وعلى رأس مجموعة تخطط لقلب نظام الحكم فى البلاد .. الأمر الذى لم أفكر فيه فى يوم من الأيام ..» .

كان معروف مستغرقًا فى سماع القصة وهو مضطجع على فراشه ، وفى النهاية اعتدل فى جلسته وقال :

– « لا أوافقك على هذا يا عبد الحميد ..» .

– « إننا بذلك نعطيهم ورقة ليلعبوا بها ، ويدينونا أمام الرأى العام .. بالتأكيد سينشرون ذلك اليوم فى الصحف ، وسيضيفون عليها من وحى خيالهم ما يثير الناس ..» .

قال عبد الحميد وهو ينظر إليه فى حيرة :

– « ليفعلوا ما شاءوا .. فسيَّان عندى أن أكون مجرد معتقل مشتبه فى أمره ، أو متهم ثبتت إدانته وحكم عليه بالسجن ، ولا شك أن الذهاب إلى السجون المدنية عقب الحكم علينا أفضل بكثير من البقاء هنا .. وعندما يريد الله لهذه الغمة أن تنجلى ، فسوف يشمل عفوه المعتقل والمحكوم عليه بالسجن .. والحقيقة أن الحكومة لا تؤمن بفرق بين الاثنين ..» .

قال معروف وهو يشير بسبابته :

– « الأمر ليس كما تتصور ..» .
– «كيف يا معروف ؟؟ » .
– « لا يصح أن نقول سوى الحقيقة ..» .
ابتسم عبد الحميد وقال :
– « الحقيقة ؟؟ » .
– «نعم .. ولا شيء غيرها ..» .
وسادت فترة الصمت قال معروف بعدها :
– « إن ما تفعله شيء أشبه بالانتحار ..» .
قال عبد الحميد فى شيء من الضيق :
– «لقد اعتبرته تضحية ..» .
– « إنى أختلف معك ..» .
– «لقد أرادوا يا معروف هتك عِرض وفاء ..» .
– «ليست مسئوليتك ..» .
– « والتعذيب كاد يودى بحياة البعض ..» .
– « وما ذنبك أنت يا عبد الحميد ؟؟ » .
– « أحسست أن الله يرضى على عملى ..» .
– «علم هذا عنده وحده .. أعرف أنك شريف النية ، والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .. لكن الصمود فى وجه الافتراء واجب .. كان يجب أن تصمد ..» .
– « وإذا مات أحدهم ،، أو مت أنا ؟؟ » .
– « الأعمار بيد الله ..» .

وران الصمت على الجميع ، كانت العيون مضطربة قلقة ، والرؤوس تغلى بالحيرة والغضب والثورة ، ورزق إبراهيم لم يطق الجلوس ، بل ظل واقفًا طول الوقت يروح ويجيء فى الزنزانة الضيقة ، ومن آن لآخر يتوقف ثم ينظر إلى معروف تارة وإلى عبد الحميد تارة أخرى ..

وعاد معروف يقول :

– «لقد فعل محمود صقر ذلك .. تمسك بالحقيقة .. ماذا لو اعترف بحيازته للسلاح .. أعتقد أنهم كانوا سيدسون السلاح فى بيته، وينسبونه إليه زورًا .. يجب أن نصفعهم بالحقيقة مهما كانت النتيجة ..» .

قال عبد الحميد في حيرة :

– «وماذا أفعل الآن ؟؟» .

قال معروف :

– «الأمر واضح ..» .

– «كيف ؟؟» .

– «أن تسحب كل أقوالك .. تنكرها جملة وتفصيلًا .. والسبب بسيط وهى أن ذلك لم يحدث .. وأنك قلت ما قلت تحت وطأة الخوف والتعذيب .. ولك أن ترفض التوقيع على المحضر حتى ولو شنقوك ..» .

قال عبد الحميد فى شىء من عدم الاكتراث :

– «الاعتراف تحت الضغط والإكراه البدنى أو النفسى لا قيمة له قانونًا ..» .

ردَّ عليه الشاعر يوسف قائلًا :

– «دعك من القانون والزفت يا رزق ..» .

وابتلع يوسف ريقه ثم قال فى شرود :

– «إن الإنكار يعنى الحيرة بالنسبة لهم، سوف يدركون أن هناك مجموعة من الناس تعارضهم، وتوزع المنشورات المعادية لهم .. وهذا يبعث الرعب والخوف فى قلوبهم .. لأنهم لم يضعوا أيديهم على ذلك التنظيم إن صح التعبير .. دعهم يتعذبون بالحيرة والقلق والخوف مثلما نتعذب ..» .

– «إذن فالتحقيق لن ينتهى .. وقصة العذاب ستطول ..» .

قال معروف فى يقين :

– « ومن قال إنهم سيكفون عن ارتكاب المظالم ؟؟ إن ماضيهم الأسود وتماديهم فى المظالم ، يدفعهم دائمًا إلى مزيد من الحماقات .. إنهم لم يتراجعوا عن خطتهم ، لأن تراجعهم قد يقضى عليهم .. هم لا ينظرون إلى الأمر على أنه حق أو باطل .. بل ينظرون إليه من حيث نفعه لهم أو إضراره بهم .. قوم بلا ضمائر ..» .

قال عبد الحميد وقد تندى جبينه بالعرق :

– « ليكن ما يكون .. قدَّر الله وما شاء فعل ..» .

قال معروف :

– « يجب أن تتخذ قرارك منذ الآن ..» .

– « لا مجال للتردد .. إننى مقتنع بما تقول ..» .

وفجأة دق الباب ، هبَّ الجميع واقفين ، اقترب رزق إبراهيم من الباب ، سمع صوتًا يعرفه جيدًا ، إنه صوت أخيهم إسماعيل أحد المعتقلين الذين يسمح لهم بالتجول فى أنحاء المعتقل للقيام بخدمة العساكر بدلًا من قورى اليهودى ، وقد كان إسماعيل ذكيًا بارعًا ، يستطيع أن يجذب إليه أى إنسان لحسن تصرفه ، وقوة شخصيته ، وسرعة بديهته ، كما كان قادرًا على اكتساب الثقة فى أقصر وقت .. قال إسماعيل :

– « يا إخوان ..» .

ردَّ رزق قائلًا :

– « نعم ..» .

– « استمعوا إلىَّ جيدًا .. لقد علمت اليوم أن رجال الأمن قد ألقوا القبض على تنظيم إخوانى جديد قوامه ستمائة فرد .. إننا على أبواب مزيد من المحن .. استعينوا بالله واصبروا ، والعاقبة للمتقين ..» .

حاول رزق أن يسأل ليعرف مزيدًا من المعلومات ، لكن إسماعيل كان قد فر إلى زنزانة أخرى ليحمل لهم النبأ المثير حتى يأخذوا

حذرهم، ويستعدوا لما يحدث عادة فى مثل هذه الظروف، وقال رزق:

– «لم يكن هناك داع لمثل هذه التنظيمات الجديدة الآن .. إنها ستجلب علينا مزيدًا من الوبال .. أعنى الكوارث ..».

قال معروف باسمًا :

– «كان البعض يظن أن الإخوان المسلمين انتهوا إلى الأبد .. ورأيى الشخصى .. أن القافلة تسير .. وأن المعركة مستمرة .. وأن الصراع قائم ما قامت الحياة .. فعلى الرغم مما أتوقعه من عنف وظلم بالنسبة لنا .. إلا أننى أشعر بغير قليل من السعادة ..».

وهز الشاعر يوسف رأسه قائلًا :

– «﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ تلك الآية من القرآن .. أكدها الله .. وقال أيضًا ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. الشرط الوحيد للنصر هو الإيمان .. ويا له من شرط !!».

والواقع أن الإخوان فى السجون والمعتقلات قد قابلوا هذا النبأ بمزيد من الدهشة والإشفاق .. والأمل أيضًا، إنه يعنى– حسبما قال معروف– إن المعركة دائرة، ولم تكتب السطور الأخيرة فيها بعد، وهذا يؤكد للطغاة أن التمادى فى العنف قد يخلق مزيدًا من الأعداء، ومزيدًا من المقاومة.

وعلى الرغم من الآلام التى يعانى منها عبد الحميد، إلا أنه أراد أن يبدد غيوم القلب والأسى التى أظلت الإخوان، وفى نفس الوقت أراد أن ينسى نفسه ما سوف ينتظره من عودة إلى التحقيق وما يجره عليه من أحزان، لهذا قال :

– «لو قدر لى الخلاص لتزوجت من وفاء على الرغم من أنها صفعتنى على وجهى ..».

قال رزق فى حدة :

– «أتتزوج من صفعتك ؟».

ضحك عبد الحميد وقال :

– « هذه هى الطريقة الوحيدة التى تجعلها تعتذر لى ..» .

قال الشاعر يوسف موجهًا الحديث لرزق إبراهيم :

– « أتعتقد أن هناك من تجرؤ على الزواج من (إخوانى) فى مثل هذه الظروف ؟؟ » .

قال رزق فى إصرار :

– « النساء يعشقن البطولة ..» .

رد يوسف :

– « لكن الحكومة تسميها خيانة ..» .

– « دعك من أكاذيب الحكومة ..» .

– « أنت لا تعرف النساء يا يوسف إلا من خلال أوهام الشعر .. إن لهنّ منطقهن الخاص .. والحب لديهن لا يقوم على أسس مفهومة .. أنا مثلاً أحبتنى فتاة بيضاء كاللبن الحليب على الرغم من سواد وجهى الزائد ..» .

وضحك الرفاق ضحكة وقورة ، إلا معروف فقد أخذ يقهقه بصوت عال ، عندئذ قال رزق إبراهيم :

– « لمَ تضحكون ؟؟ أقسم بالله أن ذلك قد حدث .. لقد كانت تطاردنى فى كل مكان ..» .

قال يوسف :

– « ولماذا لم تتزوجها ؟؟ » .

– « لم تكن محجبة .. ثم إن فتاتى فى السودان ..» .

قال يوسف :

– « سوداء ؟؟ » .

– « نعم ..» .

– « أهى جميلة ؟؟ » .

– « منتهى الجمال ، ومتعلمة أيضًا .. بل ومحجبة .. وأبوها من

رجال طائفة الختمية المشهورين ..» .

قال يوسف مداعبًا :

– «أخاف أن يطول بك المقام هنا ، وعندما تخرج تجدها قد تزوجت ولعلك تجد على كتفيها طفلين أو ثلاثة .. وربما تسمى أحدهما جمال أو عطوة ..» .

انقلبت سحنة رزق ، فقلب عينيه ، وأخذ يهز رأسه فى غضب وقال :

– «نساؤنا لا يفعلن ذلك ..» .

قال يوسف فى سخرية :

– «بل يفعلنه فى كل مكان على ظهر الأرض ..» .

تدخل معروف قائلًا :

– «لا تنزعج يا رزق .. فالنساء مختلفات ، فيهن الوفية المخلصة ، وفيهن الغادرة .. وعلى العموم فقد أعطاهن الشرع الحق فى الطلاق إذا طالت غيبة الزوج لفترة طويلة مخافة الفتنة ، وهذا فهم واقعى معقول لطبائع النفوس ..» .

وجلس رزق ، وكأنما هبط من السماء كان يحلق فيها مختالًا سعيدًا ، ثم وضع رأسه بين يديه وقال فى أسف :

– «إننى أكاد أراها كل ليلة فى منامى ..» .

قال معروف :

– «إن أصحاب المبادىء يضحون بأشياء كثيرة غالية .. لأنهم باعوا الدنيا أملًا فى عفو الله ورضاه ..» .

قال رزق فى شىء من الخجل :

– «اسمح لى يا معروف .. وزوجتك أنت ؟؟» .

ابتسم معروف وقال :

– «قلبى يحدثنى أنها قد تكون ضمن التنظيم الجديد الذى قبضوا عليه حديثًا .. إنها تكاد تشبهنى فى العقيدة والسلوك .. نحن شركاء فى الحياة والمصير ..» .

وأغفى عبد الحميد ، وانبعث غطيطه رتيبًا هادئًا ، وأدرك الإخوان ذلك ، وقال معروف :

- «كفوا عن الحديث .. إن أخاكم لم ينم أمس .. يبدو أنه قد تعب كثيرًا .. فلنعطه الفرصة للراحة .. أمامه صراع طويل فى مكاتب التحقيق .. فليحفظه الله ..» .

وعاد الصمت المشحون بالقلق يغلف المكان من جديد ..

الفصل ٢٠

لم تكد تمر عدة أيام حتى كانت « نبيلة » قد استعادت اتزانها ورباطة جاشها ، ومن ثم استطاعت أن تعود إلى مدرستها ، وهى تحاول دائمًا أن تظهر بالمظهر العادى وكأن لم يحدث شىء ، لقد استقبلتها الطالبات بتصفيق وحماسة بالغة ، أحسَّت أن القلوب الصغيرة تحبها وتقف إلى جوارها ، وأنها لم تتخل عنها لحظة واحدة ، وهذا وحده رصيد كبير ، قد لا يملأ جيوبها ولكنه يغذى روحها وقلبها ، إنها لم تفقد الأمل مطلقًا فى هذا الجيل الجديد ، أما الناظرة– سامحها الله– فقد قابلتها بشىء من الجفاف لم تعهده فيها ، بل حدثتها فى شىء من التورية واللباقة عن ضرورة النقل إلى مدرسة أخرى ، لأن المدرسة تعيش من قديم فى هدوء وسلام ، ولا دخل لها بمشاكل المبادىء والسياسة ، وقد تضايقت «نبيلة » من هذا التلميح الذى فهمته لأول وهلة وقالت وهى تبتسم : «لن يجرؤ أحد على نقلى من هذه المدرسة ، وأنا واثقة تمامًا مما أقول » نظرت إليها الناظرة فى دهشة ، ثم اعتصمت بالصمت ، أما المدرسات فغالبيتهن لم يشرن إلى الموضوع من قريب أو بعيد ، وإن كانت نظراتهن تشى بالفضول الذى يغمر قلوبهن ، قليلات أولئك اللاتى أخذن يحاصرنها بالأسئلة الكثيرة ، وكانت نبيلة تجيب فى إيجاز إجابات عائمة لا تشفى الغليل ، وعلى الرغم من خوفهن إذا أقمن علاقات وطيدة معها ، إلا أنها حظيت بمزيد من الاحترام ، أما « عطوة » فقد كان يطاردها مطاردة رهيبة حتى يتم الزواج فى أقرب فرصة ممكنة ، وكانت نبيلة تجاريه فى لهفته ، فتصطحبه لشراء المجوهرات والملابس ، وخاصة فستان الفرح ، وتبدى مزيدًا من

الاهتمام به ، وتمنيه بأحلى الأماني ، وهو غارق في أحلامه الجنسية التي لم يستطع إرواءها بعد ، ومع ذلك فقد كانت تعد أوراق السفر إلى الكويت ، وتلتقي مع الدكتور سالم ، بل وصل بها الدهاء ، لدرجة أن أخذت خطابات توصية من عطوة لمدير الجوازات وللمسئولين عن السماح بالسفر بحجة مساعدة إحدى قريباتها ، كما أنها استطاعت الحصول على إذن خروج ولهذا أسرعت بحجز مقعد لها في الطائرة الكويتية دون أن يعرف أحد من أهلها أو زميلاتها في العمل بعزمها على السفر ، والحق أن الدكتور سالم قد ساعدها مساعدات ذات قيمة ، وزودها بالتوجيهات اللازمة وخطابات التوصية التي تيسر لها الإقامة هناك ، والحصول على العمل المناسب ، بل أعطاها مبلغًا من العملة الصعبة التي لم يكن من السهل الحصول عليها في تلك الفترة ، وعزمت نبيلة على زيارة سلوى قبل أن ترحل بيوم واحد ، لم تكن خائفة ، فلو فرض وشاهدها أحد المخبرين ، فسوف تلمّح له أنها من معاوني رجال الأمن ، ويكفي أن تذكر اسم « عطوة » فينفتح لها الباب على مصراعيه ، تسللت إلى هناك حوالي الثامنة مساء ، كان قلبها برغم شجاعتها واطمئنانها يخفق كالعادة ، إذا كانت هي في هذه الحالة من القلق والاضطراب ، فكيف تكون سلوى المسكينة .. ودقت الباب ، وبعد فترة وجيزة لاح لها الوجه الذابل الشاحب ، وقد غارت العينين أكثر من ذي قبل ، والأهداب مبللة بالدموع .. والرعب ينشر ظلاله على الملامح المرهقة الحزينة ، والطفل النائم الهزيل على كتفها ..

هتفت نبيلة :

– « كيف حال صابر ؟؟ » .

– « كما ترين .. تفضلي بالدخول .. بالله عليك لا تمكثي طويلًا .. » .

دخلت نبيلة وهى تقول :
- « هل جدَّ جديد ؟؟ » .
قالت سلوى ، وهى تجلس ، وقد فاضت دموعها فجأة :
- « السجن كان أهون من هذه الحياة ..» .
- « ما معنى ذلك ؟؟ » .
أخذت سلوى تجفف دموعها وتقول :
- « إنهم يأتون إلىّ كل يوم .. والضابط المسئول يطلب منى طلبًا غريبًا ..» .
- « غمغمت نبيلة .. هؤلاء الكلاب الأقذار لا يكفون عن الرذيلة والعبث ..» .
وعادت سلوى تقول :
- «تصوَّرى .. لقد طلبوا منى أن أرفع قضية طلاق ضد زوجى ..» .
- «مستحيل ..» .
- «هذا ما حدث مرارًا وتكرارًا .. والضابط يقول إنه معجب بإخلاصى ووفائى ، ويقول إن زوجى لا يستحق هذا الوفاء كله ، لأنه خائن لوطنه ، لا يفكر فى مستقبل أسرته .. ويؤكد لى أنه قد تزوج من ألمانية وأنجب منها طفلاً وقدَّم لى صورة تضم زوجى وزوجته الجديدة والطفل .. بل يدَّعى أن « أبو صابر » يشرب الآن الخمر ، ويراقص النساء .. والأعجب من ذلك أن الضابط عرض علىّ الزواج ..» .
كانت نبيلة مذهولة مما تسمع ، وانطلقت تقول :
- « لا تصدقى حرفًا مما قال ..» .
قالت سلوى :
- « والصورة ؟؟ » .
- «مزورة ..» .

– «كيف ؟؟» .
– «الخدع التصويرية أمر معروف .. ما أسهل أن يضموا صورة إلى صورة .. وبشيء قليل من الحيل والرتوش مع إعادة التصوير .. يمكن أن نستخرج الصورة التى نريد ..» .
قالت سلوى :
– «ولماذا لا يفعلون ذلك ؟؟» .
– «أسلوب من أساليب تدمير حياة الناس والقضاء عليهم .. التعذيب البدنى وسيلة .. والتمزيق النفسى حيلة خسيسة .. وبذر الشكوك بين الناس يضعف من قوة الروابط الإنسانية ، وينزع الثقة من القلوب .. وهكذا يسيطرون بأبشع الطرق ..» .
– «يا لحيرتى !! ماذا أفعل يا ربى ..» .
قالت نبيلة فى قوة دون تردد :
– «الصمود ..» .
– «الصمود ؟؟ كدت أنهار ..» .
– «لن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئًا ..» .
– «قد يجروننى إلى السجن ..» .
– «ألم تقولى إن السجن أرحم مما أنت فيه ؟؟» .
– «هذا هو شعورى الحقيقى .. لولا صابر .. ليتهم يسمحون ببقائه معى ..» .
هزت نبيلة رأسها فى أسى بالغ وقالت وهى تصر على أسنانها :
– «الكلاب ..» .
– «وما قيمة الشتائم ؟؟ إنها لن تهدم عروشهم ..» .
– «أجل ..» .
رفعت سلوى رأسها إلى السماء وقالت :
– «ليس لنا سواه ..» .
غمغمت نبيلة :

- «ونعم بالله ..» .
وسادت فترة صمت قالت نبيلة بعدها :
- «قد أغيب عنك فترة طويلة .. ستكونين في بالى دائمًا .. علم الله أننى لم أكن أرغب فى البُعد عنك .. لكن ثقى أن الفرج قريب، ولن أتخلى عنك ما دمت حية .. هذا وعد ..» .
قالت سلوى وهى تخطف يد نبيلة وتقبلها :
- «أين ستذهبين ؟؟ علم الله كم أحببتك منذ أن رأيتك لأول مرة فى تلك الزنزانة القاتمة ..» .
احتضنتها نبيلة وقد سالت دموعها هى الأخرى وقالت :
- «ستعلمين كل شىء فى حينه وفراق الأجساد قد يكون غير ذى قيمة، المهم أن تلتقى الأرواح .. ثم .. لا تحملى هَمًّا من الناحية المادية .. لسوف أدبر كل شىء ..» .
وهامت نبيلة بنظراتها فى الأفق الصغير وقالت :
- «وستلتقين بزوجك يومًا ما .. وستنسيك حلاوة اللقاء، مرارة الفراق القديم، وسيكون الماضى مجرد ذكرى .. وستكون أسطورة الكفاح الشريف أحلى أغنية تترنمان بها ..» .
وعادت نبيلة إلى هيامها مرة أخرى وقالت :

عين فابكى من بغى أو طغى
علل الظلم بشتى العلل
إنما الناس على أيامنا
هم كما كانوا بعصر الجمل

- «لا أعرف قائل هذا الشعر .. إنه شاعر مجهول .. لكن كلماته تلمس شغاف قلبى، لا شك أنه شاعر ذاق مرارة الألم والحرمان والظلم ..» .
وأخذت سلوى تجفف دموعها وتقول :

- «كانت الحياة حلوة .. رائعة .. وكنا سعداء ، نصلى لله شاكرين .. ونمرح ونأكل .. ونحلم .. وفى يوم كالح مشئوم .. انطفأ المصباح .. عبثت به ريح مجنونة .. فسقطنا فى هوة العذاب ..» .

قالت نبيلة :

- «الشياطين تحرق الحب ..» .

- «لماذا ؟؟» .

- «لأنهم شياطين ..» .

- «هذا حرام ..» .

قالت نبيلة :

- «إن استطاعوا أن يطفئوا المصابيح فلن يطفئوا الشمس أبدًا ..» .

واختطفت نبيلة حقيبتها ، وهى تغالب انفعالاتها ، ثم احتضنت سلوى فى قوة وهى تقول بصوت يبحه البكاء :

- «إلى اللقاء ..» .

ثم قبّلت صابر النائم ، وانصرفت مسرعة ..

سارت فى الشارع الطويل المليء بالحفر والبرك والمطبات ، كان ضوء المصابيح الكهربائية عليلًا يكاد يحتضر ، وبعض تلك المصابيح قد أتلف وأصيب بالعمى ، وكانت نوافذ البيوت مغلقة يجاهد الضوء فى التسلل خلالها ، والسماء من فوقها تمتد كصحراء غطاها ضباب أسود ، ومن بعيد يتناهى إلى سمعها صوت مذيع يقرأ الكلمات فى حماسة جوفاء ، الحياة امتلأت بالزيف والخواء والأسى ، ومع ذلك فهى عاشقة لهذه البلاد .. تحبها برغم ما يحتدم فيها من صراع دام ، ومظالم طاغية ، تحب حزنها الوقور الذى يدثره الجلال والصبر ، تحت صمودها الصامد الذى لم يتفجر بعد ، ترى من بعيد بشائر الفجر الفضى المقدس ، والمآذن العالية الخالدة تصدح بالتكبير والتهليل ، كل شىء إلى زوال ، ولا يبقى إلا وجه الكريم الذى لا يُقهر ولا يموت ،

ما أتفه غرور الإنسان ، إنه مجرد ذرة مجنونة فى هذا العالم الواسع اللانهائى .. ومهما جُنت الذرة فماذا تستطيع أن تستطيع أن تفعل ؟؟ أيمكنها أن تدمر ملايين الكواكب التى تبعد عنا مئات الملايين من السنين .. عطوة وأمثاله مجرد بصقة مصدور على وجه الإنسانية لشيطان مريض .. وصرخت بأعلى صوتها دون وعى :

– « يسقط الظلم ..» .

أفاقت من هواجسها .. وجدت رجلاً أعمى يتوكأ على عصاه ، توقف الأعمى ومال بوجهه المجدور صوبها ، وقال :

– « مظاهرة ؟؟ » .

نظرت إليه ، كان على وشك أن يخوض فى بركة قذرة من الماء ، اقتربت منه ، وأمسكت بيده تدله على الطريق النظيف هتف :

– « من ؟؟ » .

قالت فى اقتضاب :

– « مظلومة ..» .

قال وهو يهز رأسه :

– « ربنا يستر عرضك يا بنتى ..» .

ثم تنحنح وقال :

– « هناك مظلوم غيرى ؟؟ » .

قالت :

– « ياما فى السجن مظاليم ..» .

– « السجن أهون .. فيه يأكل الإنسان ويشرب وينام ..» .

قاطعته قائلة :

– « وقد يُقتل ..» .

– « حياتنا بالموت أشبه ..» .

عادت تقول :

– « كيف تعيش ؟؟ » .

– « أقرأ القرآن على القبور .. وأحيانًا أتسول ..» .
فتحت حقيبتها ، ثم أخرجت ورقة مالية دستها فى يده قائلة :
– «خذ هذا ..» .
تلمسه بيده جيدًا ، وهتف فى دهشة :
– «ما هذا ؟؟ جنيه ؟؟» .
ولما لم تُجب ، رفع الجنيه إلى شفتيه وقبَّله شاكرًا وهو يقول :
– « هذه كرامة .. أنت ملاك من السماء لا شك .. يقول الناس عنى أننى صاحب كرامات .. بالتأكيد أنت ملاك .. لقد قدَّمت عشرات الالتماسات للرئيس .. ولوزارة الشئون الاجتماعية .. وللأوقاف .. دون جدوى ..» .
ثم هتف بأعلى صوته :
– «حى .. قيوم ..» .
ومضى فى طريقه وهو ينشد :

لا تظلمن إذا كنت مقتدرًا
فالظلم شيمته يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم

وانسابت دموعها وهى تسارع الخطى فى الشارع الطويل ، أين هذا الشعر من شعر نزار وكبار الشعراء فى عصرنا ، إن شعرهم أشبه بالمساحيق الزائفة على وجه المتصابيات من العجائز .. تُرى من قال هذا الشعر ؟؟ إنه أيضًا شاعر مجهول ، على الأقل بالنسبة لى ..
عليها أن تأخذ تاكسى قبل أن يغلق الدكتور سالم عيادته ، لابد أن تلقى عليه كلمة الوداع، وتشكره على ما قدَّم لها من عون ، وفى وقت قصير أمكنها أن تصل إلى هناك ، الجو هادىء ساكن بارد ، صعدت الدرج فى لهفة .. قلبها أيضًا يدق .. لماذا يدق فى هذه الأيام بالذات ؟؟

دقت الجرس ، استقبلها « التومرجى » فى شىء من الفتور ، قالت :

– « هل ذهب الطبيب إلى بيته ؟؟ » .

نظر إليها فى حزن ، وصمت ، وبقى جامدًا فى مكانه ، هتفت فى خوف :

– « تكلم ..» .

قال فى جفاف :

– « غير موجود ..» .

– « أين هو ؟؟ » .

– « لا أدرى ..» .

أمسكت بخناقه وهتفت فى عصبية :

– « يجب أن أعرف ..» .

– « اعـ لى معروفًا .. لا تخربى بيتى ..» .

– « ما معنى ذلك ؟؟ » .

– « أخذوه .. كان يفحص مريضًا .. أخذوه هو والمريض ..» .

– « اعتقلوه ؟؟ » .

هز رأسه وقال :

– « كما اعتقلوا أخاه من قبل ..» .

تجمدت الدموع فى محجريها ، ظلت واجمة برهة ، جاءها صوت التومرجى يقول فى توسل :

– « انصرفى قبل أن يراك أحد ..» .

قالت وهى تلهث :

– « وأنت !! ماذا ستفعل ؟؟ » .

– « لا أدرى .. رزقى ورزق عيالى على الله ..» .

أخرجت خمسة جنيهات من حقيبتها ودستها فى يده ، وأسرعت تهبط الدرج وهى تتلفت يمنة ويسرة ، وعادت إلى الشارع ، رأت من خلفها رجلا فارع القامة يلبس معطفًا رمادى اللون ، أمسك بيدها

وقال :
– « البطاقة ..» .
أخرجت البطاقة فى هدوء ، وأعطتها له ، فأخذ ينقل منها بعض البيانات ، قالت له :
– « لماذا كل هذا ؟؟ » .
– « ماذا كنت تفعلين فى العيادة ؟؟ » .
– « مثلما يفعل أي مريض ..» .
– « وماذا قال لك التومرجى ؟؟ » .
– « قال إن الطبيب مشغول .. سافر .. ولا يعرف متى يعود .. هذا إهمال كبير ، كيف يسافر طبيب دون سابق إنذار ، ويترك مرضاه هكذا فى حيرة ؟؟ » .
ابتسم المخبر وقال :
– « البلد مملوءة بالأطباء ..» .
– « متشكرة .. هذا صحيح ..» .
ومضت ملهوفة الخطى ، الأرض ترتجف بالرعب ، والثعابين هنا من نوع غريب ، ولا يعرف البيات الشتوى ، إنها تفح طول العام ، وألقت تحية المساء على أهل البيت الساهرين ، ثم ذهبت إلى غرفة نومها ، ثم أغلقت الباب ..
قالت الأم وهى تتململ إلى جوار المدفأة :
– « مسكينة يا نبيلة .. لست أدرى ماذا جرى لها ..» .
تنهد الأب فى ألم وقال :
– « إنها تتصرف بطريقة غريبة هذه الأيام ..» .
ثم قال بعد صمت قصير :
– « من يدرى لعلها تتحسن بعد الزواج ..» .
قالت أمها فى ثقة :
– « لا أظن .. إنها ابنتى وأنا أعرفها .. كان هذا الزواج شؤمًا

عليها وعلينا .. ربنا يلطف ..» .

هدر أبوها غاضبًا :

– «ماذا تريد أكثر من ذلك ؟؟ عطوة لديه المركز المرموق .. والمال .. والصحة .. إنه كالثور ..» .

قبل أن تنام نبيلة ، أعدت حقيبة ملابسها وأوراقها ، وتأكدت من حقيبة اليد ، ولم تنس المصحف الصغير الذى قدّمه لها الدكتور سالم هدية . قبّلت المصحف ، تذكرت وجه سالم الواثق الباسم المؤمن ، وقادها استرسالها إلى التفكير إلى حيث هو الآن . ترى ماذا سيفعلون به ؟؟ الصورة الكئيبة تلح على ذهنها .. السياط .. العروسة .. الدماء .. الصراخ .. المحققون .. تُرى هل ستنطفىء ابتسامته الواثقة فى هذا الأتون المشتعل بالحقد والكراهية والدمار ؟؟ وألقت بوجهها على الوسادة وهى تشهق باكية وتقول :

– «يا إلهى هذا كثير !! لماذا لا تحرق الظلم والظالمين .. هذا ليس بكثير عليك وأنت القاهر القادر ..» .

وفى الرابعة صباحًا نهضت من فراشها دون أن تذوق للنوم طعمًا ، واغتسلت وصلّت الصبح ، ثم مشت بهدوء وخفة ، وفتحت الباب ، وأمام البيت وقفت تنتظر التاكسى .. كان البرد يثلج الأطراف ، لكنها كانت تشعر بقدر كبير من الثقة والاطمئنان .. أن الله لن يخذلها ، لقد نسيت أن تودع أمها وأباها وأهل منزلها .. لا بأس ، فَهُم فى قلبها دائمًا ، وقد تركت لهم رسالة ، كما تركت رسالة أخرى موجهة إلى عطوة الملوانى قائد السجن .. ومر الوقت وكأنها تحلم .. دخولها المطار .. ومرورها من باب الجوازات .. وعيون الضباط التى تتفحص كل مسافر ، وتدقق النظر فى جواز سفره .. التفتيش .. الجلوس على المقعد فى الطائرة .. كان الوقت يمر بطيئًا ثقيلاً مرهقًا للأعصاب ، الدقائق كأنها سنوات .. هى لا تصدق أن الطائرة سوف تُحلق بها فى السماء .. وأخيرًا حان الوقت ودارت المحركات .. ونظرت من

النافذة .. المبانى الشاهقة يحبو عليها ضوء الشمس الوليد .. وكأنها لعب صغيرة .. والطرق كالخيوط السوداء الرفيعة .. لم تستمع جيدًا لما قالته المضيفة من خلال مكبر الصوت عن تمنياتها للركاب بالرحلة السعيدة ، ولم تكترث للإرشادات التقليدية عن عدم التدخين ، وعن ربط الأحزمة ، وعن سترة النجاة ، وقناع الأكسجين ..

وغاصت الطائرة فى قلب السُّحب .. تنهدت فى ارتياح غريب ، شعرت بسعادة لم تر لها مثيلاً فى حياتها .. الطائر الحبيس قد انطلق من قفصه إلى الآفاق الشاسعة الحلوة .. الحرية .. والصفاء .. أشرق النور فجأة فملأ رحاب روحها وجسدها ، عيناها تترعان من ذلك النور الإلهى ، ولم يعكر صفو هذه الأحلام الجميلة إلا صورة سلوى فى بيتها الحزين وصابر على كتفها ، وصورة سالم ومعطفه الأبيض وقد شاب بياضه بقع الدماء الطاهرة .. والحيوان عطوة وحوله الكلاب وبيده السوط .. وذلك الكابوس المرعب يطاردها وهى فى قلب السماء بين السحب البيضاء .. على أجنحة الحب الكبير الطائر إلى الآفاق الرحبة ..

الفصل ٢١

امتزت الأسرة كلها عندما اكتشفوا سفر نبيلة المفاجئ، بكت الأم بكاءًا مرًا، وكذلك بكى الأبناء والبنات وخاصة الأطفال، وأمسك أبوها الخطاب الذى تركته له بيد مرتعشة، وأخذ يقرؤه للمرة الخامسة أو السادسة :

« أبى .. أمى .. إخوانى وأخواتى الأحباب ..

تلك إرادة الله .. لم أكن أتصور فى يوم من الأيام ما حدث .. كنت أعيش فى هدوء بال، أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى .. وأعلِّم البنات .. لم أكن أعرف أن للحياة جانبًا آخر مجهولاً تمامًا بالنسبة لى .. وعندما قادتنى الصدفة البحتة إلى ذلك الجانب .. فوجئت .. نعم فقد رأيت عالمًا جديدًا .. قارة موحشة مليئة بالغابات .. والضوارى .. والعذاب .. رأيت فيها البشر يُعاملون معاملة أبشع من معاملة الحيوانات .. ورأيت الحياة لعبة فى أيدى الصغار والكبار .. كانت جولتى فى هذا العالم رحلة مرعبة، برغم قصر المدة .. صدمت فى البداية صدمة عنيفة .. فقدت اتزانى .. وكدت أفقد عقلى .. لم أكن أتصور أن هذا يحدث فى القرن العشرين .. ولم أكن أتصور أيضًا أن يكون هذا هو ثمن الولاء والحب والتأييد الواسع الذى منحناه للثوار فى البداية عن طيب خاطر .. كأن بالإمكان أن تزدهر الثورة وتثمر أعظم الثمار إذا رويناها بماء الحب والحرية والأخوة الصادقة .. لكن الغرور الإنسانى والأنانية وسوء الخلق المتأصل قد وضع أقدارنا فى أيد جاهلة حمقاء قاسية لا ترحم، ولا تعرف القيم العليا الشريفة للإنسانية التى كافحت عبر القرون من أجل إرساء دعائمها .. وهكذا أراد الله أن أرى فى السجن الحربى .. وفى مبنى المخابرات العامة .. وفى مكاتب رئاسة الجمهورية .. ما تشيب لهوله الولدان .. رأيت

أقوامًا صابرين تعساء يلاقون من العنت والعذاب ما لا يتحمله بشر ولا حيوان .. ورأيت عبيدًا بأيديهم السياط وأدوات القهر والظلم، وهم يحيون ويميتون، وكأنهم- حاشا لله- قد اغتصبوا الحق الإلهى فى التحكم بأعمار البشر .. الحق أننى فى البداية لم أكن أصدق أن هذا يحدث فعلًا .. كنت أظن أننى نائمة .. وأن ما أراه ما هو إلا كابوس أو حلم رهيب .. إنها الخيانة والغدر والانحراف بأبشع معانيها .. لم يكن هناك حل للخلاص من هذا العناد كله، أو من بعضه على الأقل إلا أن أرحل إما إلى القبر .. أو إلى حياة جديدة أستطيع أن أعيش فيها كإنسانة، وأن أفكر ثم أعمل شيئًا، لعلى أقدر على تحطيم هذه الأغلال التى تكبل الناس .. أعترف بأننى ضعيفة .. وأن صوتى واهن لا يستطيع أن يخترق هذا الهدير الصاخب من الإعلام الكاذب، والادعاءات الباطلة، لكنى واثقة وعلى يقين تام أن مجموع الأصوات الواهنة، قد ينشر بين الناس فى مختلف أنحاء العالم قصة الغدر الأكبر .. أو على الأقل سطورًا منها .. والعالم لم تزل فيه بقية من خير وأمل .. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ .. وقد تطول غيبتى أو تكثر .. وقد أنجح أولا أنجح .. المهم أن أفعل شيئًا، لأننى برغم ضعفى وصوتى الواهن أشعر بمسئولية كبرى أمام الله .. وأمام الأجيال المقبلة .. وأمام التاريخ الذى نصنعه بعرقنا وكفاحنا وتضحياتنا المتصلة ..

أمى الحبيبة .. قُبلة على جبينك الطاهر .. صورتك معى لن تفارقنى .. إخوتى وأخواتى الصغار .. ستظل أذنى عامرة بأصواتكم الندية .. بتغريدكم الحلو .. وسأدعو لكم الله أن يجعل غدكم أفضل من حاضرنا .. وأن يوفقكم إلى طريق الحب والسلام والإخاء .. وإلى اللقاء ..» .

نبيلة ...

وكاد عطوة أن يفقد صوابه عندما جاء بعد الظهر لإجراء اللمسات

الأخيرة على تنظيمات الحفل المزمع إقامته لعقد القران، وعندما أخبروه أن نبيلة قد سافرت إلى «الكويت» اعتبر الأمر مجرد مزحة سخيفة، وأخذ يقهقه فى هستيرية، وعندما سلموه الخطاب المغلق الذى تركته له، فضّه فى عصبية وأخذ يقرأ..

«إن نشوة النصر التى تنعم بها يا عطوة ما هى إلا وهم كبير.. وإن عساكرك وكلابك ورؤساءك لن يحصنوك دائمًا ضد الفشل والخيبة والهزيمة.. والنياشين التى على صدرك ليست إلا وصمة عار.. لأن ثمنها قذر.. هى مصدر للخزى والعار، وليست رمزًا للنصر والفخر.. إن امرأة ضعيفة مثلى استطاعت بقليل من التفكير والإصرار والإيمان بالله.. أن تمرغ كبرياءك فى الوحل، وأن تجعلك تشعر بمهانة الحرمان والذل والغيظ المشتعل.. أنت لا تعرف من هو الإنسان.. لأنك لم تجرب مرة واحدة أن تكون إنسانًا.. ثقتك فى كلابك أقوى من ثقتك بمن تعاشر من الأهل والأصدقاء ورفاق العمل.. يا عطوة أنت حيوان أحمق.. كلب مسعور.. لن تجد فى يوم من الأيام المرأة التى تحترمك.. أوصلت بك النذالة لدرجة أن تحرض علىّ شياطين المخابرات، وتُخرجون ذلك المشهد التمثيلى الرخيص، ثم تأتى أنت لتنقذنى من المأزق الذى دبرته لى ؟؟ أى انحطاط وأى حيوانية !! إذن فالقصة هكذا ؟؟ ومبادئكم هى هذه ؟؟

يا لتعاسة شعب تحكمونه بهذا الأسلوب المدنس، وبهذه الفلسفة السوداء المنحرفة !! لن تطولنى يدك النجسة بعد اليوم.. يا إلهى !! كم كنت أشعر بالضيق والغثيان حينما كنت ألتقى بك !! إن مثلك لا يمكن أن تكون له أسرة وأبناء.. لأنك لا تعرف معنى الحنان والحب.. لأنك قاس شاذ.. نعم شاذ وأنت تعلم ذلك والناس يتحدثون عنه فى كل مكان.. بل إن بعض الصحف العربية والعالمية أشارت إليه.. عندما تقرأ هذه السطور أكون أنا بعيدة عن مخالبك المخضبة بدماء الشهداء الأبرار الذين سقتهم إلى ساحة الموت عامدًا متعمدًا.. وكأنك تلعب

دورًا من أدوار الشطرنج الذى تهزم فيه دائمًا كما علمت من قريبتى التى قدمتك إلىّ .. ساكون بعيدة .. لكنى ساحمل قلمى، وأسدد إليك وإلى سادتك سهامه القاتلة .. ولست فى عجلة من أمرى .. فالأيام بيننا .. والطريق طويل، وأنا لم أزل فى ريعان الشباب، وثقتى فى الله كبيرة بأن يمد من عمرى حتى أراك أضحوكة .. أعنى عبرة لكل الطغاة الصغار .. قد تسخر من كلماتى لأن كل القوة فى أيديكم .. والنصر ينعقد لواؤه لكم .. لكن تذكّر أنه لو دامت لغيرك لما وصلت إليك .. وتذكّر أنك لست أقوى ممن خلقك يا عطوة .. وأنك من سنين كنت طفلاً تبول على نفسك .. وتحبو على الأرض كجرو حقير .. وكان مدرسوك فى المدرسة يضربونك على مؤخرتك بالعصا لغبائك، ومحاولتك الغش .. ألم يفصلوك عامًا من الدراسة عندما أمسكوا معك «البرشام» أثناء الامتحان ؟؟ لقد فكرت أن أدعوا لك بالهداية .. لكن أعتقد- وليسامحنى الله- أن مثلك لا يهتدى أبدًا .. لأنك لا تريد ذلك، ولا تفكر فى السعى إليه .. بل إنك تعتقد أن الحياة التى تعيشها هى عين الصواب ولب الهداية .. عليك اللعنة .. أنت لا تعرف فرحة الأسير، وهو يفر من أسره، ويحلق فى السماء قرب السحاب .. إنها لسعادة كبرى تؤكد للإنسان أن الحرية أروع ما فى الوجود .. أنا لم أجرب ذلك حتى كتابة هذه السطور، ولكنى أحلم به، وعلى يقين كامل بأنك لن تستطيع اللحاق بى .. مت بغيظك وبهزيمتك .. ولتجرب أن تبصق على وجهك امرأة تعرف الله .. وتقدس الحرية .. وتصر على مواصلة الجهاد .. كى يعيش الناس فى حب وسلام .. آمنين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .. ولك منى كل اللعنات .. تعبيرًا عما يعتمل فى قلوب المحرومين والمظلومين الذين اكتووا بنيران غدرك .. ولا سلام ..» .

نبيلة ...

دارت الأرض بعطوة، ارتمى لاهثًا على أقرب مقعد، العرق يتقاطر على جبينه المحتقن .. عيناه تتحركان فى هستيرية، دق الأرض

بقدمه ، ونبح :

– « إن عطوة يعرف كيف ينتقم ..» .

قال أبوها فى توسل :

– « صبرًا يا عطوة بك ، لكل شيء حل ..» .

نظر إليه بعيون تتقد حنقًا وغيظًا :

– « هل قرأت ما كتبت ؟؟ » .

– « ليس لى الحق فى ذلك ..» .

هبَّ عطوة واقفًا وصرخ :

– « أنتم على علم بكل ما كانت تدبر ..» .

خطا الوالد العجوز نحوه وشاربه الأبيض يرتجف :

– « والله يا ابنى لقد فوجئنا تمامًا مثلك بكل ما حدث ..» .

أخذ عطوة يضرب الحائط بقبضته المتشنجة ضربات متتالية ويقول :

– «كيف خرجت من البيت ؟؟ هل كنتم نائمين ؟؟ كيف استخرجت جواز السفر ؟؟ كيف ؟؟ كيف ؟؟ إننى لست ساذجًا .. ستدفعون الثمن غاليًا .. أرنى الخطاب الذى تركته لكم ..» .

كانت يد العجوز ترتعش وهو يقدم له الخطاب ، اختطفه عطوة وأخذ يمر على سطوره بسرعة وتوتر ، وأخيرًا قال :

– « هذه أدلة كافية لمحاكمتها ..» .

– « محاكمتها ؟؟ » .

قال الأب فى دهشة ، فردَّ فى عطوة فى إصرار :

– « نعم .. حتى ولو كانت محاكمة غيابية » .

– « يا ولدى .. إنها مجرد نزوة لها ما يبررها ، وسرعان ما تثوب إلى رشدها .. عندئذ تحمل حقائبها وتعود .. سوف أكتب إليها .. بل فى إمكانى أن أسافر إلى حيث ذهبت ولا أرجع إلا بها .. ليبق الأمر سرًا بيننا يا عطوة ونحاول حله بالعقل ..» .

مدَّ عطوة عنقه صوب والد نبيلة وقال :

– «لم يعد لدى ذرة عقل .. سوف نطلب من الحكومة الكويتية رسميًا تسليمها للسلطات المصرية لمحاكمتها ..» .

– «وهذا هو الدليل ..» .

ثم أخذ عطوة يجفف عرقه ، وهو يلهث قائلاً :

– «وإن فشلت الطرق الدبلوماسية .. فسنأتى بها فى جوال مهرب .. إننا نفعلها كثيرًا وإن فشل هذا أيضًا .. فسوف نقتلها أو ندس لها السم .. إن رجالنا فى كل مكان فى العالم .. يجب أن يفهموا ذلك ..» .

وساد الصمت العاصف ، وجاءت أم نبيلة وهى تتوكأ على عصاها والدموع تغمر خديها الشاحبين ، وقالت :

– «عطوة يا ولدى .. إن ما تقوله لن يحل المشكلة .. لنلجأ إلى الحيلة ..» .

قال عطوة :

– «لا يلجأ للحيل إلا الضعفاء .. أما نحن فنستطيع أن نفعل أى شىء .. يمكننا أن نغير الحكم فى الدول .. وأن نشعل الثورات الشعبية ضد الحكام الذين لا يسيرون فى فلكنا .. إننا نهز أعمدة البيت الأبيض فى أمريكا .. والكرملين فى روسيا .. أنعجز التعامل مع حشرة تافهة تدعى نبيلة .. أقسم بشرفى لأشربن من دمها ..» .

اقتربت المرأة منه ، وحاولت أن تربت على كتف ، لكنه دفع يدها فى غلظة وقال :

– «وستحاكمون أنتم أيضًا ..» .

قال العجوز وقد شحب وجهه :

– «وما ذنبنا يا ولدى ؟؟» .

– «التستر على الجريمة ..» .

– «أية جريمة ؟؟» .

– « ألم تعرف بعد ؟؟ » .

– « إنها سافرت خارج الوطن .. ومن حق أى مواطن أن يفعل ذلك ..» .

قهقه عطوة كشيطان ، ونظر إلى والد نبيلة قائلاً :

– « تستطيع أن تقول مثل هذا العبث فى التحقيق ..» .

ثم لوّح بالخطابين اللذين فى يده قائلاً :

– « وهذا ؟؟ ألا يُعد طعنًا صريحًا فى نظام الحكم ، وسبًا علنيًا بخط يدها فى حق أشخاص لهم وزنهم وتاريخهم الثورى العريق؟؟ » .

وخطا عطوة صوب الرجل وقال :

– « بل وسوف يُحاكم كل من ساعدها فى استخراج جواز السفر وتأشيرة الخروج .. البلد ليست فوضى .. نحن نحكمها بيد من حديد ..» .

وعاد عطوة أدراجه صوب باب الشقة عازمًا على الخروج ، وقال قبل أن يغلق الباب فى غيظ :

– « وعندما تعلم نبيلة وهى فى الكويت أن أباها .. وأمها .. وكل أفراد أسرتها قد سيقوا إلى الموت الأحمر فى السجن الحربى .. عندما تعلم ذلك فستأتى بنفسها إذا كان لديها ضمير حى .. أو تفقد عقلها ، أو تنتحر إذا لم تتخذ ذلك القرار بالعودة .. ولن يكون هناك مخرج إلا هذا ..» .

وما أن أغلق عطوة الباب ، حتى سقط الأب ، وهو يضع يده على صدره قائلاً :

– « فليفعل الله ما يشاء ..» .

وبدا على وجهه أنه يتألم ويلهث ، والعرق البارد قد ندّى جبينه الشاحب وقال بصوت واهن :

– « أم نبيلة .. جرعة ماء ..» .

قالت الزوجة بعد أن رمت بالعصا التى تتوكأ عليها ، وانحنت صوبه :

- « ماذا بك يا حبيبى ؟؟ » .

- « أشعر بالألم هنا .. وبالاختناق .. أسرعى بالماء ..» .

صاحت بأعلى صوتها مستنجدة ، فقدم أهل البيت فى ذعر ، وأسرعوا بالاتصال تليفونيًا بأحد الأطباء ، كان الوقت يمر عصيبًا ، مشحونًا بالخوف والقلق ، ومن آن لآخر كانت أم نبيلة تبكى فى مرارة وتقول :

- «قتلوك يا حبيبى .. منهم لله .. هو المنتقم الجبار .. ليس لنا سواه لنلجأ إليه .. يا رب .. لأجل خاطرى يا رب .. من أجل الأطفال .. يا رب احفظه .. أنت الشافى .. وبغيرك لن نستجير ..» .

عندما جاء الطبيب وفحص الأب ، وقال :

- « لا تنزعجوا .. إنها نوبة قلبية غير خطرة من أثر الانفعال .. لابد من الراحة التامة ، وتعاطى العلاج بانتظام .. ومن المفيد استخدام جهاز استنشاق للأكسجين .. ولذا أعتقد أن الأصوب نقله إلى المستشفى لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع ليلقى الرعاية الكافية .. أكرر مرة أخرى لا تنزعجوا ..» .

قالت الأم باكية :

- « يا حبيبى .. ليتنى كنت أنا !! منهم لله ..» .

ابتسم الأب فى هدوء وإيمان :

- « لا تبكى يا أم نبيلة .. فالأعمار بيد الله ..» .

وعاد يقول محاولاً المرح :

- « عمر الشقى بقى يا امرأة ..» .

أما عطوة فقد انطلق إلى مبنى المخابرات العامة ، والتقى بأحد أصدقائه وشرح له الأمر بتفاصيله ، ثم قدم له الخطابين اللذين كتبتهما نبيلة بخط يدها ، قال الصديق :

– «حسنًا .. وماذا نفعل يا عطوة ؟؟» .

– «صالح بك .. أنت تعرف ما يجب عمله ..» .

عاد صالح ينظر إلى الأوراق ويقول :

– «هذه السطور تدين نبيلة بلا شك ، لكن الكويت والسعودية يرفضون تسليم الإخوان المسلمين ..» .

– «مستحيل ..» .

– «هذا هو الواقع يا عطوة !!» .

– «بأى منطق ؟؟» .

– «اسمعنى جيدًا .. هذا الموضوع يا عطوة قد فحصناه جيدًا ، إنهم فى هذه البلاد يعتقدون أن اللاجىء السياسى الذى ينزل بلادهم لا يصح أن يسلموه لنا .. هذه عادتهم وتقاليدهم العربية .. لا يغدرون بالضيف ، وعندما يرغبون عنه ، يطلبون منه أن يختار بلدًا آخر .. لكن من المستحيل أن يسلموه لنا ، ثم لا تنس أننا بدورنا نؤوى لاجئين سياسيين من المناوئين لبعضهم ولا نسلمهم ..» .

قال عطوة فى حماقة :

– «فلنسلمهم واحدًا مقابل نبيلة ..» .

– «هذه سياسة عليا يا عطوة لا نتدخل فيها .. أنت تعرف ..» .

هبَّ عطوة من مقعده واقفًا وقال :

– «فلنقبض على أهلها كوسيلة للضغط .. إننا نفعل ذلك كثيرًا .. سدَّد صالح إليه نظرات صارمة وقال :

– «عطوة ..» .

– «تحت أمرك ..» .

– «لن أستطيع أن أفعل ..» .

– «إنك تفعل ما هو أخطر وأكبر ..» .

– «أعرف .. لكن هذا الموضوع بالذات لا يمكن ..» .

– «لماذا ؟؟» .

– « لأن الرئيس نفسه علم بالتمثيلية القديمة ..» .
– « ماذا تقصد .. ؟ » .
– « أقصد حكاية اعتقال نبيلة ..» .
دق عطوة بقبضته على المكتب قائلاً :
– « مستحيل .. من أخبره بذلك ؟؟ » .
– « لا أدرى .. لكنه كان يضحك لطرافة الأمر .. ومع ذلك فقد عتب علينا عتابًا مرًّا ..» .
– « هذا عجيب .. كيف عرف ؟؟ أكاد أجن ..» .
قال صالح دون اكتراث :
– « إنه يعرف كل شيء .. البلد فيها مائة جهاز وجهاز يا عطوة .. هل تجهل ذلك ؟؟ ثم إنك مفلوت اللسان ..» .
قال عطوة وهو يشير بإبهامه إلى صدره :
– « أنا ؟؟ » .
هزَّ صالح كتفه فى امتعاض وقال :
– « الله أعلم ..» .
أخرج عطوة سيجارة وهو منفعل ، فهمَّ صالح بك بإشعالها له ، وعاد عطوة يقول فى تذلل :
– « لماذا لا نجرؤ ونفعلها دون أن يعلم الرئيس ؟؟ » .
– « اعقل يا عطوة ..» .
– « نحن إخوة يا صالح ..» .
– « لكن لا تخرب بيوتنا ..» .
– « فى السر ..» .
– « والأجهزة المنبثة فى كل مكان ؟؟ » .
– « يا صالح .. إننا نتبادل الخدمات دائمًا ..» .
– « لكل شيء حد .. اعذرنى ..» .
شرد عطوة بضع لحظات ، ثم قال :

- « أترضى أن تهزمنى امرأة لا يزيد وزنها عن خمسين كيلو جرام ؟؟ » .
- « يجب أن تتعلم ..» .
- « أتعلم ماذا ؟؟ » .
- « الصبر .. والدهاء .. ما كُل شيء يؤخذ بالقوة ..» .
- « جربت .. وفشلت ..» .
- « لأنك يا عطوة عدو الزمن .. تريد أن تسبقه ..» .
عاد عطوة يدق الطاولة بقبضة يده ويقول :
- « أريد حلًا حاسمًا ..» .
- « الصبر ..» .
- « الصبر ليس حلًا .. إنه مجرد مخدر لا يمكننى إدمانه ..» .
- « دع الأمر لى ..» .
- « إلى متى ؟؟ » .
- « مرة أخرى .. لابد من الصبر ..» .
- « إذن سيسخر منى أهلها ، سيعتبرون تهديداتى مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها ، وسأعيش أكتوى بنيران العجز والهزيمة ، وأنا عطوة الذى يعرفه الناس ، وستفضحنا نبيلة فى الخارج وتدبج المقالات ، وتنشد القصائد فى مهاجمتنا وستعود المظاهرات ..» .
ثم التفت إلى صالح قائلًا :
- « قل لى بربك ، هل هذا فى مصلحة الرئيس أو فى مصلحة الدولة؟؟ ماذا جرى لعقولكم .. إن تهاوننا فى هذه الحالة يعتبر خيانة ..» .
قال صالح بك فى حزم :
- « الرئاسة وحدها هى القادرة على أن تزن الأمور ، وتتخذ القرار ..» .

قال عطوة وهو يزمع الخروج :
- «وأنا بدورى سأعرض الأمر على الرئاسة ..» .
- «لن يكون فى مصلحتك ..» .
عاد عطوة إلى مقعده وجلس وقلبه يدق من الخوف ، وقد ساد الشحوب وجهه الأشقر :
- «كيف ؟؟» .
ولما لم يجب صالح عاد عطوة يقول :
- «لم أفعل طوال خدمتى مع الرئاسة ما يشكك فى إخلاصى وتفانى .. أنت تعرف ذلك جيدًا .. ما حدث قط أن خالفت أمرًا .. وهم أيضًا يعرفون ..» .
قال صالح :
- «دع الأمر لى .. وسأتدبره بكل اهتمام .. وقد نفعل ما يريحك ..» .
فنهض عطوة ، وانقض على رأس صالح وأخذ يقبله وهو يقول :
- «طول عمرك شهم .. أنا أعرفك يا صالح .. وحياة والدك تخدمنى ..» .
ابتسم صالح ولم ينبس .
لكن عطوة بدا قلقًا فى مقعده ، وشرد بضع لحظات ثم قال :
- «أفهم من ذلك أن الرئاسة غير راضية عنى تمامًا ؟؟» .
ضحك صالح فى خبث وقال :
- «يا راجل لا تشغل بالك ..» .
- «تهمنى الرئاسة بالدرجة الأولى .. إنها كل حياتى ..» .
- «لا تخف ..» .
- «لكن كلامك يعنى أمورًا خطيرة ..» .
- «أنت شكّاك ، وتحب تأويل الكلمات البريئة .. لم أقصد شيئًا من هذا ..» .

وسادت فترة صمت قصيرة قطعها صالح قائلاً :

– «أنا مشغول .. وأنت أيضًا .. ألم يقبضوا على تنظيم سرى جديدًا للإخوان المسلمين ؟؟» .

هزَّ عطوة رأسه قائلاً :

– «نعم .. سأذهب . وسأصب جام غضبى من نبيلة على رؤوسهم على رؤوس كل الإخوان دون تفريق .. وسأجعلهم يدفعون الثمن غاليًا ..» .

الفصل ٢٢

أصبح من المألوف فى الأيام الأخيرة أن يندلع العنف الدموى فى السجن الحربى، فيساق المعتقلون إلى الساحة فى الصباح– بعد تناول طعام الإفطار– ثم يبدأ الطابور القاسى، الذى يقطع الأنفاس، بالإضافة إلى سياط الزبانية، وسيل الشتائم الذى يتدفق من أفواههم دون حساب، وانطلاق الكلاب المدربة خلف التعساء لتنهش لحوم البعض، أو تنشب أظافرها فى أجسادهم، مع ما يبعثه النباح من توتر وهياج فى صفوف العساكر ومن ثم يتبارون مع الكلاب فى القسوة، وفى وسط الساحة يقف عطوة بك الملوانى بشعره المنتفش الأصفر، واضعًا يده فى جيوب سترته، ومن حوله تنطلق طوابير العذاب، وكأنه مركز الدائرة، وبالطبع فإن هذه الطوابير اليومية العامة لجميع المعتقلين، تضم المتهم فى قضية وغير المتهم، وفيها من اعتقل ظلمًا، ومن اعتقل بسبب انتسابه إلى الجماعة فى يوم من الأيام .. أما الذين يقفون فى المساء فى ساحة التحقيق فلهم عقاب آخر بالإضافة لما يلاقونه فى الصباح مع باقى المعتقلين .. وكان من المعروف أن زيادة العنف واتساع نطاقه فى الآونة الأخيرة راجع إلى ما يطلقون عليه التنظيم الجديد، وهو فى الواقع ليس تنظيمًا سياسيًا أو دينيًا بالمعنى الدقيق، ولكنه عبارة عن مجموعة من أهل الخير، قاموا بحصر الأسر التى سجن عائلها وتركها دون مورد رزق، ومن ثم أخذوا يجمعون بعض التبرعات فى الخفاء، ثم يقدمونها سرًا إلى ربات البيوت المساكين، حتى يستطيعوا الإنفاق على أطفالهم، فيوفروا لهم لقمة العيش الضرورية، ومصاريف المدرسة، وإيجار السكن، واستهلاك

الكهرباء ، وهى أشياء لا يمكن تأجيلها ، وقد فوجىء المحققون بعدد غير قليل من تلامذة المدارس الذين كانت تتراوح تبرعاتهم شهريًا بين خمسة قروش وعشرة ، كما لم يثبت أن بينهم من تآمر أو أعاد تشكيل الجماعة المنحلة ، ولهذا أطلق المحققون على هذا التنظيم «الجهاز التمويلى»، وقد كان رد الفعل لهذا التنظيم لدى الحكومة عنيفًا وصارمًا ، وكان غضبهم لا حد له :

وعندما أخذ أحد المتهمين يشرح لهم كيف أن هذا العمل البرىء هو إنسانى محض، ولا صلة له بأية مؤامرات أو تدبير انقلابات ، أو مجرد نوايا مبيتة، سخر منه المحققون ، وأفهموه أن للحكومة رأيًا آخر ، إذ أن هذا التجمع يعنى أن هناك عاطفة ما تربط بين الأفراد ، وأن هذه العاطفة التى تعنى الترابط والحب والإبقاء على الود القديم لها خطورتها ، ومن ثم فإن التجمع قد يتطور ويتحول إلى تنظيم سرى مسلح يشترى السلاح ، ويدبر المؤامرات ، ويسفك الدماء وقال آخرون من المتهمين ليس هناك قانون- لا فى مصر وحدها- بل فى جميع أنحاء الدنيا يدين جامعى التبرعات بالخيانة العظمى ، وخاصة أنه قد ثبت اشتراك غير المسلمين فى دفع هذه التبرعات لمن يعرفونهم من أسر الإخوان ، ومن ثم عومل أعضاء التنظيم الجديد معاملة بشعة لا تقل عن مثيلاتها فى بداية محاكمات الإخوان بعد حادث المنشية ، وبعد إعدام عدد من المتهمين ..

وإذا كانت المحاكمات الأولى شبه علنية ، وينشر عنها فى الصحف ووسائل الإعلام المختلفة بطريقة متعمدة لطمس الحقائق والمبالغات، إلا أن هذه المحاكمات الجديدة كانت سرية تمامًا ، وتجرى وسط ثكنات الجيش دون جمهور أو محامين.. كان «القاضى» الشهير «اللواء صلاح حتاتة» ويجلس وعلى الجانبين عضوان.. ثم هناك إلى جوار المنصة يجلس الكتبة، ومن الأمام يجلس بعض المتهمين ، وخلفهم الحراس الذين قدموا من بعض مواقع

الجيش ، ولا يعرفون شيئًا عما يجرى أمامهم ، فلم يكن يُسمح لهم بالكلام مع أحد أو الرد على أى استفسار .

فى هذا الجو المكفهر بالسجن الحربى كانت تحدث أمور محزنة ، لقد كان المعتقلون– بدون محاكمة– يظنون أن أيام العنف والعذاب قد ولَّت بعد تلك الفترة التى قضوها وراء الأسوار ، ولهذا فإن تجدد التعذيب والإيذاء بصورة لا تقل قسوة عن الماضى قد تسبب فى خلق مصاعب جديدة لهم ، فهناك بعض المعتقلين لم يتحملوا ذلك العنت كله ، ومن ثم ظهرت حالات مرضية من نوع جديد ، فالمعتقل «نور الدين» قد أصيب بالعمى ، وقد شخَّصه طبيب السجن على أنه «عمى نفسى» ، والسجين «سعد زهران» قد أقعده الشلل النصفى فلم يعد يستطيع السير أو النهوض ، ولم تفلح السياط فى جعله يتحرك من مكانه ، وقد شخَّصه طبيب السجن أيضًا على أنه «شلل نفسى» وهكذا زادت حالات الصرع والتشنجات العصبية والجنون والانهيار ، مما جعل عددًا آخر يتمنى الموت العاجل للخلاص من هذه الضغوط النفسية والجسدية الهائلة ، ولم يعزل هؤلاء المرضى فى مستشفى أو حتى فى أماكن خاصة بهم ، بل تركوا فى زنزاناتهم وسط المعتقلين ، ليضيفوا إلى همومهم آلامًا أخرى من نوع جديد ، وعلى الرغم من الصمود العام العجيب الذى أبدته غالبية المعتقلين إلا أن نفرًا قليلًا منهم رأى أن الأزمة قد استحكمت ، وأن الأمور تنتقل من سيء إلى أسوء وتساءل هؤلاء : لماذا لا نتفاهم مع الحكومة ؟؟ ووجد هذا التساؤل استنكارًا من الغالبية العظمى ، ورفضوا ذلك المبدأ مهما كانت دوافعه النبيلة التى ترمى إلى إنقاذ البقية الباقية ، ووقف مهرجانات التعذيب المحزنة ، وإنقاذ المرضى من الضياع الأبدى ، وكذلك حماية الأسر من الضياع والانهيار الأبدى ، لم يكن هذا التيار الرامى إلى التفاهم– برغم صغره– قد يئس من الخلاص ، أو ضعفت لديه قوة العزيمة ، أو تراخت قبضته على المبادىء التى تشبث بها وإنما الهدف هو لون من

المهادنة، حتى تخف وطأة العنف، ويستجمع المحبوسون شتات فكرهم، ويلتقطوا أنفاسهم، وقد دارت المناقشات الحامية خلف الأبواب المغلقة ليل نهار، لكن معروفًا قال فى يقين :

– «أيها الإخوان .. أنتم واهمون .. فالحكومة سوف ترفض أى تفاهم لأنها فى موقع السيطرة والقوة .. وواضح أن تصرفات المسئولين تعنى شيئًا واحدًا .. هو القضاء علينا .. سواء قضوا علينا بالتصفية الجسدية، أو بالتدمير النفسى، أو بذر بذور الشقاق بين صفوفنا، أو إثارة الاضطراب الفكرى لدينا، حتى نتنكر لعقيدتنا وماضينا النضالى فى سبيل الله .. تلك هى خطة الحكومة، ولن تتخلى عنها مهما فعلنا .. وليس أمامنا سوى الصبر، واللجوء إلى الله، والتمسك بمبادئنا .. ما دمنا على طريق الحق الذى رسمه الله ورسوله .. واللجوء لغير الله شرك .. فاستعينوا بالله واصبروا، والعاقبة للمتقين .. ولا تنظروا إلى نتيجة المعركة اليوم من خلال الصعاب والهزائم التى منينا بها .. ليست معركة المبادئ يومًا أو شهرًا أو عامًا أو أعوامًا .. إنها معركة دائمة .. ونتيجتها لم تظهر بعد .. إن أعتى النظم قد تنهار فى ساعات .. والحاكم الباطش الجبار قد يلفظ أنفاسه وهو جالس يضحك أو يلعب الشطرنج أو يوقّع قرارات هامة .. فالأعمار بيد الله .. ثم من نحن ؟؟ نحن نتحرك فى حيز زمنى محدود فى الدنيا .. قد يتسع هذا الحيز .. وقد يضيق .. لكنه على أية حال محدود .. ففيم الانشقاق والوجل واللهفة ؟؟ إن زلزالاً واحدًا يدمر عشرات الألوف من البشر والمبانى فى ثوان فلنترك أمر الحياة والموت لله .. ولنترك أيضًا أمر الرزق لله، وصدق حبيبنا رسول الله إذ يقول : «لا راحة فى الدنيا .. ولا حيلة فى الرزق .. ولا شفاعة فى الموت ..» أو ما معناه .. لقد كنا نقوم بتبليغ الرسالة ونحن خارج الأسوار ونحن الآن فى هذه العزلة المريرة نؤدى نفس الرسالة بصورة أروع ..».

لم يفكر أحد فى أن يرد على معروف ، كان رزق إبراهيم يستمع إليه فى لهفة ويتابع كل كلمة يقولها ، وكان الشاعر يوسف شاردًا فى الظاهر ، لكن عبارات معروف كانت تتجسد فى خياله شخوصًا وأحداثًا وموسيقى ، إنها بناء خالد لقصيدة من الشعر الذى تظل الأجيال تردده عبر القرون ، وكان عبد الحميد النجار برغم الجروح والكلمات والآلام يتمثل الحروف والكلمات ، أما محمود صقر الذى شفيت جراحه أو كادت ، فهو الآخر يجلس صامتًا وابتسامة من نوع عجيب ترتسم على محياه الشاحب ، وفى عينيه يلمع بريق سحرى يشد إليه القلوب والأرواح ، وطال الصمت ، وأخذ كل يسبح فى عالمه الخاص ، محمود صقر يتذكر « أمل » إنه ظمآن والكأس المتلألىء فى يديها يفيض بالرى ، وعبد الحميد يتذكر المسكينة بعذابها وارتياعها أثناء التحقيق فى منشورات سوريا ، إن قلبه يخفق لذكراها : « آه .. عندما أخرج إلى الدنيا من جديد فلسوف أذهب إليها .. يا ربى .. إننى لا أعرف عنوانها .. هذا لا يهم .. إننى أتصور أن بإمكانى أن أعثر عليها .. وقلبى سوف يدلنى عليها .. لكن أيمكن أن تتزوج من طالب علم .. فقير .. ولاجىء فلسطينى قد يُطرد من مصر إذا خرج ؟؟ ومتى يخرج .. ها هو الباب القائم مغلق تمامًا .. وخلف الباب أسوار .. وأسلاك شائكة .. ونداءاتهم التقليدية تتابع واحد تمام .. اثنين تمام .. ثلاثة تمام .. وهكذا .. إنهم لا ينامون .. لكن حبيبة القلب هناك بعيدًا .. وهو يشعر أنها قريبة منه ، وتعيش معه فى قلبه ..» .

«من فضل الله علينا أنهم لا يستطيعون اقتحام عالم الأحلام وإلا لأقاموا ضد كل واحد منا ألف قضية وقضية .. ثم ما هو الفرق بين الواقع والحلم ؟؟ إن كلًا منهما نوع من المعايشة .. مثلًا .. أين الخط الفاصل إذن بين الواقع والحلم ؟؟ إن الحلم واقع .. هانذا أستطيع أن أراها .. وألمسها .. وأكلمها وتكلمنى .. ونختلف ونتفق ، كما يحدث فى واقع الحياة .. لست مجنونًا ، لكنى حقيقة لا أجد فرقًا كبيرًا بين

الواقع والحلم .. كلما استدعيتها فى خيالى جاءت .. كل شىء فى خيالنا نستدعيه يأتى توًا .. دون الحاجة إلى بساط الريح أو خاتم سليمان .. يا قلبى أيها المعجزة الخارقة ، من أى شىء خلقت .. أنت معجزة من معجزات الخالق ..» .

وانطلق الصوت من الخارج :

– « المعتقل عبد الحميد النجار .. المعتقل عبد الحميد النجار .. دق الباب يا ابن الكلب ..» .

فى ثوان كان عبد الحميد يقف خلف باب الزنزانة ويدقه فى عصبية :

– « عبد الحميد النجار يا أفندم .. زنزانة ٤٧ يا فندم ..» .

كانت أقدام العسكرى تدق الأرض خارج الغرفة ، وبدا عبد الحميد مستسلمًا راضيًا بقضاء الله .. وعيون الإخوان تنظر إليه فى إشفاق ، وقلوبهم تدعو له ، ومعروف يمسح خفية دمعة انحدرت على وجنتيه .. وغمغم معروف وهو يتصنع الشجاعة وعدم الاكتراث :

– « الله معك يا عبد الحميد ..» .

ونصب رزق إبراهيم عوده الفارع الأسمر وقال :

– « شد حيلك ..» .

والشاعر يوسف غمغم :

– «﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ ..» .

أمام محمود صقر فقد بقى صامتًا ، والابتسامة الغريبة تضىء محياه الشاحب ، والنظرات الصافية تتألق فى الظلام .. كان عبد الحميد يقرأ « آية الكرسى » وارتفع صوته قليلاً عندما بلغ عبارة ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ثم عاد للقراءة بصوت غير مسموع إلى أن دار المفتاح فى ثقب الباب السميك .. وخرج عبد الحميد .. ثم أغلق الباب مرة أخرى .. وبعد هنيهة جاءهم صوت معروف :

– « فلنقرأ المأثورات .. هيا ..» .

عندما وصل عبد الحميد إلى الساحة، وجدها مكتظة بالبشر، صفوف متلاصقة من المتهمين أو من يمت إليهم بصلة خاصة، الأوامر تتلاحق، والصيحات تختلط، وأساليب متنوعة وعجيبة فى فن الإيذاء والتعذيب، هذا عصر التخصص، ولا عجب فى أن يصبح التعذيب فنًا قائمًا بذاته له خبراؤه وفلاسفته، وله أصوله المدروسة التى استخدمت فيها التكنولوجيا وعلم النفس، شعر عبد الحميد بالضياع والشتات فى ذلك الجو الصاخب، لكن العسكرى من خلفه يأمره .. «يمينًا سر .. شمالاً سر .. للخلف در .. للخلف در .. سريعًا مارش» لكن هناك نداءات متشابهة، وعبد الحميد لم يعد يستطيع أن يفرق بين أوامر سجانه وغيره من السجانين الآخرين، وسمع عبد الحميد أحد العساكر يقول: «الجهاز الجديد أطار برجًا من رأسى» رد زميله: «برجًا واحدًا ؟؟ يا بختك !!» وأخذ عبد الحميد يلف ويدور كالسكران، وأدرك العسكرى ما يعانيه عبد الحميد من حيرة وشتات، فأمسك بذراعه فى غلظة وقال وهو يشير بسبابته:

– «أترى ذلك المكتب ؟؟ هناك على الشمال .. إجر ..».

وطوقه بضربة سوط شديدة، فجرى عبد الحميد صوب المكتب، ووصل إلى الباب وهو يلهث، كان نفس الضابط الذى أجرى معه التحقيق السابق جالسًا خلف مكتبه، وذهل عبد الحميد إذ سمعه يقول فى رقة:

– «تعال يا عبد الحميد يا ابنى .. اجلس ..».

تردد عبد الحميد فى الجلوس، فالكرسى نظيف ومريح وأنيق، وثيابه متسخة ملوثة بالدماء، القديمة، وقال الضابط المحقق الذى يلبس الزى المدنى وهو يحاول أن يبدو مداعبًا خفيف الظل:

– «والله أتعبتمونا يا عبد الحميد .. الله يتعب قلوبكم .. أنا لا أستطيع أن أفهمكم .. شياطين ؟؟ جن ؟؟ أبعد هذا كله تشكلون جهازًا سريًا جديدًا ؟ لقد كنا على وشك الإفراج عنكم .. لكن ماذا نفعل ؟؟

تأبون إلا أن تفسدوا كل شيء بتصرفاتكم الخرقاء .. لماذا لا تجلس يا ابني ؟؟ اجلس ولا تخف ..» .

جلس عبد الحميد في طرف المصعد خائفًا ، وقلبه يدق ، وجسده كله يرتجف ، إنه مُقدم على محنة جديدة ، فإنكاره للواقعة السابقة ، والاعترافات التي أدلى بها قد يقضي عليه ، في الزمن القديم كان مُدرِّسه في الابتدائية يقول له « الصدق منج » لكنه يرى الآن العكس تمامًا ، الصدق معناه الموت ، هذا عالم الأكاذيب والظلم ، انقلبت الحقائق والبديهيات رأسًا على عقب ، وحانت من عبد الحميد التفاتة إلى الخارج ، فوجد عطوة بك بنفسه يمسك سوطًا وينهال على أحد المتهمين الجدد .. يا إلهي !! إن عبد الحميد يعرفه ، هذا هو الطالب « سليمان حجر » في معهد التربية الرياضي العالي بالهرم .. ترى ماذا فعل ؟؟ إنهم يكادون أن يقتلوه ..

وفجأة سمع عبد الحميد صوتًا يقول له :

– « نحن نشكرك يا عبد الحميد على ما قدَّمته من عون للعدالة ..» .

فالتفت عبد الحميد إلى الضابط المحقق فوجده صامتًا لا يتكلم ومنهمكًا في تصفح بعض الأوراق ، مما يعني أن غيره هو الذي يتكلم ، ودار عبد الحميد بنظراته في جنبات غرفة المكتب ، فرأى لأول مرة رجلًا جالسًا خلف مكتب آخر ، وأمامه ضوء مبهر ، ينبعث من « أباجورة » مكتب ، وكان اتجاه الضوء صوب عبد الحميد ، وكان من القوة بحيث لم يستطع عبد الحميد أن يتبين ملامحه جيدًا ، وعاد الصوت يقول :

– « لم يبق أمامنا سوى شيء واحد يعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا ، وأعتقد أن بإمكانك معاونتنا فيه .. وأعدك بشرفي أن نفرج عنك فورًا ..» .

وابتسم عبد الحميد عندما سمع كلمة « بشرفي » ، دائمًا يقولون ذلك ، ودائمًا لا يوفون بالقسم ، إنها مجرد حروف خاوية لا معنى لها ،

أو عملة زائفة لا قيمة لها ، قال عبد الحميد :
- « لا أفهم ما تريد » .
خرج المحقق الجديد من خلف مكتبه ، واقترب من عبد الحميد قائلاً :
- « يجب أن نعرف حلقة الاتصال بين إخوان سوريا وإخوان مصر .. وكذلك الأردن والعراق والضفة الغربية والسعودية والكويت إن أمكن ..» .
ابتسم عبد الحميد وقال :
- « يبدو أنكم لا تعرفون من أنا ..» .
- « أنت عبد الحميد النجار البطل الفدائى ..» .
أنا لست مرشدًا عامًا للإخوان المسلمين .. ولا عضوًا فى مكتب الإرشاد .. ولا فى الهيئة التأسيسية .. أنا مجرد فرد عادى ، فكيف أعرف هذا كله ؟؟ » .
قال الرجل وقد كشر عن أنيابه :
- « عندما تريد الحكومة شيئًا لابد أن تحصل عليه .. مفهوم ؟؟ » .
وقف عبد الحميد ، وسدد إلى المحقق نظرات ثابتة وقال :
- « القصة كلها مخترعة ..» .
اكفهر وجه المحقق ، ونهض المحقق الأول هو الآخر من مقعده ، ودار نصف دورة ، واقترب من عبد الحميد وقال وعيناه تتقدان شرارًا :
- « ماذا تقول ؟؟ » .
- « أقول أن المنشورات السورية لا أعرف عنها شيئًا ..» .
- « إن المكتوب فيها أنت قلته ، وقد سجلناه بصوتك .. أتريد أن تسمعه مرة أخرى ؟؟ » .
ابتلع عبد الحميد ريقه وقال وشفتاه ترتجفان :
- « لقد أكرهتمونى على تلفيق ما قلت ..» .

– « أكر هناك ؟؟ ممن تعلمت هذه الكلمة ؟؟ » .
– «لقد أردت أن أنجو من الضرب ..» .
جرّه المحقق من طوقه وهزّه فى حنق قائلاً :
– «قُل غير هذا الكلام ..» .
– « لا أعرف شيئًا عن هذه المنشورات ..» .
– «من الذى حرضك على هذا الإنكار بعد الاعتراف الكامل ؟؟ » .
طأطأ عبد الحميد رأسه قائلاً :
– « لا أحد .. لسبب بسيط » .
– «ما هو ؟؟ » .
– «كان يجب أن أقول الحق ..» .
– « أى حق .. كلام الأمس أم اليوم ؟؟ » .
– «لقد اخترعت القصة بكاملها حتى أستريح .. وأجد فرصة للنوم ..» .
صفعه المحقق صفعة قوية وقال :
– «ماذا نقول لرئاسة الجمهورية ؟؟ لقد أرسلت إليهم اعترافاتك كاملة ، وأبدوا اهتمامًا بالغًا بالأمر ..» .
ودخل عطوة الملوانى ، ووقف برهة يستمع للحوار الدائر بين عبد الحميد والمحققين ، وأدرك على التو أن المتهم ينكر ما سبق أن اعترف به ، قال عطوة :
– «اتركوه لى ، وسوف أجعله يعيد اعترافاته ، ويسجلها بخط يده ، بل ويضيف عليها جديدًا ..» .
وقال المحقق الأول :
– « لا حلَّ غير ذلك وإلا فضحونا وسخروا منا فى الرئاسة ..» .
وأشار عطوة إلى عبد الحميد وهو مكشر عن أنيابه :
– «قُدّامى .. لسوف أعلقك كالذبيحة حتى تعترف أو تموت ..» .
وقال المحقق الثانى :

– «أرى أن تستدعوا رفاقه فى الزنزانة حتى نستجوبهم، فقد يكون أحدهم قد حرضه على الإنكار ..».

وبعد دقائق كان عبد الحميد معلقًا من قدميه، عاريًا كما ولدته أمه، والسياط تنهال عليه من كل جانب بإشراف عطوة نفسه، كان عبد الحميد يئن بصوت واهن، وقد أسلم أمره لله، وأصبح الموت بالنسبة له أمرًا غير ذى بال، بل أصبح أمنية، إن عبد الحميد يستغفر الله، فالحياة هبة أو نعمة من نعم المولى عز وجل، ولا يليق بالمؤمن أن يتخلص منها .. لأنها من الله ولله، وما عليه إلا أن يصبر ويصمد اقترب منه عطوة، وانحنى إلى أسفل حتى بلغ أذن عبد الحميد وقال:

– «ستموت يا عبد الحميد .. تكلم قبل فوات الأوان ..».

قال عبد الحميد بصوت باك:

– «﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ ..».

– «لقد سمعت مثل هذه الكلمات من قبل.. إنها تزيد من ثورتى ..».

– «وكيف أثبت أنى مظلوم ؟؟».

– «نحن لا نظلم أحد».

– «أنا ؟؟».

صرخ عطوة:

– «أنت ابن كلب .. كذاب».

– «الله وحده يعلم ما بى ..».

– «لا شأن لله فيما نحن فيه ..».

قال عبد الحميد:

– «استغفر الله يا عطوة بك ..».

عاد عطوة يصيح:

– «اضربوه ..».

الأنين والألم الذى لا يحتمل .. واللحظات الطويلة الرهيبة .. ورأسه إلى أسفل .. لم يعد يستطيع أن يرى شيئًا .. هناك غشاوة على عينيه ..

رأسه يكاد ينفجر .. شعر بقطرات ساخنة من الدم تتساقط من أنفه .. إنه ينزف .. أهذه هى النهاية .. عبد الحميد واثق أن الله الآن وفى أى وقت يرى ويسمع كل شىء .. اختلطت الأشياء فى ذهنه المتعب المكدود .. لكن حقيقة واحدة تتألق فى رأسه .. هذا وقت الصلاة .. ليتهم يتركونه كى يؤد الفرض .. آه إن لديه فكرة .. لماذا لا يصلى وهو هكذا .. «الكعبة من أمامى .. نويت الصلاة .. الله أكبر ..» وأخذ يتمتم والسياط تهوى على جسده وهو لم يعد يشعر بشىء .. وتمتم فى النهاية «إنك حميد مجيد .. السلام عليكم ..» .

واقترب منه عطوة :

– «ألن تتكلم ؟؟» .

لم يرد :

– «من أى شىء خلقت ؟؟» .

قال عبد الحميد :

– «من طين ..» .

– «يا وسخ ..» .

– «سامحك الله ..» .

وصاح عطوة فى غيظ لمن حوله من العساكر :

– «اتركوه ..» .

ثم عاد يقول بعد لحظة :

– «فكوا وثاقه ..» .

وبعد دقيقتين أو ثلاث كان عبد الحميد ملقى على الرمال يئن ومن بين أناته يهتف فى ضراعة : «يا رب .. يا رب .. يا رب ..» .

الفصل ٢٣

حين دوهمت الزنزانة رقم ٤٧ بعدد من العساكر القادمين من مكاتب التحقيق، أصاب الذهول أفرادها ، لو أنهم ساقوا فردًا واحدًا منهم لأصبح الأمر طبيعيًا ، أما أن يؤخذ الجميع بهذا العنف ، ويلاحقونهم بالسياط من الزنزانة جميعًا وحتى مكتب التحقيق، فليس لذلك سوى سببين : أولهما أن تكون الإدارة قد اتخذت سياسة جديدة إزاء المعتقلين القدامى ، بتأثير الجهاز الجديد الذى تم اعتقال أفراده، بحيث يعم الإيذاء جميع المستويات التنظيمية فى الجماعة دون استثناء ، كأسلوب من أساليب الانتقال والتاديب، والسبب الثانى قد يكون متعلقًا بموضوع عبد الحميد بالذات، إذ لا شك أن إنكاره قد أزعجهم وأفزعهم ، وهذا الرأى الأخير هو الذى كان يميل إليه معروف ، لقد اقتنع بهذا عقليًا وقلبيًا ، وما أكثر ما يحدِّثه قلبه فى هذه الأيام ، فيصدق ، فهو لم يشعر بأنه أقرب ما يكون إلى الله فى يوم من الأيام مثلما يشعر بذلك الآن ، وما أن بلغوا ساحة التحقيق حتى تراصوا أمام الجدار ، بحيث كانت وجوههم فى مواجهة الأحجار الصلدة ، وأقفيتهم فى مقابلة العساكر ، وأذرعهم مرفوعة إلى أعلى ، وحانت من معروف التفاتة إلى الجهة اليسرى فوجد عبد الحميد ملقى على الأرض كأنه يحتضر ، حاول معروف أن يفهم شيئًا من نظراته أو حركاته ، لكن عبد الحميد لم يكن بقادر على أن يأتى بحركة أو إشارة ، ولم يطل الوقت ، فقد حضر المحقق الأول والثانى ، وقال المحقق الأول لمعروف وهو يشير إلى زميله :

– « اسمع يا معروف .. فريد بك قادم من رئاسة الجمهورية ..» .

أنزل معروف يديه ، ثم قاس الرجل بنظراته ، وقال :

- «نعم .. أعرفه يا يحيى بك ..» .

ابتسم فريد وصافح معروف فى شىء من التعالى وغمغم :

- «كنا زملاء .. لكنها الأيام ..» .

وعاد يحيى بك يقول :

- «زميلكم فى الزنزانة- عبد الحميد النجار- قد أوقعنا فى ورطة ربما تسىء إلىّ شخصيًا ..» .

وأردف فريد بك قائلًا :

- «أنت زميل قديم، وتستطيع أن تقدر هذه الظروف الحرجة ..» .

هز معروف رأسه وقال :

- «ما هى المشكلة بالضبط ؟؟» .

- «أدلى باعترافات تتعلق بمنشورات سورية .. وكان أن أبلغنا الأمر بالرئاسة وأفرجنا عن المتهمين المشتبه فيهم .. ثم جاء بعد ذلك وأنكر كل شىء ..» .

وفكّر معروف مليًا فى الأمر ، ما معنى استدعائه هو وزملاؤه ؟؟ هل يفهم من ذلك أن عبد الحميد ، بسبب ما تعرض له من تعذيب ، قد أفهمهم أن معروف هو الذى أوعز إليه بالإنكار ؟؟ ولهذا استعان بالله ، وقرر أن يلقى أمامهم بالحقيقة كاملة ، حتى يضع حدًا للعذاب المتوقع ، لكن هناك احتمال أن يثيرهم تصرفه ، فينقلبوا كالشياطين ، ويتصرفوا دون عقل ، ومع ذلك فقد كان معروف ميالًا لقول الحقيقة ، وسمع معروف يحيى بك يقول:

- «ما رأيك يا معروف ؟؟ أنت زميل .. وكلنا كنا دائمًا نحترمك ونجلّك .. نحن نعرفك برغم ما أنت فيه اليوم من وضع سىء ..» .

قال معروف فى هدوء :

- «أتريدون أن تتأكدوا من الحقيقة، أم ترغبون فى تأييد شكوككم ؟؟» .

قال فريد بك باسمًا :

– «بالطبع الحقيقة ..» .

قال معروف :

– «حسنًا .. عندما جاء عبد الحميد وأخبرنى بكل شىء وعلمت أنه ابتكر القصة من أولها إلى آخرها .. أقول الحق .. لقد عتبت عليه .. قد تغضبون من تصرفى هذا .. لكنى رأيت أن خديعتكم أمر خطير .. فمعنى ذلك أنكم لن تعرفوا أبدًا من أتى بالمنشورات ، ولن تعرفوا موزعيها الحقيقيين .. أتظنون أن ذلك سيكون فى مصلحتكم ومصلحة البلد ؟؟» .

رد يحيى بك وهو يكتم غيظه :

– « أيها الثعلب .. أنت السبب إذن ؟؟ » .

– « أنا لا أقول إلا الصدق .. و ..» .

قاطعه فريد بك :

– « أعرفك .. صاحب مبادىء طول عمرك ..» .

– « المهم أن تثقوا فى كلامى ..» .

قال يحيى بك مهتاجًا :

– « وكيف نواجه الرئاسة ؟؟ » .

– «بقول الحق ..» .

– « إن هذا يفتح علينا بابًا من الشقاء لا مثيل له ..» .

– «لماذا ؟؟» .

– « لأنه يجب أن نعثر على الفاعل ..» .

– «وعبد الحميد ليس الفاعل يا يحيى بك ..» .

وصمت معروف برهة ثم قال :

أم تريدون أن يكون المسكين كبش فداء ، ثم تقفلون المحضر وتستريحون أنتم ، ويساق عبد الحميد إلى الموت أو الأشغال الشاقة المؤبدة ظلمًا ؟؟ .

رفع يحيى بك يده وصفع «معروف» فى ثورة وهو يقول :
- «نحن لا نلفق التهم ..» .
قال معروف فى سخرية :
- «واضح ..» .
ثم التفت إلى فريد بك قائلاً :
- «أتوافقه يا فريد بك ؟؟» .
واستطرد معروف فى انفعال :
- «حرام عليكم .. يقول الله فى كتابه العزيز : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فكيف تقابلون الله ؟؟ ولن يكون فى مصلحتكم ولا مصلحة الدولة أن تلفق الأمور على هذا النحو ..» .

كان معروف يدرك أن الأمر ليس سهلاً ، فإقناع هؤلاء الشياطين الذين لا يرحمون أمر صعب غاية الصعوبة ، والتفاهم معهم بالعقل والمنطق فيه كثير من المشقة ، إن كل واحد منهم يريد أن يبعد المسئولية عن نفسه ويبدو نشطًا مخلصًا فى عمله حتى يرضى رؤساءه ، والأساس الأول الذى يبنون عليه تصوراتهم وفلسفتهم هو أن الإخوان جميعًا خطر وبلاء وفساد ، يستوى فى ذلك الرئيس والمرؤوس ، والمتهم والبرىء ، والغاية هى القضاء عليهم ، أو الزج بهم فى السجون أطول فترة ممكنة ، حتى يأكلهم الملل ، ويدمرهم الإرهاب الطويل خلف الأسوار ، ومن يخرج منهم بعد ذلك يخرج محطمًا بائسًا فقيرًا مأزومًا لا يصلح لشىء ، ومع ذلك فقد أصر على موقفه ، الذى شرحه لإخوانه بالأمس القريب فى الزنزانة ، حينما اعترض على تصرفات عبد الحميد ، فلابد من قول الحق مهما كان الثمن ، ولابد من الصبر والصمود حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً «ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشىء ، لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ..» وذهل معروف ، ولم يصدق أذنيه حينما

سمع فريد بك يقول :

– « اسمع يا يحيى بك .. أنا مقتنع بما قاله معروف .. اقفل المحضر وسجِّل أقوال عبد الحميد الجديدة .. ودعه يوقع عليها .. وأنا بدورى سألغى محضر التحقيق القديم .. ثم دعهم يذهبون إلى زنزانتهم ..» .

وصافح فريد بك معروف فى شىء من الود وقال :

– « تعرف يا معروف .. إننا جميعًا نحزن لأجلك .. ليتك تتنازل عما فى رأسك ، وتترك هوس المبادىء .. لو فعلت لضمنت لك الخروج من المعتقل فورًا .. إن ورقة صغيرة تعتذر فيها ، وتكتب التماسًا للرئيس ستنهى كل شىء .. ولن تعود للجيش ، لكن ستتسلم وظيفة كبيرة تليق بشخصك وتاريخك فى إحدى الشركات الهامة ..» .

ابتسم معروف ، وقال :

– « متشكر يا فريد بك .. هذا قدرى .. ولن أنسى لك هذا الفضل ..» .

وقال فريد وهو ينصرف :

– « متشدد أنت دائمًا .. أهناك من يرضى بهذا الهوان مهما كان السبب ؟؟ » .

وغضب عطوة الملوانى وثار ثورة عارمة عندما علم بالإجراء الذى اتخذه مندوب الرئاسة فريد بك ، وقرر أن يحبس معروف فى زنزانة انفرادية بعيدًا عن باقى الإخوان لخطورته ، وأن يعامله المعاملة القاسية التى تليق بغروره وحماقته وعدائه للنظام ، لكن فريد بك قال :

– « عطوة .. اسمع الكلام ..» .

– « هذا غير معقول ..» .

تنهد فريد بك وأشعل سيجارة وقال :

– « لقد أنقذ معروف حياتى وعشرة من جنودى فى حرب

فلسطين .. لولاه لكنت الآن راقدًا تحت الرمال عند منطقة «سور باهر» .. دنيا .. لو أن «معروف» اكتسب شيئًا من المرونة واللباقة، وفكر فى مصلحة نفسه لكان الآن واحدًا من كبار رجال الثورة المرموقين ..» .

هتف عطوة بك فى غضب :

– «هذا يدينه ..» .

– «عطوة .. لا تنس أننى أتكلم باسم الرئاسة .. نحن أدرى بالأمور منك ..» .

وعاد الرفاق إلى الزنزانة، وما أن وصلوا حتى قال معروف :

– «تيمموا بالصعيد الطيب .. لا يوجد ماء للوضوء .. ولنصلِ ركعتين شكرًا لله .. ولندعو جميعًا الله كى يعود إلينا عبد الحميد هو الآخر سالمًا ..» .

وأمَّهم الشاعر يوسف فى الصلاة، وجلسوا متحلقين، كانوا يشعرون بالسعادة وقد أنقذهم الله من هذا الموقف الصعب، وكانت القضية التى تشغل أذهانهم هى ما فعله فريد بك، إن ما أقدم عليه شىء نادر الحدوث فى مثل تلك الأوقات العصيبة، وعلّق رزق إبراهيم قائلاً :

– «هذا رجل فيه بقية خير ..» .

وغمغم يوسف بآية من القرآن :

– «﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾» .

أما محمود صقر فبرغم اعتصامه بالصمت أغلب الأوقات فقد قال :

– «عجيب أمر الإنسان .. يقوى ويضعف .. يعدل ويظلم .. صعود وهبوط .. الدوام لله وحده ..» .

وضحك معروف بصورة لفتت الأنظار إليه وقال :

– «فى الأمر سر ..» .

زحفوا نحوه، وسددوا إليه نظرات متلهفة، وقال رزق :
– «ماذا ؟؟».
قال معروف :
– «هل فيكم من يحفظ السر أم أن السياط تنسيكم العهد ؟؟».
مدَّ رزق إبراهيم يده السمراء النحيلة وقال :
– «نعاهدك على الكتمان ..».
قال معروف :
– «ليس من شيمتي أن أفشي سرًا ..».
قال رزق :
– «لقد عاهدناك ..».
فأردف معروف قائلًا :
– «لكن هذه المرة لي هدف ..».
وأنصتوا لما يقول في اهتمام، فجاءهم صوته :
– «كان فريد في مجموعتي ..».
صرخ يوسف :
– «من الإخوان ؟؟».
– «نعم ..».
واستمر معروف في حديثه :
– «يوم أن وقعت الواقعة جاءني .. قال لي : «يا معروف لا يعلم السر إلا الله وأنا وأنت ..» فهمت كل شيء .. عاهدت الله ألا يعلم أحد بالأمر حتى ولو مزقوني إربًا إربًا .. كنا إخوة في الله .. ورفقة في السلاح والجهاد .. تأكدوا أيها الإخوان أن هناك ألوفًا مثل فريد في كل مكان .. هذا ما أردت أن أطمئنكم به .. ولهذا أذعت السر لكم أنتم .. وليس للحكومة ..».
قال رزق وقد احتقن وجهه الأسمر :

– « ولماذا يتعاون مع الحاكم الظالم ؟؟ » .

قال معروف وهو يتنهد :

– « هذا سؤال لا يمكننى الإجابة عليه ..» .

– « من يجيب إذن ؟؟ » .

– « هو !! لكل إنسان وجهة نظر ..» .

– « الأمر واضح يا معروف .. لقد خاف من سوء المصير ..» .

قال معروف باسمًا :

– « هل السجن وحده هو المحك الحقيقى للصمود والشجاعة؟؟ » .

– « لا أفهم ..» .

– «قد تكون الشجاعة أن تتراجع .. وقد تكون فى الإقدام .. قد تكون فى الظهور ربما تكون فى التخفى .. ليس من السهل الحكم فى مثل هذه القضايا ..» .

قال رزق فى إصرار :

– « هذا الأسلوب يناسب السياسيين المحترفين ..» .

هزَّ معروف كتفيه قائلًا :

– « ربما لكن إدانته أمر صعب ..» .

تدخل الشاعر يوسف متمثلًا بقول الرسول :

– « استعينوا علي قضاء حوائجكم بالكتمان ..» .

وتمتم محمود صقر :

– « الله وحده يعلم ..» .

ودار المفتاح فى عقب الباب ، وما أن انفرج حتى هبَّ الحضور واقفين ، كان اثنان من العساكر يحملان عبد الحميد ، ثم دخلوا ووضعوه فى وسط الزنزانة ، كان فى حالة من الإعياء شديدة ، ونظروا إلى وجهه المشوه فى خوف ، وقال معروف :

– « لماذا لا تأخذونه إلى الشفاخانة ؟؟ » .

لم يَرُد عليه أحد ، وسرعان ما أغلق الباب ..
وكم كانت دهشة الإخوان حينما رأوا عبد الحميد يبتسم ويقول :
– « أنا الذى طلبت ذلك .. رفضت دخول المستشفى .. لم أستطع فراقكم ..» .
قال رزق :
– « لكن حالتك خطرة ..» .
– « إذا مت بينكم فسأكون سعيدًا .. الحمد لله ..» .
– « وما هو الحل الآن ؟؟ » .
وسادت فترة صمت قال رزق بعدها :
– « وجدتها ..» .
نظر إليه معروف مستفسرًا ، فاستطرد رزق :
– « العجمى .. أقصد الدكتور العجمى ..» .
صاح يوسف قائلاً :
– « ماذا تقصد ؟؟ » .
– « أعنى أن لديه كمية من العلاج يحتفظ بها فى غرفته .. غرفة الكلاب ، وفى الإمكان الاستفادة منها ..» .
وأخذ يوسف يدارى ابتسامة كادت ترتسم على محياه ، بينما قال معروف :
– «فكرة صائبة .. إن لديه بنسلين .. وسلفًا .. وقطن وشاش ومطهرات .. وأعتقد أننا لن نحتاج أكثر من ذلك » .
كان عبد الحميد برغم جراحه يشعر بقدر كبير من السعادة ، لم يكن يتصور أنه سيخرج من المأزق بسهولة ، بل لعله كان يظن أن نهايته قد قربت فالاعتراف ثم الإنكار أمر غير مألوف ، ولا يقابل إلا بمنتهى الحزم والقسوة ، ومن فرط سعادته أخذ يشعر بأن آلامه تختفى رويدًا رويدًا ، وداخله يقين قوى بأنه سوف يشفى برغم سوء حاله ، وغمغم عبد الحميد حتى يبدد سحب الخوف والكآبة :

- « الدكتور العجمى طبيب بيطرى .. بيطرى بيطرى لا مانع .. نحن هنا فى مرتبة دون الحيوانات .. الأمر طبيعى أيها الإخوان ..» .

ولم يتمالكوا أنفسهم من الضحك ..

الفصل ٢٤

لقد ترك موضوع «نبيلة عبد الله» فى قلب عطوة الملوانى جرحًا لا يندمل، لقد نظر إلى الأمر من زاوية خاصة، لم يخطر على ذهنه أنها إنسان له الحق فى أن يحب أو لا يحب، نسى أن نبيلة شخصية مستقلة تستطيع أن تسافر أو لا تسافر، ويمكنها أن ترفض أو توافق، هذه الاعتبارات كلها لا وزن لها فى نظره، إن سنوات العنف التى عاشها، والسلطات المطلقة التى أعطيت له، والحياة العسكرية الجافة، والماضى الشائن الأسود الذى لطخ سنوات عمره، هذه الأشياء مجتمعة جعلت منه كائنًا متوحشًا شرسًا، لا يطيق أن يُرفض له طلب، ولا يقبل أن يستسلم للأمر الواقع، لكن الطائر قد حلّق فى الأجواء العالية، وانطلق بعيدًا فى آفاق بعيدة لا سلطان له عليها، وبدا له الحصول على الطائر المهاجر نبيلة أمرًا شبيهًا بالمستحيل، والذى حزّ فى نفسه أكثر أنها من خلال الرسالتين اللتين قرأهما لها قد اتضح انحيازها التام لجانب الإخوان المسلمين، أليس هذا شيئًا عجيبًا شاذًا لا يمكن تخيله ؟؟ أم أن الله يريد أن ينتقم منه فى صورة هذه المخلوقة التى أصبحت كالثمرة الشهية المحرمة عليه ؟؟ وشعر عطوة بقدر ضئيل من الارتياح حينما تذكر أن أباها قد أصيب بالذبحة الصدرية، لا شك أنها ستتألم ألمًا شديدًا، لأنه يعلم مدى رفاهة إحساسها، ورقّة شعورها، وحبها لذويها، وماذا ستفعل عندما تعلم أن أباها قد مات، أو أن أمها قد أصيبت بالشلل، أو أن أحد أخواتها قد سيق إلى السجن ؟؟ من أجل ذلك فإن عطوة يفكر ليل نهار فى إلحاق الأذى بأهلها، وإذا لم يمت أبوها فهو قادر على أن يدس له السم، بذلك قد يشفى غليله، ويحقق خطوة

فى طريق الانتقام الذى يحلم به ولا يمل التفكير فيه، ولذلك عندما سمع أحد مرؤوسيه من ضباط السجن الحربى يقول :
– «لقد علمت أن مصر ستشترى السلاح من أحد الدول الشيوعية ..» .
نظر إليه عطوة دون اهتمام وقال :
– «أنا لا أفكر فى مثل هذه الأمور ..» .
قال الضابط فى دهشة :
– «كيف ؟؟ إن هذا أمر خطير، ومعناه التحول فى مسار خط الدولة السياسى ..» .
مط عطوة شفته السفلى فى ازدراء وقال :
– «شىء لا يخصنا ..» .
– «يخص من إذن ؟» .
– «الرئيس بالطبع ..» .
وأخرج عطوة زجاجة الويسكى، وأخذ يصب لنفسه كأسًا ويقول :
– «أتشرب ؟؟» .
قال الضابط :
– «شكرًا ..» .
ثم ابتسم الضابط فى مرارة وقال :
– «ويسكى من الغرب .. وسلاح من الشرق ..» .
ثم اختطف علبة السجاير «الكنت» الموضوعة أمام عطوة وتناول واحدة منها وهو يقول :
– «وسجائر من أمريكا ..» .
وبعد أن أشعل السيجارة، استطرد قائلاً :
وبعد أن نفث دخانًا كثيفًا من فمه قال :
– «الواقع أن بلادنا أصبحت مفتوحة لكل خيرات العالم وخبراته .. وهذا يبشر بخير كثير ..» .

وهبَّ عطوة واقفًا بعد أن شرب الكأس الثالثة وقال :
– «محمود صقر إما أن يعترف بعدد قطع السلاح ومكانها .. أو يموت ..» .
قال الضابط :
– «ولعله سلاح إنجليزى ..» .
– «إنجليزى .. عفريت .. لا يهمنى ..» .
اقترب الضابط منه وقال :
– «أنا واثق أن هذا الشاب لا صلة له بأى سلاح ..» .
– «أنا لا أثق إلا فيما أظنه ..» .
ابتسم الضابط وقال :
– «بعض الظن إثم يا سعادة البك ..» .
– «الإثم أن يوجد على ظهر الأرض مثل هؤلاء الأوباش ..» .
قال الضابط شاردًا :
– «لماذا تكرههم يا عطوة بك ؟؟» .
– «لم أسأل نفسى مثل هذا السؤال ..» .
– «لماذا ؟؟» .
– «الأمر لا يحتاج ..» .
– «كيف ..» .
– «لو ناقشنا كل شىء لما فعلنا شيئًا ..» .
وانطلق عطوة من مكتبه ، كانت الساحة هذه المرة مكتظة أكثر من أى وقت مضى بالمعتقلين ، أعضاء التنظيم الجديد «التمويلى» وبعض أعضاء الجهاز التنظيمى القديم ، وصوت الصراخ والعويل والسياط يطغى على كل شىء ، وما أن ظهر عطوة فى الساحة ، حتى هتف العساكر بأعلى صوته «كل السجن ثابت» ، فحطّ الصمت الكئيب بأجنحته السوداء على الساحة الحمراء .. وأخذ الطاغية الصغير يتجول بين الرعايا التعساء منتفخ الأوداج ، محتقن الوجه ، وعيناه

يتطاير منهما الشرر ، ويتطوح يمنة ويسرة ، وكأن العالم كله قد دان له .

وأثناء ذلك الصمت الرهيب الدامى ، فتح المذياع فجأة ، وانطلق صوت الميكروفون يجلجل ، وصوت المقرىء الندى الرقراق يقول : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝﴾ .

واكفهر وجه عطوة ، وصرخ بأعلى صوته :

– « اقفل الراديو يا بهيم ..» .

وفى لحظات كان صوت القرآن قد قطع ، وبعده جاء صوت أم كلثوم وهى تغنى أغنية «يا جمال يا مثال الوطنية ..» وسرعان ما انفرجت أسارير عطوة ، ثم ابتسم ، ثم قهقه ، وعاد يصيح ..

– «كل السجن يغنى مع الست ..» .

وانبعث صوت السجناء واهنًا دامعًا حزينًا ، يردد المقاطع مع أم كلثوم ، لكن الشىء العجيب ، أن صدى آيات القرآن الكريم التى كان يرتلها المقرىء ، لم تزل ترن فى أسماع الواقفين ، وتصل إلى قلوبهم المكبوتة ، أما صوت الأغنية العالى فقد كان يبدو وكأنه ينبعث من واد عميق كمجموع من الضجات والضوضاء المشوشة ..

وقال عطوة لمن حوله من رجال المباحث :

– « أين محمود صقر ؟؟ » .

وأشار أحدهم إلى ركن قصى ، ثم خطا عطوة صوبه ، وسدد إليه نظرات تشع مقتًا وكراهية ، كان محمود يقف شاحبًا مرتجفًا ، بعد أن جف عوده ، ونحفت عنقه ، وغارت عيناه الصافيتان ، ولون وجهه أشد صُفرة من الرمال التى يقف عليها وآثار الجروح الملتئمة تبدو محتنقة بعض الشىء ، وابتسم عطوة كأفعى وقال :

– «لقد بعثت من جديد يا محمود ..» .

نظر إليه محمود بعيون حزينة ولم يتكلم ..

قال عطوة :

— «لقد أمهلناك طويلاً ..» .

ثم قبض عطوة على كتف محمود الأعجف وهزه فى عنف وقال :

— « إذا كنت صقرًا نانا نسر .. لقد أخطأ أهلك فى تسميتك .. كان يجب أن يسموك محمود غراب .. محمود بومة .. محمود قرد ..» .

وأخذ عطوة يقهقه فى بلاهة، وشاركه الضباط والعساكر الواقفون فى الضحك مجاملة واحترامًا .. حتى محمود نفسه ابتسم « لخفة دم القائد الهمام » وتضايق عطوة إذ رأى النظرات الصافية المؤمنة فى عينى محمود .. إنه لا يطيق ذلك ، ورفع يده ثم أهوى بها على وجهه فى قوة ، تطوح محمود وكاد أن يقع ، لكنه تماسك بعد لحظات ، وعاد إلى وقفته ، وطأطأ رأسه فى أسى دون أن ينطق .. بينما استطرد عطوة :

— « اسمع يا ابن الحلال .. السلاح .. أو الموت .. ليس لدى وقتًا أضيعه معك أكثر من ذلك .. انظر .. ألا ترى المئات التى تنتظر التحقيق؟؟ ليس لحياتك قيمة .. أنت مجرد واحد من ملايين الشعب .. ولن تخرب الدنيا لو مت .. أتفهمنى ؟؟ أنا لا أمزح ..» .

دقّ قلب محمود ، حاول أن يتطلع إلى السماء ، لكنه خشى أن يرفع رأسه ، وقال فى ضراعة :

— « السلاح شىء لم أعرفه طول حياتى .. كانت دعوتى بالكلمة والموعظة الحسنة ..» .

قال عطوة ساخرًا :

— « أعرف .. أعرف ..» .

ثم التفت إلى الزبانية وقال لهم :

— « إما أن يعترف بالسلاح .. أو تحضروه لى جثة هامدة .. مفهوم ..» .

وقف سجان شهير أمام عطوة بك ، وأدّى التحية وهو يقول :

- «تمام يا فندم ..» .

إذن فقد صدر الحكم .. أصدره عطوة الملوانى ببساطة وهدوء وهو نصف سكران، وأدرك محمود بشاعة الموقف، أخذ يفكر بسرعة، لو كان لدى أحد من أقربائه سلاح .. أى سلاح حتى لو كان مرخصًا لأرشد عنه حتى ينقذ حياته .. وتمنى محمود فى هذه اللحظات أن يكون لديه سلاح حتى يعترف به .. لكن ما الحيلة وهو لا يعرف شيئًا عن هذا الموضوع ؟؟ .

كان محمود تائهًا عن كل ما حوله، لم يعد يستطيع أن يفهم شيئًا أو يميز ما يقولون، فقد انهالت السياط عليه دون رحمة .. حتى التأوهات .. أو كلمات الاستغاثة لم يعد قادرًا على التلفظ بها .. انتهى كل شىء .. وسلَّم أمره لله .. لم يعد يرى شيئًا .. تحول العالم من حوله إلى ظلام دامس .. ماذا رأى بعد ذلك ؟؟ ماذا سمع ؟؟ السر عند بارىء الأرض والسماء .. لعله رأى من جديد قبسًا من ضياء .. أو لعله رأى أمه وهى تطعمه .. ومسرح العرائس .. وأمل .. حبيبته الحلوة الدامعة العينين .. وهاتف من وراء المنظور يناديه .. لا أحد يعرف هذه المرة ماذا جرى بالضبط له .. أحد العساكر قال أنه رآه يبتسم وهو ملقى لا حراك به .. وذكر أيضًا أن عطوة بك قد ألقى عليه النظرة الأخيرة وهو راقد كالجثة .. ورأى الابتسامة، فجُنَّ جنونه وأخذ يركله بقدمه فى وحشية .. لكن الابتسامة برغم كل ذلك لم تنطفىء ..

وأسدل المساء أستاره القاتمة على السجن، وطنين خافت خلف أبواب الزنزانة المغلقة ينبعث واهنًا مندى باسم الله والصلوات على رسوله، وقبيل منتصف الليل تململ معروف الحضرى فى فراشه وغمغم :

- «أخوكم محمود صقر لم يعد ..» .

كان يظن أن أحدًا لن يجيب على كلماته، فهذا وقت ينامون فيه عادة، لكنه فوجىء بهم جميعًا ينحون الأغطية، ويجلسون قلقين،

وقال عبد الحميد النجار :

– « الله معه ..» .

وعاد معروف يقول :

– « لقد طالت غيبته ..» .

ردّ عبد الحميد :

– « الزحام هناك كيوم الحشر .. والتحقيق على قدم وساق .. والضباط يأخذون أجرًا إضافيًا في مثل هذه الأحوال » .

وعلق الأخ السوداني رزق قائلاً :

– « ويأخذون مكافآت تشجيعية ..» .

– « لزيادة الإنتاج ، وتحقيق أرباح كبيرة ..» .

وظلوا يتحدثون ، ويرددون المأثورات ، أو يقرأون القرآن حتى موعد صلاة الفجر ، لم يقرب النوم أجفانهم ، وكان واضحًا أنهم يعانون من توتر وقلق بالغين ، يا لها من أيام .. وفتحت أبواب الزنازين كالعادة حوالى الرابعة صباحًا كى يذهب المعتقلون إلى دورات المياه ، وفى الطابور الصامت ، جلسوا محزونين ، ومن آن لآخر يهوى عليهم السجانة بالسياط دون سبب ظاهر ، ثم يجلسون ، ويعاودون الكرة كل فترة ، حتى ينتهى طابور دورة المياة .. طابور العذاب الدائم .. وعند انصراف معروف الحضرى إلى زنزانته اقترب منه الأخ إسماعيل الذى حل محل «قورى اليهودى» فى خدمة المكاتب ، وقال بسرعة :

– « معروف .. البقية فى حياتك .. محمود صقر مات ..» .

تسمّر معروف فى مكانه ، وأصابه ذهول مباغت ، وهتف :

– « ماذا ؟؟ » .

قال إسماعيل :

– « ودفنوه فى صحراء العباسية .. وكتبوا أمام اسمه فى الدفاتر والسجلات كالعادة كلمة (فرار) .. ادخل بسرعة .. لا تخبر أحدًا ..» .

وفى ثوان كان إسماعيل قد اختفى .. وبقى معروف وحده واقفًا وقد تجمدت الدموع فى عينيه، وقلبه يدق ويكاد يحطم قفصه الصدرى ، ولم يفق إلا على كرباج نزل على رأسه فى عنف ، وكلمات انصبت فى أذنيه :

- « ادخل زنزانتك يا ابن الكلب ..» .

لم يشعر معروف بألم .. خطا فى بطء إلى زنزانته .. وقف فى وسطها كالتائه .. والعتمة تجسم على صدره كجبل المقطم .. ودخل الإخوان فوجدوه على هذه الحال ، صاح رزق :

- « ماذا جرى ؟؟ » .

وجاءهم صوت معروف جادًا آمرًا مبللاً بالدموع :

- « أقيموا الصلاة ..» .

وبعد أن انتهت صلاة الفجر ، قال معروف :

- « أيها الإخوان .. كلنا ودائع الله .. والله يسترد وديعته حيثما يشاء .. وكلنا إلى هذا المصير ذاهبون .. صلوا على أخيكم الشهيد صلاة الغائب .. فقد دفنوه دون أن يصلى عليه أحد صلاة الجنازة ..» .

صرخ رزق فى ذعر :

- « من ؟؟ » .

- « محمود صقر .. فليرحمه الله ..» .

انفجروا باكين ، وانتظر معروف بضع دقائق ثم أخذ هو الآخر يجفف دموعه ، وتذكر أيام المعارك الدامية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وكيف كان يموت الأبطال كل يوم ، وتذكر كيف كان يسيطر على جنوده فى المواقف الصعبة الرهيبة كى يواصل المعركة ، عندئذ صرخ فى ثقة وقوة كقائد حازم :

- « قوموا للصلاة على روح أخيكم ..» .

وتراصوا لأداء الصلاة ..

ونظر معروف بعد الصلاة إلى الفراش الخالى .. بالأمس كان يجلس هنا محمود صقر ، ويأكل وينام ، كان يجلس كالغريب .. أو المسافر الذى سوف يزمع الرحيل .. أو كعابر سبيل .. شعور غريب كان يداخل معروف منذ أيام .. هذا الطائر الأبيض الملائكى سوف يفرد أجنحته وينطلق إلى السماوات العلى حيث الآفاق العذراء التى لم تبلغها قذرات البشر ، ولا أدخنة المصانع ، ولا ضجيج مكبرات الصوت .. عالم الحب والسلام الأبدى .. حيث تلتقى أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء .. حيث لا مكان للظلم والحقد والأنانية والغدر ..

وقال الشاعر يوسف :

إن القلب ليخشع .. أو يجزع ..

وإن العين لتدمع ..

وإنا لفراقك يا محمود لمحزونون ..

ولا نقول سوى القول الخالد : « .. إنا لله ، وإنا إليه راجعون ..» .

وبعد فترة صمت وجيزة قال رزق إبراهيم :

– « سمعت بعض المعتقلين الذين حضروا التحقيق يقولون أن ثلاثة من الإخوان قد قتلوا ..» .

وعاد معروف يقول ، والدموع تبلل أهدابه :

– «﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ ..» .

وتمتم الجميع :

– « صدق الله العظيم ..» .

الفصل ٢٥

كان شعور نبيلة وهى تهبط فى أرض الكويت شعور المهاجرة ، وفوجئت هناك بعدد كبير من النساء والرجال فى استقبالها ، كان الأمر غريبًا غاية الغرابة فهى لم تسبق لها معرفة أحد منهم ، من هؤلاء يا ترى ؟؟ .

وأدرك صديق الدكتور سالم الذى تكفل بأمرها منذ البداية ما يعتمل فى رأسها من تساؤلات ، وهمس قائلًا :

– « هؤلاء جميعًا إخوة وأخوات فى الله ..» .

– « وكيف عرفونى ؟؟ » .

– « ستعرفين كل شىء فى حينه ..» .

والأعجب من ذلك كله ، أنها شعرت بالارتياح الكبير حيالهم ، حتى لكأنها تعرفهم منذ سنوات طويلة ، وابتسم الأستاذ عبد العزيز السيسى وهو صديق الدكتور سالم وقال :

– « الأرواح جنود مجندة يا أختاه .. ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .. إنهم يسيرون فى نفس الطريق ..» .

غمغمت فى ارتياح :

– « أجل ..» .

كانت سعيدة غاية السعادة ، وهى تسمعهم يناقشون الأمور بحرية تامة ، ويتبادلون بعض الكتب والمطبوعات الممنوعة فى مصر ، والتى يحاكم ويسجن كل من يمسك متلبسًا بحيازتها .. وأخذت تتصفح بعض المجلات العربية والعالمية ، إنها كلها تكتب بأسلوب غير الأسلوب الذى ألفته فى مصر ، فبعضها يوجه نقدًا لاذعًا لحكام مصر ، وبعضها يعرض تحليلًا موضوعيًا لمجريات الأحداث دون خوف ، فيزيح الستار عن أشياء محزنة وفاضحة كانت تعتبر ضربًا من البطولات فى

الصحافة المصرية ، ومن جانب آخر كانت هناك صحف أخرى تنحاز انحيازًا تامًا لحكام مصر وسياستهم ، بل إن نبيلة سمعت ورأت بعض المتحمسين لعبد الناصر وشيعته حماسًا كبيرًا ، بعضهم من الفلسطينيين أو السوريين أو اللبنانيين أو الكويتيين ، لعلها تضايقت كثيرًا من هذا الاتجاه المتحمس للثورة المصرية ، وتبادر لذهنها منذ البداية أن هؤلاء إما مخدوعون أو مأجورون ، لكن الأستاذ عبد العزيز السيسى قال لها بهدوءه المعهود :

– « هناك مؤيدون عن عقيدة ، وأيضًا تجدين معارضين عن عقيدة ، لكل وجهة نظر ، وأنا أعيش هنا منذ سنوات ، والحوار دائم بيننا وبينهم ، وهذه التيارات المتصارعة تخوض معاركها بالطرق السلمية .. وليست هنا سياط تسوق الناس إلى الرأى الواحد ..» .

واستغرقت نبيلة فى الاطلاع على مختلف الكتب الصادرة التى تناولت قضية الإخوان والثورة ، وقوائم الشهداء الذين سقطوا فى طريق الجهاد الأعظم ، وأساليب التصفية الجسدية والفكرية التى يلجأ إليها الطغاة ، والمخططات الاستعمارية والصليبية والشيوعية التى تريد أن تقضى على حركة التجمع الإسلامى المتزايدة ، وحينما قارنت بين ما شهدته بنفسها وبين ما تقرؤه فى الكتب ، أيقنت أن كل شىء يكاد يكون معروفًا ، وهذا ما أثلج صدرها ، لكنها فى نفس الوقت كانت آسفة لأن الكثيرين لم يقتنعوا بإدانة الطغاة ، كانت الخطب الرنانة من إذاعة القاهرة ، والشعارات الجذابة فى « صوت العرب » ، والمؤتمرات الشعبية الصاخبة على موجات الأثير ، والبطولات الغريبة التى تنسبها الأبواق المخدوعة للزعامة الجديدة كانت هذه الأشياء كلها تبدو فى صورة قاهرة لا تُهزم ولا تُشوه ، وراودها شىء من الإحباط والأسف ، لكن عبد العزيز السيسى قال لها :

– « المعركة طويلة .. الباطل مدعم بقوى خفية وظاهرة من الداخل والخارج وليس أمامنا سوى العمل الدائب والصبر ..» .

قالت نبيلة :
– « إلى متى ؟؟ » .
– « هذا فى علم الله ..» .
– « والنتيجة ؟؟ » .
– « على الله .. إن علينا أن نواصل جهادنا ، هذا هو المطلوب .. قد يتحقق النصر غدًا .. وقد لا يتحقق إلا على أيدى أبنائنا ..» .
قالت نبيلة فى شىء من الضيق الذى بدا جليًا على وجهها الجميل :
– « وكيف نطيق الحياة فى ظل سنوات الهوان الطويلة ؟؟ » .
– « وماذا نفعل .. ؟ » .
– « نقتل .. ندمر .. ننتقم .. إن عشرات ماتوا غدرًا داخل السجون ، فلماذا لا نموت بثمن .. نَقتل ونُقتل .. بذلك يكون لتضحيتنا معنى ..» .
ابتسم عبد العزيز وهزَّ رأسه قائلاً :
– « إننى أختلف معك .. إن موت واحد أو عشرة أو ألف لا يغير من الواقع شيئًا .. بل قد سيدفع الطغاة إلى مزيد من الحماقة وسفك دماء الآلاف من الأبرياء .. القضية قضية نظام بأسره .. هذا النظام لا يمكن تغييره أو تقويمه إلا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. التغيير يجب أن يبدأ من عقول الناس ووجدانهم .. يجب أن يقتنعوا أولاً .. عندئذ تتهاوى قلاع الفساد ، وتنهار حصون الظلم .. ويختفى من الوجود « عطوة الملوانى » وأمثاله . وتظهر صحافة جديدة .. ويخرس صوت النفاق ..» .
شردت نبيلة ، وبدا الابتئاس على وجهها ، تذكرت الوجوه الشاحبة الذابلة فى أروقة السجن الحربى ، والإنسان المعلق من قدميه ، والأجساد التى تدمى من أثر التعذيب ، والصرخات المؤلمة وتذكرت سلوى ونظراتها الخائفة القلقة ، والطفل صابر على كتفها ؟ ومحفظة عطوة الملوانى المتخمة بالأوراق المالية ، وقصتها الغريبة مع المخابرات .. والرجل الأعمى فى طريق الليل الممطر ، والدكتور سالم

الإنسان النبيل ، والإرهاب الذى ينشر أجنحته السوداء فوق الملايين ، وحياة الكذب والنفاق التى تحكم الأمور فى أنحاء الوادى الأخضر الذى تشعل فيه الشياطين الحريق والرعب ..

وأفاقت نبيلة من أحلامها الدامية على صوت عبد العزيز يقول :

– « يجب أن تكتبى تجربتك الخاصة لنشرها على الناس .. إن هذا سوف يخفف عنك الكثير ..» .

قالت نبيلة :

– « والضحايا هناك ، ماذا سيستفيدون من الكتابة ؟؟ » .

– « سيستفيدون الكثير ..» .

– « ظنى أن الطغاة سيزيدون من جرعة العذاب لهم ..» .

– « لقد طفح الكيل .. ومعرفة الحقيقة هى بداية الطريق ..» .

قالت متألمة :

– « ضاعت الحقيقة بين غبار الشبهات ، وزوابع الإعلام الكاذبة .. لقد زعموا أننا كنا سنقتل الكُتّاب والممثلين ، وننسف الكبارى ومرافق المياه والكهرباء ودور السينما والجامعات .. ونختطف القادة والضباط .. أثاروا علينا كل فئات الشعب .. ورمونا بكل نقيصة .. وأطلقوا علينا اسم « إخوان الشياطين » .. وانتزعوا الفتاوى من بعض العلماء الحاقدين والمخدوعين .. لقد سمموا الرأى العام من حولنا ، واستغلوا فى ذلك كله الإمكانيات الضخمة التى تحت أيديهم .. واشتروا العديد من الصحف والمجلات فى أنحاء العالم العربى والإسلامى .. نحن أمام طوفان جارف من العداوة والاستعداء .. بل زعموا كذبًا أننا ننوى شرًا بإخواننا المسيحيين .. ورموا قادتنا بالتُهم البذيئة والانحرافات .. كيف نمضى فى هذه الظلمات المدلهمة ؟؟ » .

ابتسم عبد العزيز فى مرارة وقال :

– « قالها الله فى كتابه العزيز ..» .

– « ماذا قال ؟؟ » .

- «وقل اعملوا ..» .

وطال الحوار وتشعب ، وأخيرًا أخبرها عبد العزيز بأن زوجته سوف تصحبها فى الصباح إلى بيت المدرسات المغتربات حيث ستعيش معهن كى تبدأ العمل كمدرسة فى إحدى مدارس البنات ، كما أخبرها بأنه قد حصل لها على تصريح من وزارة التربية بالحضور إلى منزله كل خميس لقضاء عطلة الأسبوع مع زوجته وأولاده ، ومع بعض الأخوات المسلمات اللاتى يعمل أزواجهن فى الحكومة والمؤسسات الكويتية المختلفة ، وبالفعل بدأت نبيلة حياتها العملية فى المدرسة المذكورة ، كانت تتحسس طريقها فى بداية الرحلة الجديدة فى دار الهجرة ، إنها تعايش مجتمعًا عربيًا لكن له طباعه الخاصة ، وضايقها كثيرًا تلك التحذيرات والنصائح التى تصدر عن صويحباتها ومعارفها ، يجب ألا تصطدمى بواحدة من الفتيات .. هذه بنت فلان .. وتلك بنت علان .. والضرب ممنوع .. لا داعى للكلام فى السياسة .. وكذلك انتقاد الأوضاع الاجتماعية .. عليك أن تقابلى بعض التصرفات الطائشة من الفتيات بصبر وروية وهدوء أعصاب .. لا تفكرى فى عقوبة إحداهن .. أحيلى الأمر إلى مديرة المدرسة .. لا تتدخلى فى الأمور الإدارية .. ليس عليك سوى تنفيذ الأوامر دون اعتراض .. لا تفكرى فى شىء سوى عملك الفنى .. تقيدى بالمنهج الذى أعدته الوزارة .. أنت مسئولة مسئولية تامة عن النتيجة آخر العام مهما كان الأمر .. وقت الحضور والانصراف مقدس بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .. هناك صراعات بين مختلف الأجناس .. المصرى .. والفلسطينى .. والعراقى .. والسورى .. والكويتى .. إلخ .. لا دخل لك فى شىء من هذا كله .. إذا انتقدت زميلة لك إحدى زميلاتها أو وجَّهت لومًا لإدارة المدرسة فلا تردى عليها .. كونى حذرة ، فقد تنقل ما سمعته منك إلى المسئولين ، فتسبب لك المشاكل .. لا تقولى لمديرة المدرسة «لا» .. إلى غير ذلك من النصائح العديدة التى كانت تنصب فى

آذان نبيلة .. ونبيلة فى دهشة بالغة من كل ما تسمع ، شعرت أن قيودًا وأغلالًا جديدة توشك أن تكبل انطلاقها وحريتها فى التعبير والعمل .. هذا شىء لم تألفه من قبل .. لكن الأستاذ عبد العزيز السيسى وهو مدير شركة كبيرة قال لها فى هدوء كالمعتاد :

– «لكل مجتمع طبيعته .. الداعية إلى الله يجب أن يكون كيِّسًا فطنًا صابرًا .. ولكل مقام مقال .. ولن تعدمى العناصر الصالحة ، ولا القلوب الطيبة .. إن سلوكك وحده قادر على أن يجلب لك الاحترام والحب .. ونحن هنا لسنا سجناء .. ونستطيع أن ننطلق فى أرض الله الواسعة فى مختلف قارات العالم .. ولن نموت من الجوع .. المهم ألا ننس الرسالة التى وضعها الله فى أعناقنا .. لأننا بها ومن أجلها نعيش .. وكل شىء فى سبيل الله يهون .

قالت نبيلة :

– «لكن يجب ألا ننس أن كرامتنا فوق كل اعتبار ، وهى جزء من عقيدتنا ..» .

– «بكل تأكيد ..» .

لم توافق أية دار من دور النشر على طبع مذكرات «نبيلة عبد الله» فى الكويت ، وقد ثارت نبيلة وأبدت استنكارها لهذا الموقف ، لكن الإخوان أفهموها أن الأمر يجب أن ينظر إليه من زاوية أخرى ، وبشىء من الموضوعية والحيدة ، فالمسئولون هنا لا يريدون الدخول فى معركة إعلامية أو غير إعلامية مع السلطات الحاكمة فى مصر ، وطبيعة الأمور فى الدولة هنا تقتضى ذلك ، ويكفى أن الكويت قد فتحت صدرها للمهاجرين من الظلم ، وأعطتهم فرصة العمل والحياة الشريفة كإخوة ، وأكد لها أن الكثيرين يتعاطفون مع قضية الإخوان المسلمين ، لكنهم– لظروف خاصة– لا يريدون التصريح بذلك ، وقال لها إنه بالإمكان طبع أى كتب خارج البلاد فى بيروت مثلًا ، وسوف يُسمح بتداوله هنا ، وبذلك يتحقق الهدف ..

وقال عبد العزيز :

— « هل أنت مصرَّة على وضع اسمك على غلاف الكتاب ؟؟ » .

— « بالتأكيد .. إننى لا أوافق على تلك الكتب الصادرة مع إغفال اسم المؤلف ..» .

— « قد يسبب لك ذلك بعض المتاعب ..» .

— «ليكن .. لم أعد أخاف شيئًا .. لقد نذرت نفسى لله .. لقد استطعت أن أقرأ الكثير من مؤلفات الشهيد حسن البنا أول مرشد عام للإخوان، ومؤلفات أخرى لبعض كُتَّاب الإخوان .. الحقيقة أننى أكتشف أشياء جديدة .. لم أكن أتصور تلك العظمة المعجزة فى النظام الإسلامى .. إن المدارس لم تكن تعلمنا إلا القليل عن الدين .. وفى النهاية آمنت أن الموقف الوسط ضعف وهروب ونقص إيمان .. إما أن أكون مسلمة حقًا أو لا أكون .. ولهذا سأكتب وأنشر وأتحمل المسئولية كاملة .. لم أعد أرهب الموت ..» .

هزَّ عبد العزيز السيسى رأسه قائلًا :

— « هذا جميل .. لكن ما هى أبعاد المسئولية التى تتحدثين عنها؟؟ » .

— « المسئولية الكاملة ..» .

— «لو كان الأمر فى حدود شخصك لكان الأمر .. قد يضحى الإنسان بنفسه بإيمان وثقة، لكن هناك مئات الألوف مصيرهم مرتبط بما تفعلين وتقولين .. أنت ونحن مسئولون عن هذا أيضًا ..» .

طأطأت رأسها قائلة :

— « أجل ..» .

ومرت الأيام، ونبيلة غارقة فى طوفان الحياة الجديدة، وفى التغيير الذى يطرأ على حياتها وتفكيرها منذ وفدت إلى تلك الديار، تألمت غاية الألم عندما جاءها نبأ مرض أبيها، والمحن التهديدات المتلاحقة التى يثيرها عطوة الملوانى، وأجهشت باكية وهى تتخيل

والدها الشيخ المسكين وهو طريح الفراش يبكى فراقها ، ويعانى من آلام القلب ، ولا شك أنه كان يتمنى ألا تكون خاتمة حياته على تلك الصورة الفاجعة ، وأخذت نبيلة تقول بنبرات باكية :

– «يا حبيبى يا بابا .. ما ذنبك أنت ؟؟ .. أنا السبب .. أنا السبب .. ماذا أفعل يا ربى ؟؟» .

وأخذت تجفف دموعها وحيدة فى غرفتها بسكن المدرسات ، ورأسها يغلى بالغضب والثورة ، إن الظلم نار تحرق ، لا تفرق بين طفل وشيخ ، ولا بين الجانى أو البرىء ، ولا الظالم أو المظلومين ، لقد اضطربت الرؤية ، وتاهت معالم الطريق ، واختلط الحق بالباطل ، وأصبح العالم فى نظرها غابة موحشة يسودها الرعب والفساد ، وعلى الرغم من اندماجها فى العمل وقضاء وقت الفراغ فى تسجيل أفكارها وذكرياتها ، وقراءة بعض الدراسات الإسلامية والسياسية والأدبية ، إلا أنها لم تستطع أن تبعد عن ذهنها شبح والدها المريض المسكين ، والواقع أن شخصية الدكتور سالم كانت ترافقها أيضًا فى سفرها الذى لا تعرف له نهاية ، ابتسامته الطيبة المؤمنة ، وإشعاع عينه الواثقتين ، ومعطفه الأبيض الملائكى ، ومنطقه المحدد الواضح ، حتى لكأنه يعرف بداية كل شىء ومسيرته ونهايته وكأنه يقرأ سطور المجهول فى عالم السياسة والفكر ، كلما تذكرت سالمًا آمنت أنه هو الرجل القوى المؤمن الذى لا يهزم ، مجرد شعور يسيطر عليها ويقنعها بهذه الحقيقة ، قالت لنفسها : «إننى لا أخاف عليه .. الوحيد ممن عرفتهم الذى يتقبل ما تأتى به الأقدار عن رضا ويقين وثبات .. لكن هذا الصنف من الناس لا يروق لعطوة الملوانى وزبانيته .. تُرى هل سيعرضه ذلك للخطر ؟؟ قلبها يؤكد لها أنه سيخرج يومًا ما ، وستراه .. وسيكون كالعهد به .. قويًا .. أسطوريًا .. كراهب الليل وفارس النهار .. هذا هو «السوبر مان» أو الإنسان الأعلى الذى تحدثت عنه كتب الفلسفة .. الكمال لله وحده .. لكن سالمًا يشرب من

نبع النبوة وقد نهل من العلوم المختلفة .. العالم المؤمن المجاهد هو المثل الأعلى فى عالمنا .. حماك الله يا سالم ..» .

وألفت نبيلة البيئة الجديدة أو كادت ، ولم تكد تنكر أنها تشعر بقدر من السعادة لا بأس به، وخاصة عندما أمسكت بكتابها الجديد المطبوع .. أخذت تنظر إلى اسمها المنقوش عليه فى فخر ، ثم قرّبته من فمها وقبّلته فى حنان وكأنها تقبّل أباها وأمها وإخوتها وأخواتها .. الكتاب قطعة منها .. بعض من روحها وعقلها .. بل هو فى نفس الوقت سوط ألهبت به رأس الطغيان وجسده .. ولعله أحدُّ من السيف وآلم من السوط .. كادت تطير من الفرح .. تمنت أن تكون اللحظة فى شوارع القاهرة .. ثم تجرى .. وتجرى .. وتوزعه على الناس بالمجان فى كل مكان .. تمنت أن تبعث بنسخة منه إلى الرئاسة ..

وهبّت واقفة .. وأخذت تفكر .. لماذا لا تبعث فعلًا بنسخة منه إلى القصر الجمهورى .. إلى الرئيس بالذات ؟؟ ولماذا لا ترسل عددًا من النسخ إلى عطوة الملوانى ؟؟ عطوة لا يقرأ كثيرًا .. لكنه بالتأكيد سوف يقرأ هذا الكتاب بالذات .. على الأقل ليعرف ماذا كتبت عنه .. وراقتها الفكرة .. وأخذت تضحك من أعماقها وهى جالسة فى غرفتها .. ماذا سيقول عطوة عندما يقرأ تحليلها لشخصيته وأفكاره وتصرفاته الشاذة ؟؟

إنها شاهد عيان يروى طرفًا من المأساة التى حدثت .. فليشهد التاريخ .. وليقرأ الناس .. لأول مرة تشعر أن كلماتها أصبحت لها قيمة .. ولمست نبيلة فى كل من قرأ كتابها التحمس والاقتناع، ثم السخط على كل ما يجرى من عسف ، وعاشت نبيلة منتشية بحلمها الجميل ما يقرب من أسبوع .. لم تكن تستطيع النوم .. كانت تمسك الكتاب وتقرأ فيه .. وتظل تقرأ من البداية إلى النهاية .. حتى لكأنها لا تعرف عنه شيئًا .. أو أنه من تأليف إنسان غيرها .. لم تكن تتخيل هذا

الحب كله بينها وبين كتابها .. أيمكن أن تقوم مثل هذه العلاقة بين الإنسان والورق ؟؟ لقد أدركت الآن مدى السعادة الهائلة التى يعيشها الكاتب أو الفنان وهو يرى نتاج عقله وروحه واقعًا بين يديه والناس يتداولونه ..

وذهبت نبيلة فى زيارتها الأسبوعية لمسكن عبد العزيز السيسى ، واستقبلتها زوجته بالحب والترحيب المعهودين ، وتبادلا القُبلات ، وأبرزت نبيلة بعد أن جلست نسخة من كتابها ، وكتبت عليه إهداء وقدَّمته لها ، فتقبلته شاكرة وهى تبتسم فى شىء من الألم ، وقالت :

– «لقد قرأته .. لقد أعجبنى جدًا .. لكنه آلمنى ..» .

قالت نبيلة فى حماس :

– «من الضرورى أن نتألم ..» .

ودخل عبد العزيز شاحبًا لاهثًا ، كان المسكين يشكو من مرض قديم بصمامات القلب ، وكان أدنى انفعال يسبب له الألم وضيق التنفس ، ولعل حياة الهجرة والمطاردة التى عانى منها السنين الطوال قد سببت له بعض المضاعفات ، مما يجعله يتناول عقاقير القلب بانتظام .. وصافحها عبد العزيز بيد باردة ندية ..

هتفت :

– « ما بك ؟؟ » .

تنهد فى ألم وقال :

– « الحمد لله .. لقد تعاطيت الدواء وسرعان ما تهدأ الحالة ..» .

– « شفاك الله ..» .

تململ فى مكانه ، وهَمَّ بالحديث ، لكنه سكت ، قالت نبيلة وقد داخلها هَمّ غامض لا تعرف له سببًا :

– « أتريد أن تقول شيئًا ؟؟ » .

قال عبد العزيز وهو يخفى نظراته بعيدًا عنها :

– « لا تنزعجى ..» .

هبّت واقفة وهتفت فى إشفاق :

– « هل مات أبى ؟؟ » .

قال وقد وقف وأعطاها ظهره :

– « أبوك بخير ..» .

– « ماذا إذن ؟؟ » .

– « السفير المصرى ..» .

اقتربت منه فى لهفة قائلة :

– « ما شأننا به ؟؟ » .

قال عبد العزيز :

– « لقد قدّم احتجاجًا لدى خارجية الكويت ..» .

– « لماذا ؟؟ » .

– « بسبب الكتاب ..» .

صرخت :

– « الكتاب ؟؟ » .

– « نعم ..» .

وساد صمت قال عبد العزيز بعده :

– « كان من رأيى ألا تكتبى اسمك عليه ..» .

– « أليست هناك حرية رأى ؟؟ » .

– « هناك يا نبيلة مجاملات دولية .. وعلاقات معينة .. وظروف وملابسات لا نعرفها نحن ولا أنت .. الحيطة واجبة ..» .

توترت أعصابها ، كادت أن تبكى ، لكنها تمالكت نفسها ..

صرخت محتجة :

– « مستحيل ..» .

قال وهو يتصنع الهدوء هذه المرة :

– « إذا أجرى معك تحقيق يمكنك أن تنكرى أن الكتاب من تأليفك ، وهذا سوف يساعدنا كثيرًا ، ومن حُسن الحظ أن الكتاب لم يُطبع هنا ،

بل طُبع فى لبنان ، والناشر اللبنانى من أصدقائنا ، ويستطيع أن يعاوننا فى ذلك ، ولن يمسه أحد بسوء لأن الوضع فى لبنان يكاد يكون متحررًا تمامًا ..» .

قالت نبيلة وقد تندى جبينها بالعرق :

– «لكنى أرسلت نسخة للرئيس ولعطوة الملوانى ..» .

استدار نحوها عبد العزيز فى دهشة وقال :

– « غير معقول ..» .

– « هذا ما حدث ..» .

– «لقد أخطأت خطأ جسيمًا .. إننا هنا لا نتصرف تصرفات فردية .. الإخوان هنا منظمون ولهم مسئولون ، ولا يصح أن يتصرف أحد إلا فى إطار السياسة المرسومة حتى لا نفقد رقعة الأرض الصغيرة التى نعيش عليها ، وننظم منها معركتنا .. الأمور دقيقة وحساسة لقد أوقعتينا فى ورطة ..» .

طأطأت رأسها وقالت :

– « إنى أعتذر عما بدر منى بحسن نية .. وأعدك بالالتزام بالنظام مستقبلًا ..» .

وصمتت برهة ثم عادت تقول :

– « وماذا أفعل لو أُمرت بمغادرة البلاد ؟؟ » .

– « اطمئنى .. لقد رتبنا كل شيء .. فلو حدث ذلك– لا قدر الله– فسوف تسافرين إلى السعودية .. وستجدين إخوانًا مخلصين .. أو تذهبين إلى لبنان ، وسنكفل لك كل ما تحتاجينه ..» .

بكت نبيلة بحرارة ، ومن بين دموعها كانت تقول :

– «لقد كنت سعيدة بوجودى معكم .. أنتم أهلى ومستقبلى .. لقد وجدت بينكم نفسى التائهة .. عالمكن هذا هو المدينة الفاضلة التى كنت أحلم بها ..» .

قال عبد العزيز وهو يغتصب ابتسامة باهتة :
– « الأمر لم يصل إلى درجة السوء بعد .. وقد نجد له حلًا ..» .
ثم ضرب بيده فجأة على منضدة قريبة وقال :
– «هل كتبت شيئًا بخط يدك على النسخ التى أرسلت إلى القاهرة ..» .
فكرت نبيلة برهة ثم قالت :
– «لا ..» .
– «والعنوان ..» .
– «كتبته على الآلة الكاتبة .. ما كان يصح أن أكتب للرئاسة بخط يدى ..» .
ابتسم عبد العزيز :
– « هذا توفيق كبير من الله .. وسوف يساعدنا كثيرًا ..» .
– « أتعتقد ذلك ؟؟ » .
هز كتفيه قائلًا :
– «فلنعتمد على الله .. إن هنا كثيرًا من العناصر الخيرة التى قدمت لنا مختلف ألوان العون والتأييد ..» .
تنهدت نبيلة فى حيرة وقالت :
– «لقد أجهضوا فرحتى ..» .
قال عبد العزيز وهو يبلع قرصًا آخر من الدواء :
– «الطريق شاق طويل .. فليرزقنا الله الثبات على الحق ، والصبر على المكاره .. لله » .
وأسلمت نبيلة أمرها لله ، وأخذت تنتظر ما يجدّ من أحداث ، لكنها علمت أن أحد الإخوة المصريين سوف يسافر القاهرة ويعود بعد أسبوع ، وهو إنسان ثقة ، وغير معروف بميوله الإخوانية لدى أجهزة الأمن وسئلت نبيلة عما إذا كانت تريد شيئًا من هناك ، فتذكّرت نبيلة

على الفور سلوى وصابر ، وشرحت الأمر لعبد العزيز وأفهمته أنها تريد أن ترسل إلى صديقتها المسكينة بعض المال ، وتطمئن على حالها ، وسلمت المال والعنوان لعبد العزيز ، كما طلبت أن تعرف كل ما يمكن معرفته عن أبيها وذويها ، لأن مرض أبيها كان يقلقها كثيرًا ، وسلاح التهديد المسلط فوق أعناق الأسرة ، يجلب لها القلق والألم ..

الفصل ٢٦

السحب السوداء تتجمع فى أفق حياتك يا نبيلة من جديد ، والأرض تهتز تحت أقدامك يا مسكينة ، حتى لكأن تحت أديم الأرض بركان يوشك أن يتفجر ، والنوم يا نبيلة أصبح قليلًا .. متقطعًا .. مليئًا بالكوابيس والأحلام التى تنهك القوى والروح .. والعالم برغم رحابته قد أصبح ضيقًا مملًا لا راحة فيه ولا سعادة .. وملايين الكتب يا نبيلة التى تغرق الأسواق أغلبها لا حركة فيه ولا حياة ، والخوف يسيطر على الحروف .. والأقوياء فى هذا العالم يا نبيلة حفنة من الأشرار أو العصابات وكأنه بينهم جميعًا حلفًا باركه الشيطان لشن حرب شعواء على الخير والعدل والفضيلة .. ولا خلاص لهذا العالم إلا أن يولد من جديد ..

هذا ما كانت تحدِّث نبيلة به نفسها بعد الأزمة الحادة التى تهدد حياتها اليوم ، وفى اليوم التالى عادت إلى عبد العزيز السيسى تقول :

– «لكأنى بالعالم وقد عاد إلى جاهليته ، وأصبح فى حاجة إلى نبى جديد ..» .

ابتسم عبد العزيز كعادته قائلًا :

– «وماذا سيقول هذا النبى للبشر ؟؟» .

– «يقول الحقيقة ..» .

– «أستغفر الله . الحقيقة ماثلة فى كتاب الله ، وهو الرسالة الأخيرة للبشر ، وموضحة فى سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .. كل ما يمكن أن يقال إن الناس فى غفلة وجهل ، وما عليهم إلا أن يعودوا إلى النبع الصافى بعد أن أرهقهم التيه وكاد يقتلهم الظمأ .. هم فى حاجة إلى الصدق إلى الإيمان ..» .

توترت أعصابها ، وأخذت تفرك أصابعها ، ثم غمغمت :

– « القضية الأولى هى الحرية ..» .
– «بل الإسلام ..» .
– «وكيف ندعو إليه ونحن محاصرون بالأسوار والسلاح وعصابات السياسة ؟؟ » .
قال عبد العزيز :
– «تدعين إليه بين زميلاتك وطالباتك وأسرتك .. تستطيعين فعل ذلك دون أن تتكلمى ..» .
– «كيف .. ؟!» .
– «بالسلوك يا أخت نبيلة .. السلوك الصحيح هو أعلى صوت إعلامى عرفه تاريخ الدعوة الإسلامية ..» .
– « والكلمة ؟؟ » .
– « لابد أن تقال فى الوقت المناسب ، وبالطريقة المناسبة ..» .
قالت نبيلة فى إصرار :
– « إذا تحققت الحرية ، استطاع كل فرد أن يقول ما شاء .. ونحن بدورنا سيُفتح الطريق أمام دعوتنا ، وتصور أن الحروب التى خاضها المسلمون الأوائل كانت من أجل تحرير الناس ، حتى يسمعوا دعوة الله .. ولهم الحق فى أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا .. لا إكراه فى الدين ..» .
قال عبد العزيز وقد أسره منطقها :
– «كلامك فيه الكثير من الصحة .. الحرية التى نريد لابد أن يكون لها إطار .. أى أن تكون من خلال التصور الإسلامى لكل نواحى الحياة» .
وسادت فترة صمت قال عبد العزيز بعدها :
– «عندما نقول (الحرية) سوف يتساءل الناس : أية حرية تقصدون ؟؟ العالم الرأسمالى ينادى بالحرية .. والشيوعيون يهتفون للحرية .. واليهود يقولون الحرية .. الحرية فى كل مكان .. وهكذا يا أختى الفاضلة ترين أن الحرية لا تنبت من فراغ .. إنها جزء من كل ..

إنها وليد شرعى للمبادىء الخالدة أو البناء الفكرى المتكامل.. والباب الرئيسى لدخول هذا البناء هو الإيمان ..».

هبّت نبيلة واقفة وقالت:

– «وكيف ندعو وعدونا يواجهنا بالسياط والرصاص ؟؟».

– «بالحكمة والموعظة الحسنة ..».

هتفت:

– «الحكمة مع من ؟؟ مع القتلة والسفاكين ؟؟».

– «نعم مع كل الناس ..».

– «إذن لماذا رفع الإسلام سيفه ؟؟».

– «بأمر الله، وفى ظروف معينة ..».

تململت فى وقفتها تلك وهتفت:

– «لا علاج للسرطان سوى الاستئصال ..».

– «العلاج الحاسم هو الجراحة ..».

– «ومع ذلك فالجراحة المقصود منها أن يشفى المريض ..».

– «أنا أقصد استئصال السرطان نفسه ..».

– «أعرف .. لكن فى إطار المفهوم الذى نعرفه عن القصاص: العين بالعين ..».

كانت هناك جهود مكثفة تُبذل من أجل إبقاء نبيلة بالكويت، والتغلب على مشكلة مغادرتها للبلاد بشتى الوسائل، وكانت نبيلة تنتظر على أحر من الجمر، لكن أمرًا هامًا قد فتح ثغرة للفرح فى قلبها، ألا وهو كتابها .. لقد أثار ضجة أكبر مما كانت تتصور، وتم توزيعه بسرعة غريبة، بل وطلب الناشر إذنًا بإعادة الطبع، كما طلب السماح له بنشر عدد أكبر من النسخ ..

إن الناس قد استقبلوا كلماتها بما يستحق، الناس متعطشون للحقيقة .. هى لا تنكر أن هناك من ثاروا ضدها وحاولوا تفنيد كتابها، بل اتهموها بتزييف الحقيقة، والجنوح إلى الخيال والافتراء، وادعاء

البطولة، بل إن بعض الصحف هاجمتها بشدة سواء فى بيروت أو الكويت أو الشام، وأباح لنفسه البعض أن يرميها بتهمة الخيانة والعمالة، وزعموا أن وراءها جهات أجنبية إمبريالية، ترمى إلى تشويه سمعة الزعيم ومجلسه الموقر، لشد ما تألمت نبيلة فى البداية، لكنها قالت: «هؤلاء الذين يحاربوننى إما مأجورون أو مخدوعون»، والغريب أن بعض هؤلاء المعلقين طالبوا بطردها من البلاد، لأنها لم تحترم أصول الضيافة، ولا طبيعة العلاقات الدولية والمجاملات الدبلوماسية، وهكذا احتدمت المناقشات، وفكرت نبيلة فى أن ترد على هؤلاء، وتكيل لهم الصاع صاعين، لكن الأستاذ عبد العزيز السيسى نصحها أن تعتصم بالصبر، لأن نقطة الدفاع الوحيدة هو إنكارها لنسبة الكتاب إليها، حتى يستطيعوا أن يوقفوا الإجراءات الخاصة بمغادرة البلاد، كان عبد العزيز يفكر فى إنقاذها بأية طريقة، ولا يعتقد أن فى ذلك خطأ يذكر، وخاصة أن الكتاب قد صدر، وبلغ الهدف المقصود، أما هى فقد كانت ترى أن الصدق يجب أن يقال مهما كان الثمن، وأنها لابد أن تتحمل كل ما كتبه الله عليها من تضحيات، وتتقبل المخاطر والمسئولية بشجاعة، وتتحدى إرادة الضغط والإكراه والخوف والمجاملات، لأن الخائفين لن يحققوا نصرًا، ولهذا قالت نبيلة فى حدة:

– «أستاذ عبد العزيز.. اسمح لى.. نحن هنا نأكل التفاح، ونركب المرسيدس، ونرتدى أفخر الثياب المستوردة، ونخاف على مراكزنا وأموالنا وأمننا الاجتماعية.. ثم نزعم أننا نخوض المعركة..».

قال عبد العزيز فى ثقة:

– «نحن نؤدى التزامنا نحو المعركة.. ولا ضير بعد ذلك أن نأكل ونشرب وننام.. فالحياة مستمرة.. والصراع واقع.. ولو احتاج الأمر أن نأكل القديد ونرتدى أبسط الثياب لفعلنا.. إن هناك اعتبارات عديدة يجب أن نضعها فى الحسبان، وخاصة أن لنا تنظيمًا يجب

الالتزام بتوجيهاته ..» .

وخرجت نبيلة من قلقها وهواجسها وآلامها كالمعدن النفيس بعد أن تخلص من شوائبه فى وهج النار .. لم تعد تخاف .. هى الآن سعيدة .. إنها تستمتع بجهادها ، وهى على استعداد لأن تدفع الثمن من راحتها ومستقبلها .. بل من حياتها .. إن التضحية أروع ما تكون عندما تصبح خالصة لوجه الله .. والأرزاق على الله، والآجال مكتوبة .. ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها ..

وكم كانت دهشة عبد العزيز عندما فتح الصحف فى أحد الأيام ، فوجد فى إحدى الجرائد المحايدة صورة لنبيلة عبد الله وحديث طويل لمندوب الصحيفة ، دقَّ قلبه فى عنف ، تقاطر العرق على جبهته ، شعر بضيق فى التنفس .. أخذ يجرى على السطور فى لهفة .. يقرأ شيئًا ويغفل شيئًا آخر .. يا إلهى ماذا تقول :

« إننى واحدة من آلاف البشر المعذبين .. لم أكن من الإخوان المسلمين .. إننى أدعو المتحمسين للثورة ، وبعض رجال القضاء والمحاماة فى العالم العربى أن يشكِّلوا وفدًا منهم ويطلبوا من الحكومة المصرية السماح لهم بزيارة المعتقلين فى المعتقلات والسجون .. وفى السجن الحربى وسجن القلعة بالذات .. ومقابلة المحبوسين سياسيًا .. إننى أتحدى أن توافق الحكومة المصرية .. كما أدعو منظفة العفو الدولية ولجنة حقوق الإنسان للتدخل وإعلان الحقيقة أمام الناس .. إن القضية ليست قضية الدعوة الإسلاميةفحسب .. ولكنها قضية إنسانية كبرى .. لا تصدقوا كل ما يقال فى الصحافة الرسمية وأجهزة الإعلام المختلفة .. أنا لا أخاف شيئًا .. ولست أملك سوىعقيدتى وقلمى وذكرياتى المريرة .. وأرض الله واسعة .. لقد وهبت نفسى لله .. ومرحبًا بأى شىء أقدمه فى سبيل مبدئى .. إن الأمر لا يتعلق بشخصى ولا بوطنى .. فالإسلام هو ديننا .. وقضايانا مع الأعداء قضايا خطيرة ومصيرية ولن نستطيع أن نخوض

معركة حاسمة مع أعداء العالم العربى والإسلامى إلا إذا كنا شعبًا شريفًا كريمًا حرًا مؤمنًا .. ومدرسة الإرهاب فى أى مكان من العالم لن تصنع رجالًا شرفاء .. سوف يتخرج منها الخائفون والمنافقون والأنانيون .. وستصدر لمجتمعنا الإسلامى جراثيم الفساد والعفن الأخلاقى .. والموت المعنوى .. هذه صرختى أطلقها على الملأ قبل فوات الأوان .. أنا التى ألفت الكتاب .. إننى أطلب من الإنسان- مهما كان لونه وجنسه ودينه ومبادئه- على كل أرض أن يدافع عن حق الإنسان .. وأن يعلن رفضه لكل الإجراءات الاستثنائية، والسلطات المطلقة .. كونوا أنصارًا للحق والحقيقة ..».

ارتجفت يده وهو يقرأ، دمعت عيناه، إنها تقول الصدق، هى أشجع منا جميعًا .. فعلًا نحن نأكل التفاح .. ونركب المرسيدس .. ونجامل أصحاب القرار والسلطة .. ونكتفى ببعض نشرات وكتب بلا مؤلف .. ونرسل بعض المال لأسر الشهداء والمسجونين .. القضية أكبر من ذلك .. أتُرى تكون نبيلة على حق، ونحن قد حصرنا جهادنا فى أضيق الحدود ؟؟.

ومع ذلك فقد استقبلها بشىء من عدم الرضا فى اليوم التالى وقال:

- «التصرفات الفردية مضرة، وفيها خروج عن الالتزام الجماعى ..».

- «هناك حقوق للجماعة علىّ، لكن هناك أشياء أخرى تخصنى كفرد ..».

- «ماذا تعنين ؟؟».

- «حياتى ملكى .. وقد نذرتها لله .. وسأرحل قبل أن يقولوا لى ارحلى ..».

قال عبد العزيز شاحب الوجه:

- «قد يغتالونك فى مكان آخر .. فى بيروت مثلًا أو أوربا .. نحن

أدرى بأساليب مخابراتهم المنبثة فى كل مكان ..» .
قالت فى إصرار :
– «فليكن ..» .
– «ليس هذا قرارًا سهلًا .. إن قضيتنا واحدة ، والحفاظ على أرواحنا فى هذه الفترة أمر ضرورى ..» .
– «إنهم يقتلون السجناء العُزّل فى الحربى بكل بساطة ..» .
– «لكننا هنا ولسنا فى الحربى .. نحن الألسنة التى تدافع عن الشرفاء المحتجزين ..» .
– «الأمر يحتاج إلى شىء أكبر من ذلك .. ما سمعت ولا قرأت فى تواريخ العالم عن معارك بلا دماء ، ولا نصر بدون تضحيات .. الخواف مقبرة الأمل ..» .
نظر عبد العزيز إليها طويلًا ، كان وجهه شاردًا جامدًا فى البداية .. ثم انفرجت أساريره .. وابتسم .. ثم ضحك .. وضحك ..
قال :
– «ماذا ؟؟» .
قال وهو يجفف دمعة أفلتت على الرغم منه :
– «أنت على حق ..» .
وصمت برهة ، ثم أخرج قرصًا ، سرعان ما وضعه فى فمه ، وتبعه بجرعة ماء ، بعد أن سمّى الله وحمده وقال :
– «المهمات الكبيرة كنا نكلف بها الرجال القادرين ..» .
– «ولماذا لا تشارك النساء .. ؟» .
– «لكل دوره .. ولم يحن الوقت بعد لكى نكشف لك عن كل شىء .. حقًا نحن نأكل التفاح ، ونركب المرسيدس ، وجهادنا دون المطلوب ، لكن ..» .
قاطعته قائلة :
– «إنى آسفة .. لم أكن أقصد التجريح .. كنت ثائرة ..» .

– «لا بأس .. نريد أن تتحكمى فى ثورتك دائمًا .. الأحداث علمتنا الحذر .. والخبرات التى هزتنا فى عنف، وأرهقت شبابنا قد مدتنا برصيد هائل من المعلومات .. إذا كنا نأكل التفاح اليوم ونركب المرسيدس .. فلا ننس أننا أكلنا حبوب الحنطة الجافة، وحشائش الصحراء، ونحن نحارب الصهيونية فى فلسطين .. والإنجليز على ضفاف قناة السويس .. وسرنا حفاة على الشوك حتى دميت أقدامنا .. وخضنا مجارى المياه فى أشد الليالى برودة .. وكان الموت يترصدنا فى كل لحظة ..».

وبدت الدموع فى عينيها، فابتسم عبد العزيز قائلًا :

– «ألا تقرئين قول الله : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ﴾ ».

وعاد الشحوب إلى وجهه مرة أخرى، شرد قليلًا ثم قال :

– «اسألى زوجتى أم أيمن .. ذات ماء شعرت بأن السرير الذى أنام عليه مريح وناعم ولين .. تذكرت إخوانى وهم نيام على بلاط السجن، يأكلون العدس والخبز .. فتسللت من الفراش، وألقيت بجسدى المريض على أرض الغرفة .. لماذا لا أكون مثلهم .. لكن آه .. ماذا أقول ؟؟ هناك أشياء أخرى غير المظاهر .. إن نومى على البلاط لا يعنى مطلقًا أننى أصبحت مثلهم .. هناك أشياء أخرى لا يحسها إلا السجين الذى يعيش تحت جناح الموت الأسود والإرهاب والسخريات المريرة والقلق .. كيف أعايش هذه الأحزان وأنا آمن مطمئن بين زوجتى وأولادى، وجيوبى عامرة بالمال .. وأستطيع أن أنام وأستيقظ وأقبّل أطفالى .. وأخرج .. وألتقى بالأصدقاء ؟؟».

طاطات نبيلة رأسها فى أسى وقالت :

– «أكرر تأسفى ..».

– «لا عليك .. يجب أن نتكلم بوضوح .. لقد تعلمت فى حياتى الكثير من التجارب والكتب .. لكنك تجربة جديدة حية .. أقوى من أى

كتاب دبجته يراع كاتب .. لقد تعلمت منك الكثير ..» .

قالت في خجل :

- « العفو ..» .

- « تلك هي الحقيقة ..» .

وأصبح موضوع نبيلة عبد الله مادة مثيرة في الصحف في تلك الفترة ، بعضهم أيدها في آرائها ، وبعضهم عارضها بشدة ، وآخرون كتبوا مطالبين بخروجها من البلاد ، والواقع أن الأستاذ عبد العزيز السيسي استطاع بذكائه وصلاته القوية مع بعض الشخصيات الطيبة أن يصلوا إلى حل وسط ، ومن ثم اتفقوا أن تسافر فعلًا لمدة شهر في أي مكان ، ويعلن عن ذلك رسميًا ثم يمكنها بعد ذلك أن تأتي خفية دون ضجيج أو إعلان ، وفعلًا شدّت نبيلة الرحال إلى اسطنبول في تركيا حسبما نصحها الإخوان ..

الفصل ٢٧

قرية «منية البندرة» بلدة صغيرة، تنام فى سكون على صدر الأرض الخضراء التى يخترقها خط للسكك الحديدية، وسكانها قوم طيبون يحترفون الزراعة وتربية المواشى شأنها آلاف القرى فى وادى مصر، وأغلب الناس فيها يعيشون كأسرة واحدة، وهم متلاحمون دائمًا فى السراء والضراء، يجتمعون فى أيام الأفراح، ويتبادلون العزاء فى مناسبات المآتم، ويتراصون إلى جوار بعضهم البعض فى المساجد، ويتعاونون فى مواسم الزراعة، ويعطف الفقراء منهم على الأشد فقرًا، وجيل الشباب الذين يتلقون العلم فى المدارس يحلمون دائمًا بحياة أفضل يسودها الرخاء والعدل، فعلى مقربة منهم توجد إقطاعيات الباشوات وبعض الأمراء، لكن البون شاسع بين هؤلاء وأولئك، ويوم أن سيق محمود صقر إلى المعتقل حزن الرجال، وأغلب نساء القرية كن يذرفن الدموع، واحتشد عدد منهن فى بيت أم محمود يواسينها ويدعون للعزيز السجين بالفرج القريب، فمحمود هو ابن القرية كلها، يكتب لهم العقود والرسائل وأوراق البيع والشراء والقروض والإيجارات، ويفتى للناس مثل أبيه فى أمور دينهم، ويعطى لأطفالهم الدروس الأولية كى يلتحقوا بالمدارس أو المعاهد الدينية، ويجمع لهم التبرعات كى يرمموا المساجد الآيلة للسقوط، أو يساعد المحتاجين منهم، ويرافقهم لدى السلطات الحكومية لحل مشاكلهم المختلفة ويجلس معهم على المصاطب يناقشهم شئون دينهم ودنياهم، ولهذا كان أمر اعتقاله أمرًا مؤثرًا فى نفوسهم لدرجة

كبيرة .. كان يؤمن أن الخطب والشعارات وحدها لا تكفى لإصلاح الحال ، واللجوء إلى العمل الجاد المخلص فى إطار الثقة والتعاون ، يؤدى فى النهاية إلى حلول واقعية .. برغم الإمكانيات الصعبة المتاحة ، وانشغال الحكام بأمور أخرى غير مشاكل الجماهير المطحونة بالفقر والقلق والعذاب ..

وفوجئت القرية بعدد كبير من رجال الشرطة يدهمونها ، ماذا جرى مرة أخرى ؟؟ لقد أخذوا محمود صقر قبل ذلك ، فمن يريدون هذه المرة ؟؟ إنه زمان عجيب .. وتراص الناس على جانبى الطريق يرمقون الضباط والعساكر وهم يدقون الأرض بأحذيتهم الثقيلة ، ويثيرون الغبار ، مدججين بالسلاح ، وعلق «قبانى» القرى قائلاً :

– «ماذا جرى ؟؟ هل اختبأ فى قريتنا جواسيس أو تجار مخدرات؟؟» .

وقالت امرأة عجوز :

– «ما هذا الزمان ؟؟» .

ورجل من فقراء الصوفية يهتف فى شوق :

– «وحدوه .. هو الباقى .. كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .. يا حى تُب على كل حى ..» .

وساد الهرج والمرج ، وعمدة البلد ، يهرول مرتديًا جلبابه الصوفى وعمامته البيضاء وإلى جواره الخفراء يشقون الطريق المزدحم إلى بيت محمود صقر ، كان الناس فى حيرة من أمرهم لا يكادون يفهمون شيئًا ، الجميع يعرفون أنهم قبضوا على محمود قبل ذلك ، فماذا يريدون هذه المرة ؟؟ هل يريدون اعتقال أبيه أو أمه أو أحد من إخوته؟؟

ودخلوا بيت محمود ، وقلبوه ظهرًا لبطن ، وقال مجموعة من الناس :

- «ماذا حدث يا حضرة العمدة ..» .
رد الرجل المرهق الخائف قائلاً :
- «لقد هرب محمود من السجن يا بهائم ..» .
وسرعان ما انتشر النبأ فى حارات القرية الضيقة ، وسادت الناس موجة من الفرح لا توصف ، وزغردت بعض النسوة ، وقهقه رجل معروف بإدمانه بعض المخدرات وقال :
- « عفارم .. والله عفارم يا محمود .. تعيش البطن اللى ولدتك .. ورب العزة رجل ابن رجل.. والنبى بطل وأشجع من أدهم الشرقاوى » .
وهمس رجل كان معروفًا بميول حزبية قديمة ، ومن عشاق الوفد المصرى وزعيمه النحاس باشا ، همس :
- « هذه الأيام السوداء لم نر مثلها مطلقًا .. كانت أيام الإنجليز أرحم ..» .
أما الشيخ العجوز أحمد صقر والد محمود فقد انهمرت دموعه وقال :
- « ولدى لا يهرب من قضاء الله .. أنا أعرفه ..» .
رد عليه قائد القوة المسلحة :
- « الحكومة لا تكذب ، وكلامك فيه خداع وكذب ..» .
- «حاشا لله يا ولدى .. ابحثوا كيف شئتم .. قلبى يحدثنى أنه لم يهرب ..» .
جذبه الضابط فى غلظة قائلاً :
- «تكلم .. أين محمود ؟؟» .
- «أقسم بالله لا أعرف عنه شيئًا منذ أخذتموه.. أنتم مسئولون» .
ضحك الضابط ساخرًا :
- « أتحاكمنا ؟؟ » .

– « وهل فينا من يجرؤ على ذلك ..» .
– « حسنًا .. فلتخبرنا عن جميع أسماء الأقارب والأصدقاء هنا أو فى أى بلدة أخرى ..» .
– « لماذا ؟؟ » .
– « لنبحث عنه لديهم ..» .
ابتسم الشيخ فى مرارة وقال :
– « قريتنا كلها أقرباء ..» .
– « أتسخر منا ؟؟ » .
– « وأصدقاء ولدى كثيرون ..» .
وصمت الشيخ برهة ثم قال :
– « حاولت مرارًا أن أزوره فى سجنه فلم يسمحوا لى .. فى أى شرع هذا ؟؟ » .
– « أنتم لا تستحقون الرحمة ، أنسيت ما فعله ابنك ؟؟ » .
– « أقسم أنى لا أعرف شيئًا ..» .
نظر الضابط فى احتقار إلى الشيخ وقال :
– « كان يريد قتل الرئيس ..» .
– « ولدى يقتل ؟؟ مستحيل .. لقد تعلم منذ نعومة أظافره ، أن المسلم على المسلم حرام .. دمه وعرضه وماله ..»
قال الضابط :
– « أسمع كلامك أصدقك ، أشوف أفعالك أستغرب ..» ..
ثم التفت إلى العساكر :
– « جروا هذا الرجل إلى السيارة ..» .
قال الشيخ أحمد :
– « أنا ؟؟ لماذا ؟؟ » .
– « سوف نجرى معك تحقيقًا حول هروب ابنك ، ثم تعود ..» .
– « أمرى لله ..» .

وسار الشيخ فى الموكب المسلح يتوكأ على عصاه ، والدموع تتساقط على لحيته البيضاء .. وتقدم رجل من أهل القرية وقال فى حماس :

– «خذونى مكانه .. الرجل رجله فى القبر ..» .

ورنت على وجهه صفعة الضابط الحانق ، وانهال عليه العسكر ركلًا ولكمًا ، حتى طرح على الأرض ، والناس فى ذهول مما يجرى ، وانصرف رجال الشرطة ، وصرخت عجلات السيارات ، وأخذ الناس يتجادلون ويثرثرون وقالت امرأة تطل من نافذة قريبة :

– «نحن فى آخر الزمان ..» .

وقالت أخرى فى بيت مقابل :

– «الشيخ أحمد من رجال الله .. هو خير القرية وبركتها .. يا ويلنا من بعده ..» .

وغمر القرية حزن عميق ، كانت الصبايا يملأن الجرار فى صمت ، وكان من عاداتهن قبل ذلك أن يترنمن بالأهازيج والأغانى الشعبية ، وذهب الفلاحون إلى حقولهم غارقين فى الأسى والكمد ، وأصدر العمدة أوامره لأهل القرية بألا يتحدث أحد فى السياسة على الإطلاق ، أو يذكر موضوع محمود صقر على لسانه ، وحذرهم من السخط أو إظهار أى شعور عدائى ، لأن الأوامر صريحة بالقبض على كل من تسول له نفسه الدخول فى أحاديث تمس هذا الموضوع من قريب أو بعيد ، وأى «مشاغب» سوف يبلغ عنه ، ومن ثم يلحق بمحمود وأبيه ..

وعاد الشيخ بعد يومين كابيًا حزينًا حليق الذقن .. وتهامس الناس «حليق الذقن ؟؟ يا للكارثة !!» وارتسمت على وجوههم علامات الاستفهام ولم يجرؤ على سؤاله أحد سوى زوجته التى ضربت على صدرها فى استغراب وقالت «يا ندامتى !! لماذا فعلت ذلك يا أبا محمود ؟» سالت الدموع على الخد الأعجف المغضن ، وتمتم الشيخ : «لا حول ولا قوة إلا بالله .. أمروا أحد المخبرين السريين بحلقها لى

رغم أنفى .. قلت له : هذا حرام .. هذه سنة عن رسول الله ، وأنا رجل كبير .. ولم يكترث لتوسلاتى .. قال لى هذه (فقهنة) .. شعرت على الفور أنهم قوم لا يستحيون من الله ، ولا يحترمون كرامة الإنسان ، ويكرهون الرجل المؤمن .. الشكوك تساورنى يا أم محمد .. أخذونى إلى جميع الأقرباء ليفتشوا عن محمود الهارب .. لاحظت أن التفتيش لم يكن جديًا .. كان مجرد إجراء شكلى بحت .. قلبى يحدثنى أن ما يفعلونه مجرد تمثيلية رخيصة ساقطة .. تساءلت : ما معنى ذلك ؟؟ قلت لنفسى أن وراء الأمر سرًا لا أعرفه .. وكيف يهرب محمود من السجن الحربى وحوله الأسوار العالية ، والأسلاك الشائكة ، والجنود المدججون بالسلاح ليل نهار ؟؟ إنه أمر محير !! الله وحده يعلم .. أنا لا أفكر فى لحيتى الآن ، فغدًا ينبت شعرها من جديد .. لكن ما أفكر فيه هو محمود ..» .

ووضعت الأم المسكينة يدها على خدها المبلل بالدموع ، وأخذت تنظر إلى الفضاء اللامحدود ، ولا تكاد ترى أمامها سوى شبح محمود الغالى الحبيب الذى كان دائمًا مطيعًا محبًا لكل الناس .. وغمغمت بحزن :

– «أشعر أنه قريب منى .. أحيانًا أراه أمامى .. أعرف أنها خيالات وأوهام لكنه لا يفارقنى .. إننى أعتقد– لا أدرى لماذا– أن محمود قد ترك السجن الحربى .. قد يكون مختبئًا فى الحقول .. أو لاجئًا لأحد المساجد .. أو لعله هنا فى البيت .. أم تراه هنا فى مخبأ سرى تعرفه (أمل ؟؟) لماذا لا نسأل (أمل) .. ما رأيك ؟؟ » .

قال الشيخ وهو يجفف دموعه :

– «ما زلت تحلمين ..» .

وسادت فترة صمت قالت الأم بعدها :

– «يا شيخ أحمد .. اسمعنى .. لماذا لا تذهب إلى الرئيس نفسه وتشرح له الأمر لعله قلبه يرق لحالنا وهو لو عرف حقيقة محمود

لوضعه فوق رأسه ، إنه زين الشباب ..» .

– « أنا لا ألجأ لغير الله ..» .

– « أعرف .. لكن الله لم يسجنه .. الذى سجنه هو السلطان ..» .

قال الشيخ :

– « استغفرى الله .. كل شىء بأمر الله ..

– « وهل يرضى الله أن يُظلم محمود ؟؟ » .

– « الله اسمه العدل .. فكيف يرضى الظلم لعبيده ؟؟ » .

– «لم أعد أستطيع أن أفهم .. الأشرار يحكمون ويمرحون .. والأحياء يساقون إلى ظلمات السجون ، فكيف تفسر هذا ؟؟ » .

هبَّ واقفًا ، وشدَّ عوده المنحنى ، ودق الأرض بعصاه وقال :

– « إذا أحب الله عبدًا ابتلاه ..» .

قالت :

– « لماذا ؟؟ » .

قال :

– « امتحان ..» .

– « امتحان ؟؟ » .

– «نعم ، ومن ينجح يدخل الجنة .. والدنيا رحلة عابرة .. لحظات .. حلم نائم .. ثم يأتى بعدها الحياة الأخرى الحقيقية .. حيث الخلود والنعيم .. لعباده المؤمنين .. فلماذا نخاف وتزيغ قلوبنا ؟؟ الدنيا بكل ما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة .. قومى إلى صلاة العصر يا امرأة .. فليس لنا من عدة أو سلاح سوى التقرب إلى الله بطاعته .. ومحمود وديعة بين يدى من لا تضيع عنده الودائع ..» .

وأجهش الرجل باكيًا من جديد ..

قالت الأم وهى تنظر إلى زوجها فى دهشة :

– « لماذا تبكى ؟؟ » .

– « لا أعرف .. كل ما يمكننى قوله هو أننى أشعر بحنين طاغ إلى

لقاء المولى- عز وجل-.. من عرف الله حق المعرفة اشتاق للقياه ..».

ثم أخذ الشيخ يتطوح برأسه يمنة ويسرة، وقد أغلق عينيه الدامعتين ويترنم بأبيات من الشعر منسوبة لرابعة العدوية:

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وياليت ما بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب
فإن صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب

وأطلقت الأم صرخة عالية وهى تقول:

- «ولدى مات ..».

لم يلتفت الشيخ إليها: وظل يكرر الأشعار مغلق العينين والدموع على خديه، وهرول الناس من كل صوب عند سماعهم صرختها، وملأوا ساحة الدار الواسعة، وتجاوبت مع الصيحة طيور البيت وحيواناته، وبدت الحيرة فى العيون، وقال «القبانى» المعروف بذكائه ودهائه واطلاعه على الصحف اليومية:

- «هل جاءت أخبار جديدة ؟؟».

لكن الشيخ أحمد لا يجيب، إنه ما زال يطوح رأسه يمنة ويسرة، ويردد الأشعار الصوفية:

أحبك حبين: حب الهوى
وحبًا لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأمـــا الـــذى أنـــت أهـــل لـــه
فـكـشـفـك لـى الحجـب حـتـى أراكـا

وساد الصمت المقدس ، وخيم جو من الحزن الغريب ، وغمغم رجل طيب « الشيخ واصل » وفهم الحاضرون ما تعنيه هذه الكلمة من شدة القرب من الله، وصفاء الروح، والانسلاخ عن مفاتن الدنيا وبهارجها ، أما « القبانى » فقد همس :

« أخاف أن يكون الشيخ قد أصابه مس من الجنون .. إن الكارثة لا تحتمل .. لقد عرفت أن من يقتلوه فى السجن الحربى يزعمون أنه هرب .. اللهم اكفنا شر هذا الزمان .. إنها فتنة لا يعلم إلا الله مداها ..» .

ووقف الناس حائرين ، إنهم لا يدرون ماذا يفعلون ، هل يقدمون العزاء ، كيف ؟ ليست هناك أخبار مؤكدة ، هل ينصرفون ؟؟ لكن الرجل المسكين الذى ظل يعلمهم ويرشدهم ويفتى لهم طوال ستين عامًا فى حالة يرثى لها ، فكيف يتركونه على هذه الحال ؟؟

ولم يخرجهم من حيرتهم إلا صوت شيخ الخفراء الذى قدم مهرولاً وقال بصوت أجش آمرًا :

– « انصرفوا إلى بيوتكم .. والله لو علمت الحكومة بما يحدث الآن لأشعلت النيران فى القرية وأبادتها عن آخرها .. استحيوا يا أهل (منية البندرة) وكونوا عقلاء ..» .

ولما لم يتحرك أحد ، عاد شيخ الخفراء يقول :

– « إن كنتم تحبون الشيخ أحمد، وتريدون أن تفرجوا عن محمود ، فلتطيعوا الأوامر ، فالضرر وأخيرًا لن يصيب غيره ..» .

ونظر المحتشدون إلى شيخ الخفراء ، إنه واحد منهم ، ويرون على وجهه علامات الأسى المكبت ، ويدركون عن يقين أن قلبه معهم ، وإن كان يحمل سلاح الحكومة وينفذ أوامرها الطائشة ، وتسرب الناس

واحدًا إثر آخر .. وخلا البيت أو كاد .. ولفه سكون غامض يشع رهبة وعذابًا ..

وتوقف الشيخ عن الإنشاد، ثم جفف دموعه، وحوقل واستغفر الله، ثم نظر بعينيه الكليلة إلى زوجته قائلًا :

– «لقد مات ..» .

صرخت في ذعر :

– «ولدى ؟؟» .

أسرع قائلًا :

– «لا .. إن ولدك لا يموت .. الذى مات هو الشيطان ..» .

وابتلع ريقه قائلًا :

– «إن من يستبيح دماء الأبرياء، والحرمات، ويتحدى إرادة المولى يصبح فى عداد الأموات .. وإن كان يدب على الأرض ويأكل ويشرب، ويخطب على المنصات العالية، وتصفق له الحشود ..» .

قالت الزوجة فى غضب :

– «ليذهبوا جميعًا إلى جهنم فأنا أسأل عن ولدى ..» .

– «هو حى يرزق ..» .

– «الله يطمئن بالك يا شيخ ..» .

وأخذ الشيخ أحمد يتلو :

– «﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ ..» .

حاولت أن تفهم ما يقول فلم تستطع، إن الأمور تزداد غموضًا وإظلامًا أمام ناظريها، وشعرت أم محمود بالإنهاك والتعب، فاضطجعت على حصيرتها، لكنها تذكرت أن زوجها لم يقرب الزاد حتى هذه اللحظة، قالت بصوت خفيض :

– «ألا تأكل ؟؟» .

– « تكفيني جرعة ماء » .

– « هل أطعموك هناك .. في دار الحكومة ..» .

– « أطعموني ؟؟ نعم .. شربت الكأس حتى الثمالة كما يقولون .. وخير الزاد التقوى يا امرأة ..» .

ونامت القرية الصغيرة في ضوء القمر ، كانت ترقد على صدر الخضرة كبقعة سوداء .. ونعيق بومة يمزق السكون .. والديكة كفت عن الأذان .. وامتلأت السماء بالخفافيش .. والذئاب تعوى جائعة وسط الحقول المترامية، وصفير القطار ينطلق في الأوقات المحددة .. وقبيل الفجر ، انطلق صوت الصوفي الفقير نديًا مؤثرًا في الحارات والأزقة :

يـــا نـــائـــمًـــا كـــيـــف المنـــام يـــطـــيـــب

الموت حـــق والـــفـــراق صـــعـــيـــب

وخرج الشيخ كعادته عند مطلع الفجر ليؤم الناس في الصلاة ..

لكن الشيء الغريب الذي حدث ستبقى تردده القرية عشرات السنين .. فقد نوى الشيخ للصلاة ، وكبّر ، ثم أخذ يتلو فاتحة الكتاب ، ثم تبعها بآية الاستشهاد .. وصمت .. وطال الصمت .. ولاحظ الواقفون في الصف الأول أن الشيخ جلس فجأة دون أن يركع .. ثم مال على جانبه الأيمن .. وأخذ يستشهد .. وتقدّم نحوه بضعة نفر .. ثم نظروا في وجهه .. وقال واحد منهم :

– « لا حول ولا قوة إلا بالله .. لقد لقي الرجل مولاه وهو بين يديه يؤدي الصلاة ..» .

وساد الهرج والمرج على ضوء ذبالة الضوء الواهنة التي تضيء المسجد الصغير .. واختلطت التكبيرات بالبكاء ، وعمّت الدهشة الحضور .. قال « القباني » :

– «لقد ودع الشيخ عالمنا التعس .. وهو في أشرف بقعة .. في

ضيافة الرحمن.. يا أهل منية البندرة.. أقيموا للرجل الصالح ضريحًا.. واكتبوا على شاهده «هذا بقية السلف الصالح ..».

وصحت القرية عن بكرة أبيها، وغص المسجد بالناس، كل يريد أن يقبّل الشيخ ويلتمس البركات، ويلقى النظرة الأخيرة، وسرى النبأ إلى القرى المجاورة، وتدفق الناس من كل صوب وحدب، وكأنهم فى موكب للحجيج، وانسالت أفواج الطرق الصوفية حاملة البيارق الخضراء والأعلام، يدقون الطبول، وينشدون الأناشيد الصوفية، وأصبح فى القرية حشود هائلة لم تحدث فى تاريخها الطويل، وهرع الناس إلى أجمل بقعة وسط الحقول، وأخذوا يشقون الأرض بالفؤوس، ويضعون أساس بناء الضريح، لم يكونوا يفكرون فى أن الأضرحة ليست من السُنَّة، كان ما يفعلونه مجرد تعبير عفوى عن الحب والولاء لرجل عشقوه بمحض إرادتهم وهو لا يملك مالًا يذكر، ولا سلطانًا ماديًا، ولم يتقلد طول حياته منصبًا حكوميًا بارزًا، بل عاش واعظًا فلاحًا، لكن حبهم له كان أقوى من كل الدنيا .. وفجأة سُمعت أصوات الطلقات فى أجواء القرية، وتلفت الناس، لقد جاءت حشود كبيرة من العسكر، وأخذوا يلهبون الخلق بالسياط، وقبضوا على البعض وساقوهم إلى عرباتهم الحكومية.. وسرعان ما تفرق الناس فى كل الأنحاء، وانطلقوا فى الحقول الخضراء الواسعة .. وعادت الرهبة والسكون والغضب المكبوت.. وحمل نعش الفقيد أربعة من الخفراء يحرسهم العسكر.. ودفن الشيخ أحمد فى مقابر الأسرة.. كانت جنازة عسكرية بحتة..

وانطلقت الشائعات فى كل مكان عن كرامات الشيخ، وأخذ الناس يروونها ويتناقلونها فى إعزاز وإعجاب، والصوفى الفقير أخذ هو الآخر يؤكد لهم أنه رأى المعتقل محمود صقر يشارك فى حمل أبيه لوضعه فى النعش، وبعضهم يؤكد أن أقوامًا غرباء أحاطوا بالميت من كل جانب ويفسرون ذلك بأنهم لا شك من ملائكة السماء، لأنه لم

يستطع أحد أن يتعرف على شخصياتهم .. وكان الزائرون يفدون كل مساء لزيارة القبر ، ويُقَبِّلون ترابه ، ويسكبون الدموع .. مما اضطر السلطات لفرض حراسة عليه لمدة أسبوعين ، وكانوا يسوقون كل من تسلل زائرًا إلى حجز القسم كى يتلقى العقاب الرادع ثم يفرجون عنه ..

ولم يعد الناس يذكرون اسم الشيخ أحمد صقر إلا ويسبقونه بلقب « ولى الله ..» .

الفصل ٢٨

ومرت الأيام والليالى على السجن الحربى، وهو يطفح بالأسى والعذاب، والشهداء يتساقطون واحدًا إثر آخر، والزبانية قد ألفوا العسف، وأجادوا استعمال السياط، كانوا يتفننون فى الإيذاء، ويتسابقون فى إلحاق الأذى بكل معتقل، وعطوة الملوانى يزداد جحودًا وتجبرًا، وفى كل يوم يأتى إلى السجن إيراد جديد، والطغيان يستشرى ويمتد، وانتشرت أخبار الإرهاب العسكرى فى كل مكان، وانعكس ذلك كله على تصرفات الناس وسلوكهم فى كل مدينة وقرية، وكان أغلبهم يعتصم بالصمت ويخاف أن يناقش ذلك الانحراف مع أسرته أو أصدقائه، وأصبحت خطب المساجد توزع من قبَل الحكومة على الخطباء الرسميين حتى لا يتناول أحدهم موضوعًا من الموضوعات المحرمة، وما أكثر تلك الموضوعات، وامتلأت كتب المناهج الدراسية بالتسبيح باسم الحاكم وبطانته، ولُقِّن الصغار الأناشيد الحماسية التى تمجده، وتضعه فى مصاف الآلهة، وأنشىء للحكومة حزب جديد، احتشد فيه خلاصة المنافقين والانتهازيين والمخدوعين، كما ضم إليه خلق كثير بحكم وظائفهم، أو خوفًا من اتهامهم بالسلبية أو انتمائهم للثورة المضادة، كما سارع إليه آخرون ليحموا مكاسبهم، ويحافظوا على أوضاعهم الاجتماعية والسياسية أو الوظيفية، واختفى من الساحة السياسية كل من حام حوله الشك، أو تجرأ على إبداء رأى معتدل برىء، وطفح على صدر الصحف أسماء جديدة لا تتصف بأية أصالة فكرية، أو سابقة جهاد قديم ضد الصهيونية والاستعمار، لقد تشوه وجه الحياة فى مصر، واختلت

القيم والمعايير ، وأصبح الاعتصام بالمبادىء الأصلية ، والقيم العليا ضربًا من الهوس والحماقة والسذاجة، ولجأ الناس إلى سلاح «النكتة» الشعبية يعبرون بها عما يعتمل فى نفوسهم من حنق ورفض، وكانت النكات تتناقلها الألسن خفية وكأنها مخدرات أو عملة صعبة يحرم تداولها ، وكان الناس يضحكون من أعمق قلوبهم ، وهم يستمعون لهذه النكات اللاذعة، وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى عجزت الحكومة من مقاومته، ولجاكثير من الناس إلى الاعتزال والوحدة إتقاءً لشر الفتنة، وكان الله وحده الذى يستطيعون أن يتجهوا إليه بشكواهم ودعائهم ومظالمهم وحاول البعض أن يهرب بعقيدته إلى خارج البلاد، سواء إلى أوربا وأمريكا أو فى بعض البلدان العربية، وبعضهم ذهب فى بعثات إلى الخارج ولم يعد، أو سافر ليؤدى فريضة الحج ثم هرب إلى دنيا الله الواسعة.. واشتد الضيق بالناس، وكانوا يرددون دائمًا لا ملجأ من الله إلا إليه..

أما والد نبيلة عبد الله، فقد عاد إلى بيته بعد أن خرج من المستشفى على أن يغير من أسلوب حياته بعد النوبة القلبية الأولى التى مرت به وكان عليه أن ياكل طعامًا معينًا ، وأن ينام مبكرًا ، وينأى بنفسه عن الأعمال المجهدة، والانفعالات النفسية الحادة، وإلا تعرضت حياته للخطر .

وأصبح أهلها وذووها فى خوف دائم بعد الكتاب الذى نشرته عن مدرسة الإرهاب الذى يجثم على قلب مصر، ووضعت الأسرة كلها تحت المراقبة، وأصبح استدعاؤهم لمبنى المباحث العامة والمخابرات أمرًا مألوفًا فى أى وقت، كما منعوا فى الاشتراك فى أى نشاط اجتماعى أو سياسى ، وطُبقت عليهم قوانين «العزل السياسى» التى طُبقت على الكثيرين من أبناء الشعب، وخاصة أولئك الذين حفلت حياتهم بالعمل الوطنى المشرف، أو حققوا نجاحًا مرموقًا فى عالم

الفكر والاقتصاد .. وبعض أقارب نبيلة فصلوا من الكليات العسكرية دون ذنب جنوه ، ولم يرتكبوا وزرًا سوى قرابتهم التى لا دخل لهم فيها من أسرتها ، حتى أخذ الناس يتبرئون منهم ، ويهربون من لقائهم ، ولا يقبلون زيارتهم ، حتى لكأن منزلهم أصبح مستعمرة للجزام .

وحينما ذهب مبعوث نبيلة وعبد العزيز السيسى إلى مصر أخذ يبحث عن سلوى وابنها صابر ، لكنه لم يعثر لها على أثر فى بيتها ، وأخذ يجمع المعلومات من هنا وهناك ، حتى صدم بالحقيقة المؤلمة ، لقد أجبروها على طلب الطلاق من زوجها ، أو أرغموها بأن تكتب الافتراءات والأكاذيب عن زوجها ، وفرقوا بينها وبين ولدها صابر ، ولاحقوها بأبشع التهم والأكاذيب عن زوجها ، وأشاعوا عنها الخيانة .. والإثم .. والفجور ، ولم يتركوها فى يوم من الأيام دون تفتيش ، أو اعتقال أو تعذيب .. حتى أصابها اليأس ، ولم تعد تستطيع النوم ، وعافت الطعام والشراب ، فكأن أن انهارت أعصابها ، وأصيبت بحالة يرثى لها من الجنون .. فكانت تمشى فى الشارع تحدث نفسها ، وتبكى وتضحك ، ولم تعد تهتم بمظهرها فتلبس الثياب الممزقة القذرة ، وتمشى حافية ، وتترك رأسها عارية ، وشعرها مهملًا .. وذات صباح قدمت سيارة حكومية ، ثم نزل منها اثنان وألبسوها «قميص الجنون» وهو بلا أكمام ثم ساقوها إلى عالمها الجديد وهى تقهقه وتبكى وتهتف باسم صابر .. فشيعها الناس بالدموع الصامتة الخفية ..

وعندما فكر مبعوث نبيلة فى زيارتها بمستشفى الأمراض العقلية ، أفهمه بعض المخلصين أن فى ذلك مخاطر كبيرة ، لأنها تحت الحراسة المشددة هناك ، وكل من يزورها يجب أن يأخذ تصريحًا من وزارة الداخلية وفى ذلك ما فيه من مغامرة خطرة قد تودى بصاحبها إلى السجن ..

قالت أم نبيلة لزوجها وقد انتصف الليل ، ونام كل من فى البيت :

– «لماذا لا نرحل عن هذه الديار ؟؟» .

قال عبد الله وقد اغرورقت عيناه :

– «الوطن غال يا زوجتى ..» .

– «ما معنى الوطن ؟؟ أنعيش فى ذل ورعب .. ثم تحدثنى عن الوطن ..» .

– «اهدئى يا امرأة .. فإن ما يحدث اليوم خلل طارئ .. لا دوام لشىء إلا لوجه الله .. الحاكم يقوى ويتمرد ويفرض سلطانه مؤمنًا أن ذلك هو الصواب .. لكنه ينسى أن سُنَّة الحياة تجرى عليه .. وأنه سيشيخ ويموت .. وينسى أن الصواب ليس حكرًا على فرد .. وأن الله وحده هو الحق .. وأن هناك ملايين من البشر قد أوتو عقلًا أكثر منه عمقًا وصدقًا .. ويا ويل من يقع بين براثن الغرور ..» .

قالت الزوجة فى امتعاض :

– «أصابنى الملل ..» .

– «الصبر جنة المظلومين ..» .

– «لقد قاطعنا الناس ..» .

ابتسم وشرد بنظراته بعيدًا وقال :

– «أقسم لك أن الناس يشدون على يدى فى حماسة وحب ويقولون بلِّغ السلام «لست الكل» نبيلة حماها الله ورعاها .. تصورى أن هذه الهمسات هى أروع وسام نضعه على صدورنا ..» .

لوحت بيدها فى غضب قائلة :

– «وما قيمة هذه الهمسات ؟؟ ولماذا لم يفعلوا مثلها ..» .

طأطأ رأسه فى أسى وقال :

– «الناس يعانون من مصائب جمة ، وليسوا على استعداد لمزيد من الكوارث ..» .

ودارت الزوجة بنظراتها فى أنحاء الغرفة الهادئة وقالت :

– «كثيرًا ما ساءلت نفسى : ما السبب فى كل ما جرى ؟؟» .

– « الصراع أبدى دائم يا امرأة ..» .
– « لا .. إننى أقول بأن معرفتنا بعطوة الملوانى كانت هى بداية المتاعب ..» .
– « وهل كل المضطهدين عرفوا عطوة ؟؟ » .
– « لا أعرف ..» .
هزَّ رأسه كحكيم أرهقته الأحداث والسنون وقال :
– « ومن يدرى ؟؟ لعل هذا بداية الخير ..» .
أشاحت بيدها مستنكرة وقالت :
– « والنبى تسكت .. خير !! من أين يأتى الخير ..» .
– « السماء لم تزل تمطر ، والأرض تجود بالزرع .. والرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : « الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة ..» » .
وسادت فترة صمت قالت الأم بعدها :
– « الوطن هو الحب والأمن والأمل والعدل .. وعندما تختفى هذه الأشياء فلا معنى لكلمة وطن ..» .
سعل ثم قال :
– « لا تتعبى نفسك ، فلن يسمحوا لنا بالرحيل إلى أى أرض .. لقد أصبحت أسرتنا بكاملها فى « القائمة السوداء » ..» .
– « وما معنى القائمة السوداء ..» .
– «معناها المشبوهون .. الممنوعون من السفر خارج الدولة ..» .
– « بأى قانون ؟؟ بأى حق ؟؟ » .
– « لا تتحدثى عن الحق والقانون .. لقد طلبت السفر للحج فقالوا : لا تُتعب نفسك .. ممنوع ..» .
دقت على صدرها فى فزع وقالت :
– « حتى بيت الله ؟؟ الفريضة ؟؟ هذا افتراء » .

– «مصلحة أمن الدولة فوق كل اعتبار ..» .
بصقت فى ازدراء وقالت :
– «لا تذكر هذه الكلمات فإنها تصيبنى بالغثيان ..» .
لكنه أمسك بيدها فى سعادة وقال :
– «لقد أرسلت خطابًا لنبيلة ردًا على خطابها » .
– «مع من ؟؟» .
– «مع الرجل القادم من الكويت الذى لم يفصح عن اسمه ، والذى سلمنا رسالتها فى الأسبوع الماضى ..» .
دمعت عينا الأم وقالت :
– «يا حبيبتى يا ابنتى .. وهل تغنى الرسائل عن مشاهدة وجهك الحلو ..» .
– «لا تحزنى .. فغدًا نلتقى ..» .
– «متى ؟؟» .
– «الجواب عند الله ..» .
ثم استدار إليها فجأة وقال :
– «هل مزقت خطابها ؟؟» .
– «أنا ؟؟ كيف ؟؟ إنه قطعة منها .. فكيف أمزقه ؟؟» .
قال :
– «اعقلى يا امرأة .. لو أمسكت به المباحث لوقعنا فى مصائب لا حصر لها ..» .
– «اطمئن فلن يعثر عليه أحد ..» .
– «وما قيمة هذه الأوراق ؟؟ لا تتمسكى باشياء تجلب علينا المتاعب .. فلو أمسكوا به لقالوا من أوصله ؟؟ وكيف ؟؟ وصنعوا من ذلك قضية جديدة ، وسموها خيانة وطنية وجاسوسية وتآمر ..» .
– «لا تتعب نفسك .. فلن يعرف مكانه الجن الأزرق ..» .
اضطجع على سريره ، واسترخى ، ثم أغفى .. وبقيت أم نبيلة

جالسة تفكر، ومن آن لآخر ترفع أكف الدعاء إلى الله، وتشكو إليه ظلم العباد، والطغيان الذى لا يرحم، وأفاق عبد الله من إغفاءته فجأة، ونظر حواليه وهو يتمتم: «خير إن شاء الله .. خير إن شاء الله ..»، ونظرت الزوجة إليه وهو يمسح على وجهه ولحيته، وهمست :

– «وماذا ؟؟» .

قال وهو يشير بيده مؤكدًا :

– «لكأنه حقيقة .. أى والله يا أم نبيلة .. رأيتها فى منامى تعانقنى فى حرارة .. وتقبّل رأسى ووجهى ويدى .. وكنا نبكى من شدة الفرح، والفرح فى المنام تفسيره الفرج يا أم نبيلة .. وتكلمنا كثيرًا ..» .

وتنهدت الأم وقالت :

– «وكيف عبرت الحدود والشياطين يقفون لها بالمرصاد ؟؟» .

عاد يهز يده فى حماسة :

– «لا تسخرى منى يا امرأة ..» .

– «دائمًا نحلم .. حياتنا كلها أصبحت أحلامًا ..» .

– «هذا من رحمة الله يا أم نبيلة .. أقسم لك أنى صحوت من نومى وأنا أشعر بكامل السعادة .. لقد ارتويت .. كنت أشعر بظمأ شديد لرؤياها ..» .

وقفت، ثم توكأت على عصاها وقالت :

– «عطوة الملوانى يهددنا دائمًا ويقول أننا سندفع الثمن غاليًا ..» .

– «لماذا تفكرين فى هذا المجرم ؟؟» .

– «أخاف أن يقتلها ..» .

– «إنه لا يقتل إلا السجناء العزل ..» .

– «وابنتك ماذا تملك من سلاح .. ؟» .

- «تملك الآن الحرية .. والكلمة الشجاعة .. وبهذا تستطيع أن تفتك ..» .

خطت إلى الخارج فى تباطؤ وهى تردد :

- «ما زلت سادرًا فى أحلامك ..» .

وتألمت الأسرة أشد الألم عندما علموا بنبأ مغادرة نبيلة للكويت ورحيلها إلى تركيا ، لقد بلغهم الخبر خفية بواسطة رسالة تسلمتها إحدى صديقات نبيلة من زميلة لهما تعمل فى الكويت ، واستبد القلق بالأب المسكين ، وبكت الأم فى حرارة ، لقد أدركوا أن طغيان الظلم يستطيع أن يمد يده إلى بعيد .. خارج الحدود .. وأن يلاحق أعداء النظام بالمنغصات والمكائد ، لقد ظنوا فى البداية أن إفلات ابنتهم من يد الجهاز البوليسى القاسى سوف يضمن لها الراحة ، ويحقق لها الأمن ، وها هى النتيجة ، أيمكن أن يكون الصدام مع الفساد ، ومجابهة الظالم بكلمة الحق حماقة من الحماقات ؟؟

وعادت الأم للبكاء والنحيب ، وركن الأب للصمت ، لكن إلى متى يظل صامتًا ؟؟ يجب أن يقول شيئًا ، على الأقل لتهدأ الأم المسكينة ، ويرتاح بالها ولو لقدرٍ بسيط ، تنحنح ثم قال متصنعًا الجد :

- «يا زوجتى لا تنزعجى .. إن ابنتك ليست وحدها ..»

- «من يواسيها فى غربتها يا عبد الله ..» .

قال بصوت قوى :

- «خالقها سبحانه .. كلنا عبيده ..» .

ولما لم تجب استطرد قائلًا :

- «وابنتك معها خلق كثير من الرجال الأشراف أصحاب المبادئ ، وهم منتشرون فى كل أنحاء الدنيا ..» .

- «حتى فى تركيا يا عبد الله ؟؟» .

- «نعم فى تركيا .. أنسيت أنها بلد الخلافة الإسلامية

الزاهرة؟؟» .

– «لا أعرف شيئًا عن ذلك ، ولكنهم حسب ظنى يتكلمون بلغة غير لغتنا .. وليس لنا فيها أقرباء ولا معارف ولا ..» .

قاطعها قائلاً :

– «ابنتك متعلمة وناضجة ، وتعرف كيف تتصرف ..» .

شردت إلى بعيد وقالت :

– «الدنيا واسعة يا عبد الله .. والغربة غدارة .. والوحدة مُرَّة .. ولا تنس أنها ليست رجلاً .. هى بنت يا حبة عين أمها ..» .

قهقه عبد الله عاليًا وهو يقول :

– «أفيقى يا امرأة .. النساء الآن يحملن السلاح ، ويخضن الحروب ، ويتقلدن مناصب الوزارات .. صدقينى قد تكون هناك امرأة بألف رجل .. النساء اليوم غيرهن فى زمننا الغابر ..» .

تمتمت قائلة :

– «رحم الله أيام زمان مضى .. المرأة للبيت ، ولا دخل لها بالسياسة ولا المتاعب .. ليتها كانت مثلى ..» .

– «هذا أمر لا حيلة لنا فيه يا امرأة .. والدنيا فى تطور دائم .. والعلم نور ..» .

– «لم يجلب علينا علمها غير الأحزان ..» .

وأذَّن الفجر فى مسجد قريب ، وسارا صوب دورة المياه للوضوء ، وكان السكون يغلف المكان ، والقلوب تضرع إلى الله ، وبعد دقائق قليلة كان عبد الله يؤم زوجته فى الصلاة ، وعند القنوت كانت الدعوات تنطلق خالصة صادقة تدق أبواب السماء ، والأم تردد من خلفه كلمة «آمين» مبللة بالدموع المقدسة ..

❁❁❁

قال رزق إبراهيم والكمد الشديد يرتسم على وجهه الأسمر اللامع :

- «لقد طفح الكيل، ولا يمكن أن تمضى الأمور على هذا النحو لأمد طويل ..» .

قال عبد الحميد النجار، وقد بدا عليه التحسن، بعد أن استعاد شفائه الجسدى والتئمت جراحه الكثيرة :

- «دع الزمن الآن ..» .

- «لماذا ؟؟» .

- «لأن الصراع قد يطول ..» .

شرد رزق إبراهيم وقد نصب طوله الفارع، وشد عنقه صوب النافذة الصغيرة داخل الزنزانة وهتف :

- «إننى واثق إن شاء الله، أنه سيأتى اليوم الذى يساق فيه عطوة الملوانى وزبانيته إلى هذه الزنازين نفسها.. لكنهم لن يكونوا مثلنا ..» .

ردّ عبد الحميد قائلًا :

- «كيف ؟؟» .

- «نحن ندافع عن قضية عادلة، ولنا مبادئ تظللنا بظلها الحنون فى أوقات الهجير الحارقة، أما هم ..» .

قاطعه عبد الحميد مردفًا :

- «هم أيضًا يعتقدون أنهم أصحاب مبادئ ..» .

- «مستحيل.. هم من فئة المرتزقة، وعندما يسقطون ويحاسبونهم قضاة الشعب الحقيقيون، سيدركون على الفور أنهم انطلقوا من فراغ، سيعذبهم الضياع، ويؤرقهم الندم، وهذا أبشع من الموت نفسه، ولا عجب أن ترى بعضهم آنذاك يلجأ إلى الانتحار ..» .

وتمتم معروف الحضرى الذى لوحظ اعتصامه بالصمت فى الآونة الأخيرة :

- «دم محمود صقر وإخوانه لن يذهب هدرًا ..» .

ردّ الشاعر يوسف :

– «إنهم فى رحاب الله الآن، وقد لاقوا الجزاء الأعظم، وهم ينظرون الآن إلى الدنيا وأهلها نظرة إشفاق ..».

وتراص الرجال فى ساحة الحربى الواسعة، ووقفوا طوابير ثلاثية منظمة، وحضر المدعى العام وعطوة الملوانى وغيره من الضباط والعساكر والكلاب، ووقف عطوة خطيبًا، وشرح لهم كيف أن المحاكمات سوف تبدأ بعد غد، وأن كلًا منهم سوف يتسلم الادعاء المقام عليه، وسيقوم كل منهم بالتوقيع على محضر التحقيق من جديد، وحذرهم من الامتناع أو إنكار أى كلمة مكتوبة فى محضره، وكل من يحاول أن يذكر «للقاضى» أن الاعترافات قد نُزعت منه بالإكراه، أو يزعم أنه قد عُذب، فسوف يلقى الجزاء الرادع، ثم إن ذلك لن يغير من النتيجة فى شىء، فالأحكام موضوعة مسبقًا، وحتى القاضى نفسه لا يستطيع أن يغير فيها، كما أفهمهم أنه لا مجال لتوكيل محامين للدفاع عنهم، فالمحاكمة سرية وسريعة، ولا داعى لضياع الوقت والمال دون فائدة، وبطبيعة الحال أكد لهم أن الحكومة لا تظلم أحدًا، وأن الرئيس يوصى دائمًا بأن يعطى كل ذى حق حقه، وعاد يؤكد على أهمية سرعة المحاكمة حسب الأوامر العليا، فلن تستغرق محاكمة كل فرد أكثر من بضع دقائق قليلة، لأن كل شىء محدد ومعروف، والاعترافات جاهزة، والباقى مجرد مسألة روتينية بحتة، وبعد صدور الأحكام سوف يصنف المتهمون إلى فئات، والبراءات فى مكان وأحكام إيقاف التنفيذ فى مكان ثان، وأحكام السجن لها جناح خاص، والأحكام الشاقة مجموعة منفصلة، والإعدام فى زنازين انفرادية، ويجب أن يفتح كل متهم أذنيه جيدًا حتى يسمع الحكم الصادر فى حقه، وبعدها سوف يرحل المحكوم عليه بالسجن والأشغال إلى السجون المدنية، ولن يبقى فى الحربى إلا المعتقلون دون محاكمة، وكذلك البراءات وأحكام إيقاف التنفيذ الذين سينضمون إلى المعتقلين، لأنه لن يفرج الآن عن أى واحد ..

وأخذ أحد الضباط ينادى المتهمين فردًا فردًا ، ثم يسلم له الادعاء أو الاتهام الموجّه ضده ، وبعدها يوقّع على المحضر ، ثو يوقّع مقرًا باستلام الادعاء ، وهناك توقيع آخر يقر فيه المتهم بأن الاعترافات جاءت بمحض إرادته دون إكراه نفسى أو بدنى ، وكان بعض المتهمين لا يستطيع التوقيع بسبب إصابات جسيمة فى أيديهم ، فيمسك « الصول » بأيديهم العاجزة بعد أن يضع القلم بين أصابعهم ويحرك اليد واضعًا الاسم ..

وعاد المحبوسون إلى زنازينهم ، وكل واحد يحمل الادعاء المقام عليه ، كانت الادعاءات تكاد تكون متشابهة أغلبها يقول : « .. إنه فى غضون شهر كذا عام كذا أتى أفعالًا ضد نظام الحكم بالقوة ..» ، وفى ادعاءات أخرى كان مكتوبًا : « اشتراك فى جهاز تمويلى سرى بقصد الاضرار بمصالح البلاد وقلب نظام الحكم بالقوة ..» . مع أن الأمر لم يكن يعدو جمع التبرعات لأسر المعتقلين أو المسجونين الذين فقدوا مصادر رزقهم وخاصة التجار وأصحاب المهن الحرة الأخرى .. وقد كانت هناك ادعاءات طريفة أخرى حوكم أصحابها بسبب « نكتة » قالوها ، أو نقد عابر لوضع من الأوضاع السياسية ، أو تمنى موت الرئيس ، أو زيارة أسرة من أسر الإخوان وعرض العون الأخوى عليهم ..



الفصل ٢٩

وتفرق الأحباب في أماكن مختلفة، رزق إبراهيم صدر ضده حكم بالسجن عشر سنوات، ومعروف الحضرى أخذ حكمًا مع إيقاف التنفيذ، وعبد الحميد النجار عشر سنوات، والشاعر يوسف براءة، وتعانق الإخوان فى حرارة .. إنها لحظة الوداع، وسالت الدموع الطاهرة فى صمت ..

وقال الشاعر يوسف وهو يتصنع الابتسام :

– «على العموم السجون المدنية خير ألف مرة من السجن الحربى، ستجدون الراحة هناك، والمحكوم عليهم بالبراءة باقون جميعًا فى قبضة السجان، برغم اختلاف المكان .. ويوم أن يريد الله الفرج سوف نخرج جميعًا ..» .

وغمغم معروف الحضرى :

– «البلد كلها سجن كبير ..» .

قال رزق وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

– «طالبت بتوكيل محام للدفاع عنى، وإخطار السفارة السودانية بأمرى فردّ القاضى قائلًا : «بلاش فلسفة ..» وأخذ يسخر منى ويقول : «مصر والسودان بلد واحد ..»» .

أما عبد الحميد النجار فقد أردف :

– «قلت لهم أعيدونى لفلسطين، كى أشارك مع الفدائيين بدلًا من سجنى هنا .. وهناك قد أموت وأريحكم منى ..» .

رد رزق قائلًا :

– «وماذا كان الجواب ؟؟» .

– «تبادل الجالسون الابتسام على منصة العدالة .. ثم جرّنى العسكرى من قفاى إلى الخلف ..» .

وغمغم عبد الحميد قائلاً :

- «كانت المحكمة تكاد تكون خاوية .. القضاة .. والمدعى .. والكتبة .. والجرس .. لم يرنا أو يسمع بنا أحد من الشعب ..» .

ردَّ معروف قائلاً :

- «كان الله معنا وهو أقوى الأقوياء ..» .

وانطلقت الصفارات ، وحمل كل متاعه الضئيل ، وذهب كلٌ إلى مكانه الجديد حسب التصنيف ، وفى فجر اليوم التالى ، حشروا فى سيارات حكومية مغلقة ، نقلتهم إلى السجون المدنية فى «طرة» و«قره ميدان» أو سجن مصر والقلعة والواحات وأسيوط والمنيا وبنى سويف وتحرك الركب المقهور مكبلاً بالأغلال فى حراسة الأسلحة الأوتوماتيكية الرشاشة من ناحية «مقابر الخفير» ، والشمس لم تكن قد أشرقت بعد ، وفجأة هتف أحد الإخوان :

- « الله أكبر ولله الحمد ..» .

فانطلقت وراءه الأصوات الهادرة دون وعى مرددة الهتاف ، بينما ذهل الحراس الخارجون من السجن الحربى ، واستمر الهتاف يشق الفجر الساكن ، ويتصاعد إلى السماء الصافية :

الله غايتنا ..

والقرآن دستورنا ..

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ..

لا إله إلا الله ..

ولا نعبد إلا إياه ..

مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ..

يسقط الظلم ..

الحرية .. الحرية .. يا أعداء الإنسانية ..

الحرية .. الحرية .. يا أعداء الروحانية ..

وساد الصمت بعد فترة ، كان فى عيون لعض العساكر دموع ، إنه لأمر عجيب ، وأطل عليهم من الخلف ضابط مكفهر الوجه ، بيده مدفع رشاش ، وقال وهو يرتجف :

– « افهموا جيدًا أنه لا قيمة لهذه الهتافات ، ولن تعود عليكم إلا بالضرر .. أنتم من السجن وإلى السجن ، وما زلتم فى قبضة الحكومة .. وليس لحياتكم ثمن .. لدى أوامر صريحة أن أحصدكم بمدفعى هذا .. لكنى مشفق عليكم .. وأخاف عليكم ..» .

وركن الجميع إلى الهدوء ، وأخذ السجناء يتطلعون من خلال ثقوب العربات وشقوقها إلى الناس والمقابر والبيوت والأشجار ، إنهم لم يروا هذه المشاهد الغالية منذ فترة طويلة ، وبدت مآذن القاهرة بقبابها شامخة صامدة صابرة تحت غبش الصبح ، وأخذت الحياة تدب فى المدينة الكبيرة والطيور تمرح فى جو السماء ، وتبعث بأنغامها المميزة ، وبدأ جبل المقطم كصدر ضخم حنون يحتضن المدينة المتثائبة .

وعندما وصلت مجموعة منهم إلى سجن « قره ميدان » القريب من القلعة ، فُتح الباب ، ودلفوا إليه واحدًا إثر آخر ، يحيط بهم العسكر المدججون بالسلاح ، ثم أُغلق الباب عليهم ، وتنهد قائد الشرطة بعد أن ابتلعهم السجن فى ارتياح وقال :

– « الحمد لله ..» .

ثم التفت إلى عساكره وقال :

– « اسمعوا يا أولاد .. حذار أن يفتح أى واحد منكم فمه .. لقد انتهت مهمتنا .. ولا دخل لنا بشىء ..» .

قال جندى من شرطة المحافظة :

– « والله العظيم مساكين يا بك .. قلبى يتقطع .. شباب مثل الورد يا خسارة! آآ » .

- «انتباه يا عسكرى ..» .

وانتفض العسكرى كمن أصابه مس كهربى ، وشد عوده ، وأدى التحية فى حزم ، وهتف :

- «تمام يا فندم ..» .

- «قلت لكم ألف مرة أنا عبد المأمور .. ولا دخل لنا فى السياسة .. وما تعمله الحكومة هو الصحيح .. نحن وراءنا مسئوليات ، ولنا عيال .. حرام عليكم يا حيوانات ..» .

وأشعل الضابط سيجارة ، ثم لوح بيده فى ضيق وقال :

- «انصراف ..» .

وعاد يقول

- «قفوا أنتم هنا ، حتى أسلمهم السجناء فى الداخل ، وأجعل مدير السجن يوقّع بالاستلام .. الله لا يعيد مثل هذه المأمورية مرة أخرى .. أعوذ بالله ..» .

وارتدى السجناء ، بدل السجن الزرقاء ، وسجلوا أسماءهم ووظائفهم السابقة وعناوينهم ، وسلموا أماناتهم وهى عبارة عن قروش قليلة ، وقطع ملابس محدودة ، ثم ساروا فى طابور طويل صوب الزنازين المعدة لهم .. وتمتم رجل منهم :

- «ما قدر يكون ، وليس من المكتوب هروب .. وسجننا خلوة فالله اقبله منا قربانًا فى سبيل دينك .. يا مالك السماء والأرض ..» .

وكان من نصيب عبد الحميد النجار ورزق إبراهيم أن ذهبا إلى سجن أسيوط المركزى ، والطريق من القاهرة إلى أسيوط بالقطار طويل ، وفى كل محطة من المحطات يقف فيها القطار بالوجه القبلى أو الصعيد ، كانت توجد حراسة مشددة من بلوكات النظام ، وكانت هتافات السجناء السياسيين - كما يسمونهم - تشق عنان السماء ، مطالبة بالحريات العامة معلنة سخطها على أسلوب الحكم ، داعية إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ، والناس يقفون خلف «كردون»

العسكر ملوحين لهم، والدموع تترقرق فى عيون الكثيرين، وما أن وصلوا إلى السجن، قال أحد الإخوان الزجالين منشدًا:

وودونا على سجن أسيوط
ولبسونا بدلة وزعبوط
وجابوا لنا الشاويش عطعوط
ربنا يقبل مننا
ونخش الجنة كلنا

وردَّ عليه زجال آخر:

وودونا على سجن قنا
والصبر حادى ركبنا
زودوا فى الدعوة حبنا
ربنا يقبل مننا
ونخش الجنة كلنا

وقال الزجال الأول:

ودخلونا [قره ميدان]
مظاليم والله فى كل مكان
وشخط فينا الشاويش سمعان
ربنا يقبل مننا
ونخش الجنة كلنا

وأخذ السجانة يستمعون إلى الأزجال، وهم يخفون ابتسامتهم ودهشتهم، ومصمص أحدهم شفتيه قائلًا:

« لا حول ولا قوة إلا بالله .. أنتم أول مسجونين أراهم فى حياتى يدخلون السجن وهم يضحكون ويغنون .. يبدوا أنكم لا تشعرون

بالمصيبة التى حلت بكم .. يا خسارة على شبابكم ..» .
واحتشد كل عشرين فى زنزانة كبيرة، وألقوا بأجسادهم المرهقة من طول السفر على الأرض، ونام رزق إلى جوار عبد الحميد النجار وهمس :
– «فيمَ تفكر ؟؟» .
قال عبد الحميد :
– «أفكر فى كيف يأتى أهلى من «غزة» إلى هنا لزيارتى .. إنه سفر طويل للغاية .. ألا تعتقد أننا يا رزق سببنا لأهلينا الكثير من المتاعب ..» .
قال رزق :
– «سوف ينالهم ثواب كبير .. إنهم يشاركوننا أحزاننا ..» .
وتنهد عبد الحميد قائلاً :
– «ترى كم عامًا سنبقى هنا ؟؟» .
– «كله بثوابه ..» .
– «يخيل إلى فى بعض الأحيان يا رزق أننى سأقوم وأحطم جدران السجن، وأنطلق إلى الدنيا الواسعة، وأنعم بالحرية .. السجن شديد الوطأة يا رزق .. والأيام ستمر علينا ثقيلة قاتلة ..» .
وسمعهم أحد السجناء غير السياسيين وكان يجلس قبالتهم، فتدخل قائلاً، وهو يبتسم فى هدوء :
– «فى البداية ستتألمون، لكن الأيام ستمر، وستتعودون على السجن وتألفونه، وعندما تذهبون إلى «ورش النسيج» للعمل فى الصباح، وتنتهون منه فى المساء، سوف لا تشعرون بمرور الزمن .. أنا سجين منذ عشر سنوات .. مرت سريعة .. على الرغم من أنى قاتل ..» .
صرخ رزق قائلاً :
– «قاتل ؟؟» .

– «نعم .. أخذت بثار أخى ..» .

ودارت المناقشات بين المسجونين العاديين والمسجونين السياسيين ، وكانت هذه المناقشات بمثابة تعارف بين الطرفين ، وما هى إلا ساعة حتى أخلد الجميع للنوم .

الفصل ٣٠

شعرت نبيلة بوحدة مؤلمة وهى تهبط أرض تركيا فى «اسطنبول»، إنها لا تعرف أحدًا، وقصدت لتوها أحد الفنادق المتواضعة لتقيم فيه كما نصحها سائق التاكسى الذى يتكلم الإنجليزية بصعوبة، وعاشت فى الفندق تسعة أيام، كانت تجد خلالها مشقة كبيرة فى التفاهم مع العاملين والنزلاء، وبمحض الصدفة اكتشفت أسرة عراقية صغيرة تقيم فى ذات الفندق، وكان فرحها بالتعرف عليهم لا يُقدر، والحقيقة أن هذه الأسرة قضت بالفندق حوالى أسبوع قد قُدمت لنبيلة بعض النصائح الهامة فاشترت بتوجيه منهم كتابًا عن «كيف تتعلم اللغة التركية ؟» ولذا استطاعت أن تحفظ فيه العبارات والكلمات التى لا غنى عنها فى التعامل مع الناس، ومن ثم أمكنها أن تزور بعض المتاحف القديمة حيث آثار الخلفاء العثمانيين ومخلفاتهم الأثرية وعجائب تاريخهم العظيم، كما زارت مسجد «أيا صوفيا» الشهير، وغيره من المساجد الأثرية، وكم كانت دهشتها عندما وجدت تشابهًا كبيرًا بين تلك المساجد ومسجد القلعة فى القاهرة وغيره من المساجد الأخرى، حتى المطاعم فى شوارع «اسطنبول» تُقدم وجبات غذائية وحلوى شبيهة بما تقدمه مطاعم مصر، بل إن بعض الأغانى الشهيرة فى تركيا قد استعارت ألحان محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم وفيها الطابع الشرقى المميز، وانتشت «نبيلة» وهى تشم عطر التاريخ القديم .. فهنا قامت إمبراطورية إسلامية من أضخم الإمبراطوريات التى عرفها تاريخ العالم، وقد اجتاحت دول أوربا الشرقية والنمسا وغيرها .. ولكن للأسف هاهو الشعب التركى لا تكاد تعرف فيه من

يعرف اللغة العربية حتى الكلمات العربية الصميمة يكتبونها بالأحرف اللاتينية، إذ هم يقطعون بذلك العلاقة الوثيقة بين التراث الإسلامى العظيم وبين الحاضر، وغمغمت فى حسرة «لماذا فعلت ذلك يا كمال أتاتورك ؟؟» إنها جناية كبرى ..».

وانتهزت نبيلة الفرصة، وقامت بزيارة خاطفة إلى «قبرص» و«أثينا» و«روما» وبعض البلدان الأخرى، وفى كل مرة كانت تنزل مدينة من المدن تبعث برسالة موجهة إلى «عطوة الملوانى»، قالت فى إحدى هذه الرسائل :

– «.. لن تطولنى يدك الملوثة بدماء الضحايا أيها الوغد .. أنا هنا أتجول فى أنحاء العالم المتحضر، وأرى كيف يعيش الإنسان فى أغلب المدن التى أزورها وهو يستمتع بالحرية، وينعم بالحب والصفاء .. وأنت أيها المجنون تقضى نهارك ومعظم وقتك تتعبد فى محراب الشيطان، بصب العذاب فوق رؤوس الأبرياء .. أى حيوان أنت!!

مُت بغيظك، فسوف يأتى اليوم الذى تُحاسب فيه حسابًا عسيرًا، فأنت إنسان ضائع .. تافه .. لا معنى لحياتك، ولا تعرف روعة المبادىء ولذة العارفين بقدرة الله ..

ولا تنس أن تحمل خطابى هذا لرجال المخابرات، حتى يتسلوا بخيبتك وحقدك الصبيانى أيها الطفل الكبير ..».

كان «عطوة» يقرأ هذه الرسالة وهو يكاد يُجن، وكان يحملها فعلًا لجهات الأمن كى تُضم إلى ملفها الضخم، وليحشد ضدها الدليل تلو الدليل، على أمل أن يقتنعوا برأيه، ويقبضوا على أبيها، ويذيقوه العذاب ألوانًا.

وبعد مرور الشهر فى تركيا، وصلت رسالة من عبد العزيز السيسى يدعو فيها نبيلة لمقابلته فى بيروت بعد أسبوع، ولم تجد نبيلة كبير مشقة فى الذهاب إلى بيروت والالتقاء بعبد العزيز فى إحدى

دور النشر الكبيرة هناك، وهى دار متخصصة فى طبع الكتب الإسلامية، وفى الأيام الأولى التى قضتها نبيلة فى بيروت التقت بأعداد أخرى من اللاجئين السياسيين من مختلف الأحزاب والجماعات، وانبهرت نبيلة بجو الحرية فى مجال الكتابة والحوار والندوات فى بيروت .. لكن خوفًا غامضًا كان يسكن قلبها، إن هذه الحرية جميلة لا شك، لكن حوادث الخطف والغدر والاغتيالات هى الأخرى تُرتكب من آن لآخر .. مع ذلك فقد أدركت أن حصيلتها الثقافية تزداد يومًا بعد يوم، وأن الصحافة العالمية برغم ما فيها من تناقضات تكتب عن كل شيء، وتتناول بالتحليل الأحداث الجارية، وليست هناك موضوعات يحرم الاقتراب منها .. حرية العبادة موجودة .. وحرية الجنس .. والتجارة .. والعنف .. والفن الساقط والفن السامى .. إن رجال الله .. وأتباع الشيطان يعيشون جنبًا لجنب، لكن سلطان المادة خطير .. والناس ينحدرون إلى مستنقعات تفوح منها رائحة العفن والفساد والفجور .. هذا النوع من التحرر يخيفها، ويجعلها تشعر بذلك القلق المبهم، أو الخوف الغامض .. إنها تحلم بعالم نظيف .. آمن .. حر .. تكون العلاقات الإنسانية فيه مبرأة من الخداع والنفاق، لقد تألمت وهى تسمع أن بعض الصحف تبيع نفسها لمن يدفع أكثر، ومن تواجهه اليوم، قد تدافع عنه غدًا، ورأت بعض المطبوعات تؤله الطغاة، بينما البعض الآخر يصب اللعنات عليهم .. أى تناقض مريع هذا ؟؟

قالت للأستاذ عبد العزيز السيسى :

– «فى أى عصر نعيش ؟؟» .

– «فى النصف الثانى من القرن العشرين ..» .

نظرت إليه فوجدته يبتسم، فظلت على استغرابها وقالت :

– «أيمكن إصلاح هذا الركام الهائل من المفاسد ؟؟» .

قال بهدوئه المعهود :

– «ولمَ لا ؟؟ تذكّرى يوم خروج الرسول بدعوته، رأى العالم كله ينضح بالإثم والعار والشرك ..».

قالت نبيلة :

– «لم تكن الجاهلية القديمة على هذا النحو من التعقيد والخبث ..».

عاد يبتسم ويردد فى ثقة :

– «الناقة أصبحت طائرة .. والسيف صار قنبلة ذرية .. والشرك القديم أصبح ماركسية ووجودية .. وشاعر القبيلة صار إذاعات وصحف وتليفزيونات وسينما ومسارح .. لا جديد تحت الشمس .. والفتاة التى كانوا يدفنونها حية .. اليوم تمشى فى الشوارع عارية مثيرة .. وقد فقدت كل مقومات الشرف .. فهى جثة وإن كانت تتأوه وتضحك وتقارع الكؤوس ..».

وصمت عبد العزيز برهة فسمع نبيلة تقول :

– «ثم ماذا ؟؟».

– «لم يخل عصر من الآفات ..».

هزّت رأسها قائلة :

– «وعطوة الملوانى والطواشى أو الجلاد القديم ..».

– «بالضبط ..».

غمغمت فى شرود :

– «أين الطريق ؟؟».

قال عبد العزيز مرتلاً آية من القرآن :

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

همست :

– «صدق الله العظيم ..».

ثم عادت تقول :

– « الظلام كثيف » .
– « أعلم ..» .
– « وقد طالت غيبة الأحرار خلف الأسوار ..» .
– « ونحن هنا نسيح فى الدنيا طولاً وعرضًا ، وهم يعيشون فى زنازين ضيقة ..» .
– « هم أفضل منا » .
– « بالتأكيد ..» .
– « فلماذا الحزن ؟؟ » .
– « هم إخوتى .. فى كل مكان .. هم إخوتى ..» .
– « ما أروع هذا الشعور ؟؟ » .
وشردت بضع لحظات ثم قالت :
– « كان الدكتور سالم يستطيع أن يسافر .. أن يهاجر ويتحرر مثلنا من ظلمهم .. لكنه رفض ، وآثر أن يبقى فى المعركة .. وأن يصارع الوحش الأسطورى .. ودخل السجن راضيًا ..» .
ثم التفتت إلى عبد العزيز :
– « لماذا لم أفعل مثله ؟؟ » .
قال عبد العزيز :
– « ساحة المعركة واسعة ..» .
– « ماذا تعنى ؟؟ » .
– « جنود فى الداخل .. وجنود فى الخارج .. وصفوة أمامية ، وأخرى خلفية ، ومحاربون بالبنادق ، وآخرون يشهرون أقلامهم .. المعركة على امتداد رقعة الكرة الأرضية .. لا تظنى أنها فى مصر وحدها .. إن أصابع الشياطين فى أوربا وروسيا وأمريكا والبلدان العربية تمتد خفية إلى جميع أطراف الدنيا .. سالم هناك يجاهد بطريقته الخاصة .. ونبيلة تؤدى واجبًا آخر .. إنه نوع من التكامل لابد منه .. ففيم الحزن ؟؟ » .

ولما لم تجب ، اقترب منها قليلًا وقال :
– «نحن بشر ، وطاقتنا محدودة ، ولن نستطيع أن نغير الكون بين يوم وليلة ..» .
قالت :
– «أصبت، هذا ما يعذبنى.. لا أطيق الصبر على هذه المهازل ..» .
– «لو كانت المهازل رجلًا لقضى عليه الناس واستراحوا .. لكن الأمر كما ترين ..» .
واستطاع عبد العزيز أن يحل إشكال نبيلة فى الكويت ، فقد اتفق مع المسئولين أن تعود ، لكن الحكومة لا توافق على عودتها إلى أى عمل فى الوزارات ، وتم الأمر بهدوء ، ورجعت نبيلة مع عبد العزيز إلى مدينة الكويت ، والتحقت على الفور بإحدى دور النشر وهى مؤسسة أهلية تقوم بتوزيع الكتب ونشر بعضها ، وتُجرى بعض الدراسات فى موضوعات أغلبها علمى أو دينى ، وتساعد الباحثين فى بحوثهم ، بتقديم قوائم بأسماء الكتب والمؤلفين الذين تناولوا موضوع البحث ..
وفوجئت به نبيلة ذات يوم يأتى إليها فى مكتبها ، كان الحرج يبدو فى حركاته وكلماته ، أدركت أن وراء الأمر شيئًا ، تشاغلت فى تصفح أحد الكتب ، بينما أخذ هو يفتح صحيفة ، وسرعان ما يلقيها جانبًا ، ثم تناول أخرى ، وأخيرًا تنحنح وابتسم وقال :
– «أنا أحب الصراحة ..» .
نظرت إليه فى ود :
– «لا داعى للمقدمات ..» .
– «لابد من الحيثيات ..» .
هزت رأسها ونظرت إليه ، وبدا الاستعداد عليها لتسمع ما يقول :
– «أنت مثل ابنتى .. وحياة الهجرة التى نحياها فيها الكثير من الملل والألم والشرود .. والإنسان فى مثل هذه الظروف – مهما كان

الأمر – فى حاجة إلى من يشاركه حياته ، أليس هذا صحيحًا ؟؟ » .
أرخت أهدابها ، وأدركت على الفور ما يرمى إليه ، إنه لا شك يريد أن يعرض عليها الزواج من أحد الإخوان المهاجرين الذين تعرفهم ، وتحققت توقعاتها حينما سمعته يقول :
– « أنت تعرفينه .. والزواج نصف الدين ..» .
احمر وجهها خجلاً وقالت :
– « أهو أمر ؟؟ » .
قال مؤكدًا :
– « كيف ؟؟ إن موضوعًا كهذا ليس فيه أمر على الإطلاق ، والزواج اختيار حر .. ورغبة من الطرفين ..» .
هى لا تدرى لماذا تذكرت سالمًا فى هذا الوقت بالذات ، لقد انتصب خيالها بعوده الفارع ، ومعطفه الأبيض ، وابتسامته الصافية الحلوة ، هتفت على الفور والدموع تبلل عينيها :
– « كيف نقيم الأفراح ، والرجال خلف الأسوار يتعذبون ؟؟ » .
كان ذكيًا ، لذا رد قائلاً :
لا تعارض بين الاثنين .. هكذا الحياة .. الناس يموتون ، والأطفال يولدون كل لحظة .. وموكب الحياة يسير ..» .
وعندما لاذت بالصمت ، وارتسم الارتباك على ملامحها وحركات يديها قال :
– « أهناك رجل آخر ؟؟ » .
هتفت بعد أن شردت لحظات ، وهى تهز رأسها :
– « أجل » .
– « متأسف .. والآن لننتقل إلى موضوع آخر ..» .
ومرت الأيام متوترة حزينة ، إن الأحداث لا تتوقف ، وتيارها الصاخب يهدر فى عنف ، والصراع الدائر يتوهج ويملأ الأفق بالدخان الأسود مع ذلك ، فقد صدرت قرارات ملفتة للنظر فى مصر ، لقد صدر

الدستور المؤقت لعام ١٩٥٦، وأفرج عن المعتقلين الذين لم تصدر ضدهم أحكام، أما المسجونون من أمثال رزق إبراهيم وعبد الحميد النجار، فقد ظلوا خلف الأسوار يعانون جفاف الحياة وقسوتها ومرارتها، ومع ذلك فقد دخلت الفرحة بعض البيوت، إن خروج المعتقلين إلى الحياة من جديد أمر يبشر بالخير، على الرغم من الشروط القاسية التى وضعتها المباحث العامة للمفرج عنهم، فغير مسموح لهم بالانتقال من بلد إلى بلد إلا بعد إخطار المباحث رسميًا بذلك، ولا يحق لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين المنحلة الالتقاء أو التزاور مع بعضهم البعض، كما صدرت قرارات نقل للكثيرين من الموظفين منهم إلى جهات نائية، مع التنبيه بعدم توليهم المناصب القيادية، كما صدر قانون بالعزل السياسى بحرمانهم من حق التصويت أو الترشيح للانتخابات العامة، وعدم دخول أبنائهم الكليات العسكرية، أو الالتحاق بالسلك الدبلوماسى، وغير ذلك من الوظائف الحساسة، بالإضافة إلى تشديد الرقابة عليهم، وضرورة التدقيق على كل ما يؤلفه كُتَّابهم قبل طبعه..

وروّجت الصحافة المصرية للدستور الجديد المؤقت، وأجريت التحقيقات الصحفية المصورة مع كبار الممثلين والفنانين والراقصات عن مشاعرهم عند صدور الدستور، وعن اختيار الرئيس كأول رئيس جمهورية منتخب بالاستفتاء الكبير، وأشاد المحررون بحياة الحرية والكرامة والاستقلال..

لكن الشيء الذى لم يخطر لنبيلة على بال قد حدث فعلًا.. كانت تسير فى غبش الليل قبيل العشاء عائدة من مكتبها، وكانت تسير مسرعة كعادتها، ورأسها يدور بالعديد من الأفكار، لقد دأبت على إدمان الحوار الداخلى بينها وبين نفسها، بعد أن اندمجت فى القراءات المتنوعة، وكانت تسارع بتسجيل خواطرها وأفكارها فى دفاترها الخاصة.. وكلما تعمقت فى القراءة كلما وجدت نفسها فى

حاجة ماسة إلى المزيد ، إن حياة الفكر رحبة لا نهاية لها .. وفى أثناء سيرها فى ذلك الشارع الجانبى التى تسكن قرب منتصفه أفاقت من شرودها على طلقات رصاص متتابعة .. وقفت لحظة ودارت بنظراتها فى خوف .. ووجدت شبحًا يتوارى مسرعًا .. أدركت على الفور بغريزتها أن شيئًا خطيرًا يحدث .. جرت بأقصى ما تستطيع من قوة ، وما أن دلفت إلى الداخل وهى تلهث حتى أخذت تتحسس جسدها .. لم تكن تصدق أنها نجت .. كيف لم تصبيها رصاصة ؟؟ تقاطر العرق على جبينها ، ودخلت غرفتها فى الطابق الثانى شاحبة .. كانت أنفاسها تتلاحق .. قالت الأرملة التى تسكن معها هى وأولادها الثلاثة :

- « ماذا جرى لك يا ست نبيلة ؟؟ » .

قالت وهى تقذف بحقيبتها وأوراقها على المكتب الخشبى الصغير .

- « لا شىء ..» .

ثم ألقت جسدها على المقعد ، وسرعان ما انفجرت باكية ، هرولت نحوها السيدة وداد هى وأولادها فى ارتباك :

- «تكلمى يا ابنتى.. هل حاول بعض الشباب الطائش اختطافك؟؟ » .

جففت نبيلة دموعها ، واستعادت رباطة جأشها ثم قالت :

- « أشكرك .. كونى مطمئنة .. لم يحدث شىء مما تفكرين فيه ..» .

وبعد دقائق ، تناولت التليفون ، ثم طلبت عبد العزيز السيسى ، وسرعان ما عاد الرجل مع زوجته ، واصطحباها للخارج ، وفى بيته روت له نبيلة القصة كاملة ، كان الأمر خطيرًا ومحيرًا ، واضح أنها مطاردة سياسية خبيثة فى ظل الدستور الجديد ، وهذا يحدث أحيانًا فى كثير من الدول ، لكن المشكلة أن «نبيلة» لم تستطع أن تدلى بأية أوصاف للرجل الذى حاول اغتيالها ، وبعد ساعة عقد اجتماع عاجل فى بيت عبد العزيز حضره نخبة من الإخوان الثقاة ، وبعد أن تدارسوا

الأمر ، اتخذوا بضعة قرارات ، أهمها عدم إبلاغ السلطات الداخلية عن الحادث، فقد يكون لذلك أثره فى تغيير سياسة الحكومة إزاء السياسيين المهاجرين عمومًا إلى الدولة ، لأنهم فى الكويت لا يريدون أن تحدث مثل هذه الأمور فى بلدهم ، ومن القرارات أيضًا انتقال نبيلة إلى مسكن آخر ، وتكليف أحد الإخوان بحراستها فى المكتب ، وأثناء تنقلاتها ، وعدم السماح لها بالتنقل وحدها ، مع اتخاذ باقى الاحتياطات الأمنية اللازمة، وعمل التحريات اللازمة نحو ذلك « الشخص المجهول » .

وعندما جاء موسم الحج، توافد عدد غير قليل من الحجاج المصريين إلى الكويت ، وكان من بينهم عدد من الإخوان الذين سبق اعتقالهم، استطاعوا بجهودهم الشخصية، وبعض الوساطات أن يأخذوا موافقة للحج ، فانتهزوا الفرصة ، وتحولوا إلى عدد من الدول العربية , ورفضوا العودة إلى مصر .. وكان لهؤلاء الإخوان الكثير من الأخبار والتقارير التى استقبلها عبد العزيز السيسى ورفاقه بكثير من الاهتمام .. وعلمت نبيلة بالأمر ، فكانت جد متشوقة للالتقاء بهؤلاء الإخوان ، والاستفسار منهم عن مجريات الأحداث بعد سفرها ..

وأثناء عملها فى الفترة المسائية كانت تقرأ كتاب « الإسلام فى القرن العشرين » للكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، وكانت تسجل بعض الفقرات فى بطاقات صغيرة ، كانت نبيلة مشدودة بقوة إلى تلك الصفحات التى يتحدث فيها الكاتب عن الإسلام كقوة غالبة .. وقوة صامدة .. والأخيرة تصور صمود الإسلام أمام تيارات العداء العالمى والتاريخى الرهيبة وازدياد أنصاره برغم كل ذلك .. وجاءها صوت يقول :

– « السلام عليكم ..» .

ورفعت رأسها .. وجدته واقفًا قبالتها بهامته الشامخة ، وابتسامته الصافية .. هزت رأسها ، ثم فركت عينيها وهتفت وهى

تكاد تتهادى :
- « من ؟؟ الدكتور سالم ؟؟ غير معقول ..» .
سالت الدموع على خديها ، صافحها فى ود ، لم تستطع أن تتكلم ، أدرك أن الموقف قد أغرقها فى طوفان من المشاعر الهادرة ، حاول أن يخفف وطأة المفاجأة ، فأخذ يقول :
- « دعوت لك الله فى البيت الحرام .. وعلى صدر جبل « عرفات » الحنون .. وأنا أصلى المغرب والعشاء قصرًا فى المزدلفة .. وفى المشاهدة الخالدة فى كل مكان طاهر مقدس ..» .
يبدو أن كلماته أتت بنتيجة عكسية ، فقد انفجرت باكية بحرقة ، حاول أن يمزح فقال :
- « وكنت أقذف الشيطان بالجمرات .. وصورة عطوة الملوانى وسادته الطغاة تنتصب فى خيالى .. خيل إلى أن إحدى الحصوات ارتدت وأصابت عينه ..» .
وأخذ يضحك .. وأخذت هى الأخرى تضحك والدموع فى عينيها ..
وسادت فترة صمت .. دقت نبيلة الجرس .. ودخل أحد العاملين بالمكتب حاملًا القهوة .. ثم قالت نبيلة :
- « كيف حال أبى ؟؟ » .
بدا الألم على وجهه .. وحاول أن يهرب من نظراتها ، فلم يستطع ، وحاول مرة أخرى أن يقول كلمات غير الحقيقة فلم يطاوعه لسانه ، وفى لحظات قرأت كل شىء على وجهه ، هبّت واقفة خلف مكتبها ، ثم استدارت نحوه ، وأمسكت بكتفه قائلة :
- « أريد أن أعرف الحقيقة ..» .
غمغم :
- « كلنا فى نفس الطريق سائرون .. والبقاء لله وحده ..» .
ولم تدر نبيلة ماذا جرى لها بعد ذلك ، وعندما فتحت عينيها ، وجدت الموظفات العاملات بالمكتب إلى جوارها ، والدكتور سالم

واقف بالباب، وكانت الزميلات يمسحن على وجهها ورأسها، ويجففن دموعها ..

وبعد أسبوع التقت نبيلة بالدكتور سالم الذى شغل وظيفة طبيب بمستوصف «حولى» بالكويت، كانت الساعة قد شارفت الثانية بعد الظهر، وركبا سيارته الجديدة، قال ببساطة وهو ينطلق مسرعًا :

– « شكرًا للأستاذ السيسى، فقد أقرضنى ثمن هذه السيارة ..» .

ثم التفت إليها قائلًا :

– « على فكرة .. لقد دعانى على مائدة الغداء اليوم .. وأخبرنى أن أحضرك معى، ولهذا كلمتك فى التليفون ..» .

وسادت فترة صمت، كان جسدها يرتجف برغم الحر الشديد، وبأسلوبه البسيط نفسه استطرد :

– «كلمت أباك قبل أن يختاره الله إلى جواره ..» .

– «فيم ؟؟» .

ابتسم ثم قال :

– «قال لى : لا مانع لدى .. بشرط أن توافق نبيلة ..» .

– «لا أعرف عما تتحدث ..» .

وفجأة أخذ يقهقه، وشاركته نبيلة الضحك، ومال نحوها قائلًا :

– « ألا تقبلين الزواج منى ؟؟ » .

قالت :

– «وكيف أتزوج معزولًا سياسيًا ؟؟ » .

قال :

– «وماذا يفعل المعزول السياسى ؟؟ » .

قالت :

– «لا أدرى ..» .

– «يتزوج معزولة مثله ..» .

وقال سالم :

– « والأستاذ عبد العزيز السيسى فى مقام أبيك ..» .
طأطأت رأسها قائلة :
– « أجل ..» .
عاد يقول :
– « وسنبدأ معًا من جديد رحلة أخرى ..» .
ردَّت قائلة :
– « لقد بدأنا منذ التقينا أول مرة ..» .
– « وأنا لا أخاف المستقبل .. الخوف من الغد موت وعذاب .. لقد أسدل الستار على فصل .. واليوم نبدأ قصة جديدة ..» .
هزَّت رأسها قائلة :
– « نعم .. فالأسوار والأسلاك الشائكة لم تزل هناك والكلاب المسعورة تنبح .. وصراخ الضحايا ما زال صداها يطن فى أذنى ..» .
غمغم :
– « الأيدى التى بنت الأسوار تستطيع أن تهدمها .. والكلاب عمرها قصير .. وهى ليست مشكلة لأنها حيوانات مسخَّرة .. أما الضحايا .. فهم أحياء عند ربهم يرزقون .. وإيمانى بالنصر كإيمانى بالله .. لأنه سبحانه هو الذى وعدنا به ..» .
قال وهو يبتسم :
– « وأنا أيضًا ..» .